كفاح شعب مصر: (٣)

مصر تحت الاحتلال الإنجليزي

الجزء الثالث

تأليف

دكتور/ محمد مورو



٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - جيزة - ج . م . ع
تليفاكس / ٣٢٥٠٢٠٢


بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب : كفاح شعب مصر (٣)

مصر تحت الاحتلال الإنجليزي

المؤلـــف : د.محمد مورو

الغـــلاف : أحمد يحيي البدوى

رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٨١٤٤

الطبعة الأولى: مايو / ٢٠٠٧م

ربيع ثاني ١٤٢٨هـ



الناشر

مكتبة ومطبعة الغد

٢٣ شارع سكة المدينة - ناهيا - إمبابة - جيزة ت ٣٢٥٠٢٠٢ م.ع

مقدمة

عقب هزيمة الثورة العرابية، ودخول الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢ بدأت حقبة جديدة في تاريخ النضال المصري، وفي تاريخ الصراع بين مصر كشعب مسلم وبين إنجلترا كممثل للاستعمار الصليبي الأوروبي، كان الإنجليز بنجاحهم في دخول مصر سنة ١٨٨٢، قد حققوا هدفًا هامًا من أهداف الحملة الاستعمارية على بلاد العالم الإسلامي، وهو الهدف الذي طالما حلموا به وعملوا من أجله بدءًا من الحروب الصليبية ومرورًا بالحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ وحملة فريزر ١٨٠٧.

وبدخول الإنجليز مصر بدأت حقبة جديدة من الصراع بين التكتيك الاستعماري وبين الكفاح الشعبي في مصر، وهو الأمر الذي ظلل مساحات التاريخ منذ ١٨٨٢، وحتى خروج الاستعمار الإنجليزي في ١٩٥٤، لتشهد المنطقة نوعًا جديدًا من الاستعمار يحمل طابعًا جديدًا، وهو الاستعمار الأمريكي.

وهكذا فإن هذه الدراسة سوف تهتم بشكل أساسي بتتبع أساليب وتكتيكات الاستعمار الإنجليزي في مصر لتحقيق الأهداف الثابتة للحقبة الاستعمارية والظاهرة الاستعمارية، وكذلك الاهتمام بحركات المقاومة الشعبية ضد هذا الاستعمار وضد أساليبه وتكتيكاته.

التكتيك الاستعماري

عندما فشلت المحاولات الاستعمارية الأولى في احتلال مصر سنة ١٧٩٨ و ١٨٠٧ أدركت القوي الاستعمارية أن هناك عوامل يجب القضاء عليها قبل التفكير في احتلال مصر لأنه طالما ظلت تلك العوامل موجودة في الواقع فإن احتلال مصر يعد ضربا من المستحيل.

وهكذا بدأت محاولات اختراق الواقع المصري سلميا، ومحاولة صياغة المجتمع المصري بطريقة تفقده القدرة على المقاومة والصمود.

كانت تلك العوامل تتمثل في:

- شعور قوي بالانتماء إلى الإسلام كدين وكثقافة وكحضارة رافضة ومغايرة للحضارة الأوروبية، بل وتدرك الجماهير أنها في حالة صراع حضاري مع أوروبا.
- تركيبة اقتصادية واجتماعية وسياسية تحقق أكبر قدر من المشاركة الشعبية في عمليات المقاومة، وتمنع أو تقف عائقا أمام محاولات الاختراق الثقافي والاقتصادي
- وجود مؤسسات شعبية قادرة على حشد الجماهير وتعبئتها مثل الأزهر مثلا.

وهكذا شهدت سنوات ١٨٠٧: ١٨٨٢ محاولات مستمرة لضرب ذلك الشعور وتلك التركيبة والقضاء على كل المؤسسات القادرة على الحشد والتعبئة.

استطاع الاستعمار من خلال وسائل متعددة أن يحقق ذلك من خلال أصابع محلية متمثلة في حكومات محمد على وسعيد وإسماعيل وتوفيق.

فقد استطاع محمد علي أن يدمر البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي حققت الصمود أمام الاستعمار وأن تقلص إلى حد كبير دور الأزهر كمؤسسة للحشد والتعبئة ، كما فتح سعيد وإسماعيل الباب واسعا أمام الاختراق الاقتصادي والثقافي لبلادنا.

وكانت الثورة العرابية، محاولة إسلامية واعدة، للتصدي لذلك كله ومحاولة ضرب النفوذ الأجنبي وإعادة بناء مصر إسلاميًا لتكون قاعدة للإسلام تعيد إليه شبابه أو على الأقل تعرقل المشروع الاستعماري في شمال أفريقيا.

وعندما لاح هذا الخطر، قامت أوروبا بتسوية خلافاتها وأطلقت يد إنجلترا في مصر مقابل ذبح الثورة العرابية والقضاء على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تحقق الصمود والمقاومة.

وكان الاحتلال الإنجليزي يعرف أن احتلال القاهرة والقضاء على الثورة العرابية لا يكفي لدوام الاحتلال وتحقيق أهدافه، ولكن لابد من القضاء على جذور الثورة، وعلى عوامل الثورة في المجتمع المصري، وهكذا استخدم الاستعمار الإنجليزي كل الأساليب والتكتيكات التقليدية والمستحدثة لتحقيق ذلك.

وفي السنوات العشر الأولى للاحتلال قامت إنجلترا بإلغاء الدستور والقضاء على الجيش المصري والبحرية المصرية وجردت البلاد من كل قوة عربية وصاغت الاقتصاد المصري بطريقة تحقق أكبر قدر من النهب والتبعية، وأكرهت الحكومة المصرية على إخلاء السودان تمهيدًا للانفراد به وفصله عن مصر نهائيًا كما قامت بزرع مؤسسات وأفكار التغريب في التربة المصرية.

السيطرة على الجيش والبوليس

أستهدف الإنجليز منذ اللحظة الأولى للاحتلال القضاء علـــى الجـــيش المصري وإضعافه والسيطرة عليه وتحويله إلى جهاز للقمـــع ضـــد حركـــة الشعب بلا من أن يكون كما هي العادة درعا لحماية استقلال البلاد وخـــوض معاركها المصيرية.

وهكذا لم يمض خمسة أيام فقط على الاحتلال حتى استصدر الإنجليـــز قرارا خديويا بإلغاء الجيش المصري "صدر هذا المرسوم فـــي ١٩ ســـبتمبر ١٨٨٢، وكان الإنجليز قد دخلوا القاهرة في ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ " وبموجـــب هذا المرسوم تم تسريح جميع جنود وضباط الجيش المصري، وتـــم تشـــكيل جيش جديد هزيل قوامه ٦ آلاف جندي يكون تحت قيادة ســـردار إنجليـــزي وظل هذا المنصب محصورًا في القواد الإنجليز طوال عهد الاحتلال " السير افلن وود حتى عام ١٨٨٥، السير جرنفـــل ١٨٨٥، ١٨٩٢، اللـــورد كتشـــز ١٨٩٢، ١٨٩٩، السير ونجت ١٨٩٩، ١٩١٩، السير ستاك ١٩١٩، ١٩٢٤".

كما تم إسناد كل المناصب القيادية في الجيش مـــن مشـــاه ومدفعيـــة وفرسان وأركان حرب إلى ضباط إنجليز، وبلغ عددهم ٧٥ ضابطا، كما تـــم إقصاء الضباط المصريين عن قلم المخابرات وعن إدارات الجـــيش الهامـــة، ومن بقي من المصريين كان يتم إقصاؤه إذا أبدي أي روح وطنية وإذا لم يكن مجرد أداة في يد الإنجليز.

وبالطبع لم يدخر الإنجليز جهدا في إضعاف الجيش المصـــري، فـــتم

إلغاء المدارس الحربية فأصبحت واحدة فقط بعد أن كانت تسع مدارس، وأقتصر التعليم في تلك المدارس على معلومات ضئيلة يقوم بتدريسها معلمون من الإنجليز وصار تلاميذها يؤخذون من ساقطي الشهادة الابتدائية، وكل ذلك من أجل تحويل الجيش المصري إلى مجرد أداة قمع في يد الإنجليز.

ومما يؤكد ذلك أن المواد الدراسية التي كانت تدرس في المدارس الحربية قبل الاحتلال كانت كالتالي:

قمسوجرافيا، كيمياء، استحقاقات، أبنية عسكرية، طبوغرافيا، مدفعية، ميكانيكا، فنون عسكرية، طبيعة، جبر، هندسة، جغرافيا، قوانين عسكرية، هندسة وصفية، جبر مثلثات مستقيمة، خط، لغة عربية، لغة فرنسية، لغة إنجليزية، لغة ألمانية، فن الإشارة، حساب، رسوم عملي، رسم نظري، لغة حبشية " أما بعد الاحتلال فكانت " لغة إنجليزية، مبادئ طبوغرافيا قانون المشاة " (1).

كما تم إلغاء جميع الترسانات ومصانع صب المدافع وصنع البنادق والذخائر، وصارت مهمات الجيش وذخيرته تشترى من إنجلترا، وحرم الضباط المصريين من حراسة مستودعات السلاح والذخائر بل كان يسند إلى الضباط الإنجليز ذلك، وصارت الذخيرة لا توزع على الجنود إلا عند التمرين.

أكثر من هذا أن شروط اختبار ضباط جدد أصبحت ضعيفة جدًا وتقتصر على الإلمام بالقراءة والكتابة، الحساب، التاريخ، الجغرافيا، اللغة الإنجليزية أو الفرنسية، الجبر والهندسة، علم ركوب الخيل، بل إن المواد

الثلاثة الأخيرة لم تكن ضرورية، ومن ينجح في هذا الاختبار يعين ضـابطا لمدة ثلاثة أشهر، ثم يثبت إذا حسنت الشهادة في حقه من رئـيس الأورطـه الإنجليزي الذي يلحق بها [٢].

أي اختيار ضباط بلا كفاءة عسكرية، بل مجرد فرد بلا كفاءة حربيـة أي مجرد ضابط في جيش للقمع الاستعماري ليس إلا.

بل وتم إلغاء قوانين الإصلاحات العسكرية التي كانت الثورة العرابية قد نجحت في استصدارها في ٢٢ سبتمبر ١٨٨١، وكان المقصود منها تحسـين حالة الضباط والجند، كما تم إلغاء مرسوم ٢٠ إبريل ١٨٨١.

وعلى مستوى القوات البحرية تم إلغاء تلك القوة، ولم يبق فيها سـوى سفينة واحدة هي "المحروسة" خصصت لركوب الخديوي، وعطلت الترسـانة بالإسكندرية وتم بيع آلاتها ومعداتها وأصبحت أثر بعد عين.

كما ألغيت المدرسة البحرية بالإسكندرية، وعطل الحـوض البحـري المعد لإصلاح السفن والحق الحوض القائم، الذي كان بالإسكندرية بمصـلحة وابورات البرستة الخديوية، وألغي أيضًا حوض السفن بالسويس، وبذلك ألغيت البحرية الحربية إلغاءً تامًا، وأصبحت مصر بلا أسطول.

وعلى مستوى البوليس تم تعيين مفتش إنجليـزي وقومنـدانا عامـا إنجليزيا، وبذلك صارت للإنجليز السيطرة التامة على قوات البوليس [٣].

دعم الاستبداد .. تقليص الحريات

الحضارة الإسلامية هي حضارة الحرية، والأمة الإسلامية لا تبدع ولا تتقدم إلا في ظلال الحرية، والقضاء على الحرية هدف استعماري ثابت، وإذا كان الاستعمار أحيانا يلجا إلى إتاحة شيء من الحرية في لحظات المد الثوري بهدف تنفيس الضغط، ومنع انفجار الثورة، فأنه ما أن ينجح في ذبح الثـــورة فأنه يسفر عنه وجهه الاستبدادى القبيح.

فتم إلغاء الدستور، وتسريح البرلمان وصدر مرسوم جديد في أول مايو سنة ١٨٨٣ بإنشاء مجلس شوري القوانين والجمعية العمومية، وهما هيئتـــان مجرد تان من كل سلطة على حد تعبير الرافعي (٥)، وظل هذا النظام مستمرا لمدة ثلاثين سنة منذ ١٨٨٣ إلى ١٩١٣ حيث حـــل محلــه نظـــام الجمعيـــة التشريعية سنة ١٩١٣ــ أيضًا لم تكن لها سلطة ــ وكان الهدف من كل ذلـــك دعم مؤسسة الاستبداد، وإطلاق يد الخديوي، وبالتالي يد الإنجليز في شئون مصر.

وبالطبع قامت السلطات الاستعمارية بمطاردة كل من يفكر في مقاومة الاحتلال واكتظت السجون بالوطنيين، ومنعت الصحافة الوطنية من الصدور، وألغيت الاجتماعات والندوات والخطابة السياسية، بل الصـــحف المناهضـــة للاحتلال والتي كانت تصدر بالخارج مثل صحيفة العروة الوثقى منعت مـــن دخول البلاد، وفرضت عقوبات رادعة على من تضبط بحوزته داخل مصر.

أي أن الاحتلال قام بمصـــادرة كـــل المكاســـب الوطنيـــة الدســـتورية والبرلمانية، ودعم الاستبداد وطارد الوطنيين كشأنه دائمًا.

ضرب حالة من التخلف والفساد على البلاد

عمل الاستعمار على تحقيق شكل اجتماعي ملائم لسيطرته، وبحيث يكون هذا الشكل حائلا دون ظهور عوامل قوة أو مقاومة أو صمود لدى الشعب المسلم في مصر فمن ناحية كرس الاستعمار حالة الاغتراب القانوني وإبعاد الشريعة الإسلامية عن الحكم والقضاء بهدف إفقاد الأمة ملامح تميزها وهويتها المستقلة، وإذا كانت تلك المسالة قد بدأت مبكرا في عهد محمد على وسعيد وإسماعيل، فإن الاحتلال أعطاها شكلها النهائي باستصدار عددا من القوانين المستمدة من القانون الأوروبي ومن النمط القانوني الأوروبي فصدر في سنة ١٨٨٣ القانون المدني وقانون التجارة والقانون التجاري البحري وقانون المرافعات وقانون العقوبات، وقانون تحقيق الجنايات، كما صدرت المراسيم بتنظيم المحاكم والدوائر والنيابة العامة.

وصحيح أن تلك المراسيم حققت شيئًا من الانضباط القانوني وسهلت أمر الفصل في المنازعات القضائية، ولكن الاستعمار سمح بذلك في إطار تكريس الهيمنة القانونية في الشكل والمضمون للنمط القانوني الأوروبي على حساب استبعاد الشريعة الإسلامية، بهدف ضرب ملامح الاستقلال والتميز القانوني والقضاء على الهوية التشريعية الوطنية لبلادنا المتمثل في الشريعة الإسلامية، أي أنه نجح في ضرب ملامح الانتماء والمقاومة المتمثل في الشريعة الإسلامية لصالح النمط القانوني الأوروبي الذي يحقق خطوة على طريق الذوبان الحضاري لبلادنا في الحضارة، وهو هدف استعماري ثابت

وعلى مستوى الفساد الأخلاقي، نجح الاستعمار في نشر الخمر والميسر

والملاهي في طول البلاد وعرضها حتى أقاصي الصعيد، كما انتشر الربا بصورة فاحشة في كل مكان، كما عمل على زرع أنماط السلوك الغربي والقيم الغربية في التربة المصرية، وكل هذا من أجل تحقيق نوع من الانحطاط الأخلاقي لشعبنا يحول دون ظهور عوامل المقاومة والتصدي، ويحقق في نفس الوقت نوع من التذويب الحضاري لبلادنا في الحضارة الغربية، فضلا عن تحقيق عمليات النهب الاقتصادي عن طريق الخمر والميسر والملاهي والربا التي أدارها الأجانب.

وفي هذا الصدد يقول الرافعي: تدهورت الأحوال الاجتماعية في البلاد تحت الاحتلال تدهورا بالغا، بل وقامت الحكومة برعاية الآفات الاجتماعية القادمة من أوروبا فعمت طبقات الشعب كبيرها ومتوسطها وصغيرها على السواء مثل الربا الذي انتشر انتشارًا ذريعًا في حماية القوانين والنظم، كما انتشرت الخمور الفتاكة بين سكان المدن والريف، وصارت محلات المسكرات تفتح علنا في القرى بين الفلاحين وفي الأحياء الآهلة بالعمال في المدن برعاية الحكومة وحمايتها وفي كنف الامتيازات الأجنبية مما أدى إلى إفساد الصحة والمال والدين والخلق ونقصت القدرة على الإنتاج وزادت حوادث الإجرام بسبب ذلك" (٤).

وعلى مستوى التعليم، فبعد أن كان مجانيا قبل الاحتلال في أقسامه الثلاثة الابتدائي والثانوي والعالي، فقد ألغيت هذه المجانية، كما وقفت حركة إنشاء المدارس بل وأغلق بعضها، وبعد أن كانت العلوم تدرس باللغة العربية تقرر جعل التعليم باللغة الإنجليزية ابتداء من السنة الثالثة من القسم الابتدائي،

وحل المدرسون الإنجليز محل المصريين تدريجيًا.

وفي هذا الصدد يقول الرافعي: رجع التعليم القهري في عهد الاحتلال" (٥).

ويقول تقرير لمجلس شوري القوانين في ديسمبر ١٨٩٤:" إن نشر التعليم قد تقهقر كليا عما كان عليه قبل ذلك، وأن القابضين على زمام نظارة المعارف العمومية وإداراتها قد سعوا بكل اجتهاد إلى تقليل طرق التعليم وسد أبوابه بكل حيلة أمام الأمة " (٦).

ويقول أدورد لامبير ناظر مدرسة الحقوق الخديوية سابقًا، وكان عضوًا بلجنة امتحان شهادة الدراسة الثانوية:" إن مستوى التعليم في مصر يعادل في الثانوية التعليم الابتدائي في فرنسا " (٧).

وبالنسبة للتعليم العالي فلم يبقي منه ألا أربعة مدارس سنة ١٩١٠ هي الحقوق، والطب، والهندسة، والمعلمين، وانحطت برامج التعليم فيها واقتصرت مهمة التعليم على إعداد موظفين مطبوعين بطابع الولاء للاحتلال الأجنبي.

وعصف الاحتلال بالتعليم الحربي والصناعي بالكامل وكذلك البعثات الدراسية في جامعات أوروبا.

كما تعمد الاحتلال أن يستبعد التاريخ الوطني الصحيح من مناهج الدراسة لكي ينشيء جيلا محروما من معرفة تاريخ بلاده، ولا يفرق بين معني الاحتلال والاستقلال. بل صارت غاية التعليم محاربة الشعور الوطني وأمانته في النفوس.

إذن فإن السياسة التعليمية الإنجليزية التي رسمها كرومر ودانلوب كانت تستهدف القضاء على التعليم ونشر الجهل من ناحية، وصياغة برامج

التعليم بطريقة تخدم الاحتلال من ناحية أخري. فكان تقليص ميزانية التعليم وإلغاء المدارس مثل مدرسة الطب البيطري، والزراعة، والآثار المصرية، والفنون الجميلة، ومدرسة المساحة. [٨]

وكان التعليم المتاح بالمصروفات وإلغاء المجانية، وكان تدريس العلوم باللغة الإنجليزية وذلك لقهر اللغة العربية وإخماد الإحساس الوطني وتسهيل عملية الاختراق الثقافي الأوروبي لمصر، ويلخص كرومر المسألة كلها قائلا بلا حياء " إن إبطال التعليم المجاني وازدياد أجرة التعليم في المدارس المتفرنجة ليسا من دلائل التأخر ولا هما مضران بمصلحة البلاد الحقيقية فقط، بل هما بمثابة إبطال امتيازات استغرقت حتى الآن كل أموال نظارة المعارف " [٩].

ويضيف كرومر " إن غرض الحكومة في السنين الأخيرة مزدوج، فقد كان قصدها الأول الاقتصار على التعليم البسيط والغرض الثاني هو إعداد فريق منهم لكي يتقلدوا الوظائف الحكومية، فهدف التعليم هو أخراج موظفين لا أدباء ولا علماء " [١٠]

ويكشف أحد معاوني كرومر المسألة أيضًا بكل وقاحة قائلا " إن الخطأ الكبير في تعليم الفقراء هو أن تعليمهم كان في الغالب علميا أكثر من اللازم " [١١].

ويعلق عبد الله النديم على سياسة التعليم باللغات الأجنبية قائلا: فإذا حولنا طريقة التعليم باللغة الوطنية إلى التدريس باللغات الأجنبية فقدنا قوميتنا وجنسيتنا وديننا وأصبحنا أجانب بين قومنا" [١٢].

إذا فقد استهدف الاستعمار تقليص التعليم إلى أقصي درجة، ثم صياغة

ما تبقي منه بصورة تخدم أهداف الاحتلال فهو تعليم لتخريج الموظفين، وهو تعليم يستبعد التاريخ الوطني، وهو تعليم ينشر اللغة الإنجليزية خصوصًا، واللغات الأوروبية عمومًا، ثم هو تعليم لا يشتمل على العلوم الطبيعية أو الصناعية أي لا يخدم النهضة الصناعية أو التقدم العمراني، ثم هو يطمس الهوية الوطنية.

صياغة البنية الاقتصادية بطريقة تخدم أهداف الاستعمار

من الأهداف الثابتة للاستعمار ضرب أنماط الاقتصاد الوطني عمومًا، والصناعي منها خصوصًا، ومن أهدافه الثابتة عدم السماح بظهور نهضة صناعية أو اقتصادية بأية صورة من الصور، ثم صياغة الأنماط الاقتصادية بطريقة تحقق اكبر قدر من النهب والتبعية، وقد ناقشنا وسائل وطرق الاستعمار لتحقيق ذلك في أجزاء سابقة من هذه الدراسة.

وفي هذا الصدد فإنه بمجرد أن نجح الاحتلال الإنجليزي في دخول القاهرة سنة ١٨٨٢ فأنه بدأ يمارس خطته التقليدية في ذلك، فمن ناحية قضي على المدارس الصناعية، والمدارس التعليمية عمومًا وقصر التعليم على الجانب الذي يخرج موظفين ليس ألا، وحرم مصر من كل الخبرات الصناعية والعلمية سواء بإغلاق المدارس العليا التي كانت تدرس تلك المواد أو منع البعثات العلمية إلى جامعات أوروبا.

ومن ناحية ثانية قام بإغلاق ما بقي من مصانع ومعامل حربية أو مدنية ومن ناحية ثالثة طارد كل الحرفيين وأصحاب الصنائع وفرض الضرائب العالية عليهم حتى لا تتطور تلك الحرف والمهن إلى قواعد صناعية وامتدت

تلك المطاردة لتشمل كل شيء صناعي أو حرفي مهما كـان صـغيرًا، فقـد أصدر كرومر قانون " الباطنطا" الذي يفرض ضـرائبًا عاليـة علـى كـل المشتغلين بالحرف فمادته الأولى تنص " كل إنسان يحترف بمصر حرفـة أو مهنة أو فنا أو تجارة أو صناعة ملتزم بدفع رسوم الباطنطا " (١٣).

وعندما تأسست في مصر شركة للغزل والنسيج فرضت الحكومة على إنتاجها ضريبة تعادل مقدار الرسوم الجمركية التي كانت تحصل من الغـزل والنسيج القطنية المستوردة، وكانت النتيجة أن أغلقت الشركة أبوابها بعـد أن خسرت ١١٢,٠٠٠ جنيه، كما تعرضت صناعة الدخان لرسوم جمركية عالية وضرائب باهظة (١٤).

وعندما أنشأت الجمعية الشرعية التي أسسها الشـيخ محمـود خطـاب السبكي عددًا من المعامل لإنتاج المنسوجات القطنية تـدخلت وزارة الشـئون الاجتماعية وأغلقت تلك المعامل بدعوى المحافظة على أموال الجمعية (١٥).

إذن فقد كانت الخطة الاستعمارية هي منـع أي شـكل مـن أشـكال الصناعة والحرف في مصر، بل ومنع التعليم الـذي يحقـق قاعـدة لتلـك الصناعات وكذلك السيطرة التامـة علـى قطـاع المصـارف والمقـاولات ومشروعات النقل والاستيراد والتصدير، أي السماح فقط بتلك المشـروعات التي تخدم عمليات النهب والتبعية وتسهلها مثل الطـرق والسـكك الحديديـة والمقاولات والمصارف، ولكن بشرط أن تكون في يد الأجانب حتـى تحقـق اكبر قدر من النهب أو لا وحتى لا يتحقق فائض مالي في أيدي المصـريين يمكن توجيهه إلى الصناعة.

وقد قفزت الاستثمارات الأجنبية في قطاع النقل والأراضي من ٧٣١ ألف جنيه سنة ١٨٨٣ إلى ٣١ مليون جنيه سنة ١٩١٤، أما في قطاع المصارف فقد قفزت الاستثمارات من ٥,٥ مليون سنة ١٨٨٣ إلى ٥٠,٥ مليون جنيه سنة ١٩١٤، ويورد صبحي وحيده إحصائية عن إجمالي رؤوس الأموال الأجنبية المستثمرة في مصر كالتالي: في سنة ١٨٩٢ = ٧,٣ مليون جنيه، وفي سنة ١٩٠٧ = ٨٧,٢ مليون جنيه، وفي سنة ١٩١٢ = ١٠٠,٢ مليون جنيه.

والشيء الوحيد الذي كان مسموحا به للمصريين هو الاستثمار الزراعي وذلك يحقق أكثر هدف فهو يمتص التراكم المالي لدى الأغنياء في مصر بعيدا عن القطاع الصناعي والتجاري، وهو أيضًا يزيد من مساحة الأرض الزراعية مما يعطي فرصة اكبر لإنتاج المواد الأولية التي تحتاجها مصانع أوروبا.

ولكن ذلك كان بشرطين أولهما أن يقوم بذلك قطاع من الأرستقراطية الزراعية يكوِن طبقة موالية للاحتلال، يعتمد عليها هذا الاحتلال في تدعيم الزراعة في اتجاه إنتاج المحاصيل التصديرية الأساسية، وهو الأمر الذي يحقق مزيدًا من التبعية الاقتصادية.

وفي هذا الصدد فإن الاستعمار قد شجع صدور القوانين التي تتيح الملكية الفردية الزراعية بعد أن كانت ملكية عامة بحكم الشريعة الإسلامية ففي ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٣ يصدر القانون المدني الأهلي ليرسي دعائم حق الملكية الخاصة للأراضي الزراعية بيعا وشراء وإرثا (١٦)، ويستمر هذا الاتجاه فيصدر سنة ١٨٩١ قانون آخر يجعل ملكية الأرض بدون شرط دفع المقابلة أي أن المنتفع بالأرض يصبح مالكا لها دون قيدًا أو شرط (١٧).

وكان من نتيجة ذلك أن تكالب الخديوي والأسرة الخديوية والحاشية على شراء الأرض أو انتزاعها أو استصلاحها وأصبح استصلاح الأرض أو استثمارها هو الطريق المفضل للاستثمار لدى الأغنياء وبخاصة الأرستقراطية وزادت المساحة المنزرعة مما حقق فائضًا ماليا يسمح بشراء البضائع الإنجليزية أولا، ويزيد من المتاح من المحاصيل التصديرية لإنجلترا من مصر ثانيًا.

والنتيجة الحتمية لكل ذلك ظهور أرستقراطية زراعية تملك ٧٥% من أراضي مصر سنة ١٩٠٩ وفقًا لتقديرات باير [١٨]، بل وتصبح المساحة المنزرعة قطنا حوالي مليون فدان سنة ١٨٨٢ وتصل إلى ١,٥ مليون فدان سنة ١٩١٢ وتضطر مصر إلى استيراد القمح وغيره من المواد الغذائية فتزداد قيمة الوارد من الماشية واللحم والسمك والزبد والجبن ونحوها من ٣١٤ ألف جنيه إلى ١,٢ مليون جنيه، كما تزداد قيمة الوردات من الحبوب والخضر والأغذية من ٥١٠ ألف جنيه إلى ٣,٨ مليون جنيه

والمحصلة النهائية لكل هذا أن أصبحت مصر مزرعة للسلع والمحاصيل التصديرية مثل القطن وسوقا للمنتجات الأوروبية، وأن يحرم المصريون من المشاركة في أي نشاط صناعي أو تجاري أو يمنح أي شكل من أشكال الصناعة الصغيرة والكبيرة ويقتصر النشاط الاقتصادي على المقاولات والطرق والنقل لخدمة المشروع الاستعماري، وتصبح مصر سوقاص للمنتجات الأوروبية، أي القضاء على قواعد النهضة عموما والنهضة الصناعية خصوصًا.

السيطرة على السودان

من الأهداف التقليدية للاستعمار تمزيق وحدة بلاد المسلمين ما أمكــن ذلك عموما، وبخصوص مصر فإن محاولات تمزيق وحدتها مــع الســودان وتقليص نفوذها في أفريقيا هدف هام وخطير واستراتيجي بالنسبة للاســتعمار ويرجع ذلك إلى أدراك الاستعمار أهمية الســودان لمصــر وأهميــة مصــر للسودان من ناحية، ورغبته في تكوين إمبراطورية استعمارية أفريقية وبالطبع فإن مصر القوية المتحدة مع السودان ستكون عائقا أمام ذلك، كما أن النفــوذ المصري في أفريقيا يشكل امتداد طبيعيا للإسلام في أفريقيا ويشكل أمكانيــة قيام نهضة صناعية تعتمد على الخبرات البشرية المصرية والثروات الأفريقية وكل هذا غير مرغوب فيه بالنسبة للاستعمار بل هو مستهدف للتصفية والمنع بكافة السبل والطرق.

وعلى كل حال، فإن السياسة الاســتعمارية الإنجليزيــة فــي مصــر والسودان استطاعت عن طريق استخدام الدهاء والمكــر والســيطرة علــى الحكومة المصرية أن تقلص النفوذ المصري الأفريقي، وأن تســيطر علــى السودان عمليا باتفاقية ١٨٩٩ المشئومة بل وأن تقتطع من ممتلكــات مصــر لصالحها أو لصالح إيطاليا أو فرنسا أو ألمانيا.

مناطق كبيرة كانت تحت الحكم المصري

استولى الإنجليز على زيلع وبربرة سنة ١٨٤٤، واستولى الفرنسيون على تاجورة وجيبوتي، واستولت ايطاليا على إرتريا وهرر وكسلا وغيرها.

محاولات خلق الفتنة الطائفية:

الإسلام دين غير طائفي، وحركة النضال الإسلامي في مصر لم تكن يوما حركة طائفية، والتراث القبطي في مصر يؤكد انتماء الأقباط خصوصـــا وغير المسلمين عموما في مصر إلى الإسلام كثقافة وكحضـــارة وكـــوطن، وعلى قاعدة الانتماء إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن بالنســبة للمســلم وغير المسلم، و شارك الأقباط في مصر في الكفاح الإسلامي ضد الاستعمار الأوروبي، وشذ نفر قليل في هذا الإطار واستطاع الإنجليز أن يستخدموا عدد من هؤلاء الشواذ مثل بطرس غالي وأخنوخ فانوس وغيرهما لـــزرع بـــذور الفتنة الطائفية والشقاق بين المسلمين والأقباط فـــي محاولـــة لضـــم الأقبـــاط للمشروع الحضاري الغربي، وحاول الاستعمار أن يســـتغل حادثـــة اغتيـــال بطرس غالي على يد إبراهيم الورداني في اتقاد نار الفتنة علـــى أســـاس أن المقتول مسيحي والقاتل مسلم، ولكن حركة الكفاح الإسلامي في مصر – والتي تضم المسلمين والأقباط على قاعدة الانتماء إلى الإسلام كثقافـــة وكحضـــارة وكوطن في مواجهة الحضارة الأوروبية الاستعمارية– استطاعت أن تجهض هذا الأمر وأن تتصدي له، وصحيح أن الإنجليز استطاعوا زرع بذور الفتنـــة فيما يسمى بالمؤتمر القبطي سنة ١٩١٠ الذي تبني مطالب ما يسمى بالأقليات والذي كانت الأصابع الإنجليزية تقف ورائه، ألا أن المسلمين والأقباط وقفـــوا صفا واحدة مع حضارة الإسلام ضد الحضارة الغربية الاستعمارية وأجهضوا تلك المحاولة، ولم يكن غريبًا أن يتصدي الكثير من الأقباط لهـــذا المخطـــط، ويقفوا ضده ويفضحوه مثل ويصا واصف وعريان مسعد وغيرهما.

زرع الأفكار والمؤسسات التغريبية

في محاولة للقضاء على الهوية والتميز وفي محاولة لتحقيق التـذويب الحضاري للبلاد في حضارة الغرب وثقافته وفي محاولة للقضاء على ثقافـة الإسلام وحضارته حاول الاستعمار دائمـا أن يـزرع عـددا مـن الأفكـار والمؤسسات التغريبية، قامت بذلك إرسـاليات التبشـير وبعـض المفكـرين والأحزاب من أصل وطني أيضًا بعد أن خانوا وطنهم وأصلهم.

وإذا كانت سنوات الثورة قد شهدت انحسارًا ملحوظًا لإرساليات التبشير فأنه بمجرد دخول الإنجليز مصر، شهدت البلاد موجـة بعـد موجـة مـن إرساليات التبشير من كل صوب وحدب، الأمريكية والإنجليزيـة والفرنسـية والألمانية والإيطاليـة والبلجيكيـة، البروتسـتانتية والكاثوليكيـة وغيرهـا، واستهدفت تلك الإرساليات من خلال المـداس، والمستشـفيات، والملاجـئ، والمؤسسات الاجتماعية، ونشر الكتب والدوريات، وغيرها اسـتهدفت نشـر أنماط السلوك والتفكير الأوروبية في بلادنا، القضاء علـى القـيم والعقائـد الإسلامية، بل واستهدفت أيضًا تذويب الكنيسة القبطيـة المصـرية لصـالح الكنائس الأوروبية الكاثوليكية والبروتستانتية، وحظيت تلك الإرساليات بكـل دعم ومساعدة من سلطات الاحتلال وبالطبع فإن القوي الإسلامية أو القبطيـة الأصيلة في مصر قد تصدت لتلك الإرساليات وتمسـكت بالإسـلام وثقافـة الإسلام وحضارته وقيمه وأنماط سلوكه.

وعلى مستوى نشر الأفكار التغريبية نجد أن الاستعمار اسـتطاع أن يحشد جيشا كبيرا من المفكرين والمثقفين والصحفيين وغيرهم لتحقيق نوع من

الاختراق الثقافي ونشر الأفكار والقيم الغربيـــة وضـــرب الأفكـــار والقـــيم الإسلامية، فنرى البعض مثلا يهاجم فكرة الجامعة الإسلامية التي نادى بهـــا الأفغاني، مصطفي كامل، محمد فريد، ويسخر منها لحساب الاحتلال طبعـــا الذي كان يري أن هذه الفكرة خطيرة، ليس على الاحتلال الإنجليزي فحســـب بل أوروبا بأسرها، وهكذا وجدنا المثقفين التابعين للاستعمار يهاجمون هـــذه الفكرة مثل عبد الحميد الزهراوي الذي يقول " أن تلك الجامعة مجرد خيـــال وأن المسلمين لم يتفقوا سياسيا من عهد عمر ولا دينيًا من عهد علي " (٢٠)

وعلى نفس النمط سار العديدون مثل الكواكبي الذي دعا إلـــى خلافـــة عربية تحت سيطرة الاحتلال الإنجليزي، ثم أنتهي الأمر بصدور كتاب على عبد الرازق " الإسلام وأصول الحكم " الذي أنكر فيه فرضية الخلافة ذاتهـــا وذلك في محاولة للقضاء على فكرة الخلافة الإسلامية وخاصة بعـــد ســـقوط الخلافة العثمانية، أي أنها جاءت كمحاولة لمنع المسلمين مـــن التفكيـــر فـــي استعادة الخلافة أو محاولة إحياءها.

وهناك الأفكار التغريبية التي تدعو إلى الوطنيـــة المصـــرية، أو القوميـــة العربية كبديل عن الجامعة الإسلامية، وقد لعب النصارى دورا هاما في التـــرويج لتلك الأفكار، وخاصة نصارى الشام.

وهناك الدعوات إلى ربط مصر بالثقافة والحضارة الأوروبية وقد قاد تلك الدعوات أمثال سلامة موسي وطه حسين الذي دعا إلى ما يسمى بثقافـــة البحر المتوسط، وهناك أيضًا الدعوات التغريبية إلى الإلحاد التي دعا إليهـــا شبلي شمبل، إسماعيل مظهر.

على أن أخطر ما في المسألة، أن هؤلاء الذين دعوا إلى تلك الدعوات المشبوهة والمعادية للفكرة الإسلامية قام بعضهم أيضًا بالدعوة إلـى الحريـة والتنديد بالاستبداد أو الدعوى إلى العدالة الاجتماعية أو الأفكار الاشـتراكية وفي الحقيقة فإن الحرية والعدالة الاجتماعية هما من صحيح الفكر الإسـلامي ومن أهم مهمات الحركة الإسلامية ومطلب دائم لكل فرد مسـلم أو مجتمـع مسلم أو حركة نضال إسلامي، ومن الطبيعي أن تلك الدعوات تساهم في حشد الجماهير حول قيادتها الطبيعية وتسهم في إذكاء النضـال ضـد الاسـتعمار والاستبداد ولكن ارتباط تلك الأفكار بهؤلاء الذين يدعون إلى الإلحاد أو هؤلاء الذين يعادون الفكرة الإسلامية قد أحدثت نوعًا من البلبلـة وقـد كـان هـذا مقصودًا فالذين خططوا لضرب الجماهير والإسلام والعدالة ربطوا الأفكـار المرفوضة جماهيريًا والمشبوهة والمرتبطة بالاستعمار بأفكار العدالة والحرية لتحقيق هدفين أما أن يقبل الناس الأفكار الصحيحة فيها مثل العدالة والحريـة فيأخذوا معها الأفكار الخاطئة المعادية للإسلام والمؤيدة للاسـتعمار وللثقافـة الغربية وبذلك يحقق الاستعمار هدفه في القضاء علـى الفكـرة الإسـلامية، وعوامل المقاومة في الأمة ويربط الأمة بالثقافة الاستعمارية، إما أن يـرفض الناس تلك الأفكار المعادية للإسلام والمؤيدة للحضارة الغربية فيرفضون معها أفكار العدالة والحرية، وبذلك يستريح الحكام المستبدون والاستعمار والطبقات الظالمة من النضال الشعبي من أجل الحرية والعدالة.

وفي الواقع فإن هذا المخطط الاستعماري لم ينقطع حتى اليوم، بل أن الاستعمار الإنجليزي ومن بعده الأمريكي يشجع ظهور المنظمات والأفكـار

اليسارية في بلادنا، بل إن مؤرخا محترما مثل الأستاذ طارق البشري أدرك هـذه الحقيقة وتعجب من كون المنظمات الماركسية في بلادنا أنشأها اليهود وظلوا على رأسها خدمة لأهداف الصهيونية ولإذابة الشعور الوطني، وهناك أستاذ جامعي مثل الدكتور رءوف عباس أشار في كتابه المنظمات الشيوعية في مصر إلي هذا الامر، وإذا كان الهدف أحداث بلبلة وفصل الكفاح ضد الاستعمار عن الكفاح ضد الاستبداد والظلم لإضعاف القضيتين معًا، فإن حركة النضال الإسلامي وعـت دائمـا هـذه النقطة وتمسكت بالربط بين الكفاح ضد الاستعمار وبين النضال ضـد الاسـتبداد والظلم الاجتماعي من خـلال الأيديولوجيـة الإسـلامية، وعلـى مسـتوى زرع المؤسسات والأحزاب التغريبية نرى أن الاستعمار شجع ودعم ظهور أحزاب مثل حزب الأمة والحزب الوطني الحر ثم ما خرج من أحزاب من نفس المشكاة وهـي مشكاة تأييد الاحتلال أو الدعوة إلى مهادنته، وقد استمر الاحتلال يغذي ظهور تلك الأحزاب، بل واستطاع أن يضع على رأس الحركة الوطنية المصرية فـي ١٩١٩ أشخاصا تابعين له مثل سعد زغلول وأن يحدث نوعا من التجميد لحركة النضـال الإسلامي ضد الاستعمار عن طريق تفريغ الحركة من مضمونها وتحويلهـا إلـى أحزاب علماني يقوده علمانيون مغتربون مثل سعد زغلـول لا يؤمنـون بالكفـاح المسلح، بل بالوسائل الدستورية في مقاومة الاستعمار وأسلوب المفاوضات بل أكثر من هذا أنه عقب ظهور الحركات الإسلامية الشعبية في الثلاثينيات مثـل جماعـة الأخوان المسلمين ومصر الفتاة شجع الاسـتعمار وزرع المنظمـات الماركسـية، والتجمعات الشيوعية في مصر، وهو الأمر الذي اكتشفه كل الباحثين المخضرمين مثل طارق البشري ورءوف عباس (٢١) .

هوامش

(١) الرافعي، مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال، دار المعارف.

(٢) الوقائع المصرية، ٢٧ فبراير ١٨٨٤.

(٣) الوقائع المصرية، ٩ يناير ١٩٨٣.

(٤) الرافعي، مرجع سابق.

(٥) الرافعي، مرجع سابق.

(٦) مضبطة جلسة ٢٤ ديسمبر ١٨٩٤ لمجلس شوري القوانين ص ٥٠. نقلا عن الرافعي.

(٧) أحمد رشاد، مصطفي كامل، حياته وكفاحه.

(٨) كرومر ن مصر الحديثة.

(٩) كرومر، نفس المرجع.

(١٠)رشدي صالح، كرومر في مصر.

(١١)الحديدي، عبد الله النديم، سلسلة أعلام العرب.

(١٢) البراوي وعليش.

(١٣) نفس المرجع.

(١٤) د٠حامد خطاب السبكي، الشيخ الإمام محمود خطاب السبكي، دار الاعتصام.

(١٥) إبراهيم عامر، الأرض والفلاح.

(١٦) إبراهيم عامر، نفس المرجع.

(١٧) روز نيشتين – دمار مصر، ترجمة على فكري، تحت عنوان تاريخ مصر قبل الاحـتلال وبعــــده.

(١٨) نفس المرجع.

(١٩) محمد محمد حسين، اتجاهات وطنية في الأدب.

(٢٠) طارق البشري، المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، الطبعة الثانية، دار الراوي، د٠ رءوف عباس، أوراق هنري كوريل، دار سينا.

(٢١) الرافعي، الثورة العرابية ص ٤٦٤.

وقـــــود جديد في الشعلة الوطنية

ما أن دخل الجيش الإنجليزي مصر، حتى قامت سـلطات الاحـتلال بمطاردة كل عناصر الثورة وتصفيتها بلا هوادة، ولكن عبد الله النديم استطاع أن يختفي ٩ سنوات كاملة حافظ فيها على شعلة الثورة متقدة تحت الرماد. وما أن وجد النديم الظروف تسمح بالعمل العلني حتـى خـرج مـن مخبـأه وأستأنف كفاحه ضد الاستعمار والاستبداد.

وخلال السنوات التي اختفي فيها النديم، كان النديم يدرس أسباب فشل الثورة العرابية، ويبحث عن طريق وعن جيل جديد يحمل الشعلة ويسـتأنف الكفاح، وفي تلك السنوات كان النديم يراسل عرابي فـي المنفـي، ويراسـل الأفغاني في باريس، وكان الأفغاني بدوره قد أصدر جريدة العروة الوثقى من باريس وشن فيها حملات كبيرة ضد الاحتلال الإنجليـزي لمصـر، وضـد الاستعمار الأوروبي لبلاد المسلمين عموما، ودعا فيها إلـى توحيـد العـالم الإسلامي واستئناف مهمته الحضارية ونبذ التخلـف والجمـود والاسـتبداد، وكانت تلك الصحيفة تجد طريقها إلى مصر لتصل إلى الخلايا الثورية وإلـى الجماهير رغم أنف الاحتلال واستطاعت أن تشكل رأي عاما قويا مناهضـا للاحتلال الأمر الذي جعل سلطات الاحتلال تطارد تلك الصـحيفة وتحـاول جاهدة منع دخولها إلى البلاد، بل وتستصدر قرارا خديويا بمعاقبة كـل مـن يضبط بحوزته جريدة العروة الوثقى، وتسعى الحكومة الإنجليزية إلـى منـع دخول العروة الوثقى إلى الهند أيضًا بل وتضغط على فرنسا لمنـع إصـدار الجريدة من باريس وينتهي المر بإيقاف جريدة العروة الوثقى " استمرت من

١٨٨٣ ــ ١٨٨٦ "، ولكن عبد الله النديم في مصر ينجح في إصــدار مجلــة الأستاذ في ٢٣ أغسطس ١٨٩٢، ونجحت تلك المجلة في فضــح ممارســات الاحتلال على مستوى الاقتصاد والتعليم ودعت إلى مقاومة الاحتلال وآثــاره الاجتماعية، ولقيت المجلة إقبالا عظيما من الجمهور فبلغ عدد المشتركين فيها أكثر من ٢٦٠٠ مشترك وكانت تطبع بأعداد كبيرة ونالت من الشهرة ما لــم تنله جريدة سواها [٢٢] .

ولم يكتف النديم بإصدار الأستاذ وفضح ممارسات الإنجليز فيها، بل عمــل على تشكيل جيل جديد لحمل راية الكفاح ففي بيت لطيف سليم باشا وهو مناضــل قديم وهو نفسه البكباشي سليم الذي قاد الضباط في الضربة العنيفــة ضــد وزارة نوبار سنة ١٨٧٩، في هذا البيت وبعيدا عن عيون الاحتلال وجواسيسه يجتمع عبد الله النديم بمجموعات من طلاب المدارس العليا شارحا لهم أسباب هزيمة الثــورة العرابية باعثا الأمل في نفوسهم ومعلما لهم أساليب التحــريض والدعايــة وحشــد الجماهير وفنون الخطابة السياسية والإلقاء وإصدار الصحف وتحريرها، وكان من بين هؤلاء الطلاب الزعيم مصطفى كامل، الذي رأي النديم فيه امتداد لروح الثورة فسلمه شعلتها، وبدأت مرحلة جديدة من الكفاح ضد الاحتلال بقيادة مصطفى كامل، وخصوصًا أن سلطات الاحتلال لم تطق صبرا على نشاط النديم وحملاته الصحفية فقررت إغلاق جريدة الأستاذ في ١٣ يونيه ١٨٩٣، ونفي عبد الله النــديم خــارج البلاد .

الحزب الوطني... مصطفى كامل

بإيقاف مجلة الأستاذ سنة ١٨٩٣ ونفي عبد الله النديم خارج مصـــر، انتقلت راية الكفاح الوطني إلى يد لطيف باشا سليم أحد الثوريين القدامى وقائد انتفاضة ١٨٧٩، وشكل هذا الرجل خلية ثورية معارضـــة تضـــم الصـــحفي والخطيب والقاضي والضابط وأنضم إلى هذه الهيئة مصـــطفى كامـــل فـــي أغسطس ١٨٩٣ [١]، وكان مصطفى كامل قد تعرف من خلال لطيف باشـــا سليم على عبد الله النديم قبل نفيه ومنه تعلم دروس الثورة وأســـاليبها وفهـــم حقائق الثورة العرابية وأسباب فشلها.

ومنذ ذلك الوقت بدأ مصطفى كامل نشـــاطه السياســـي والكفـــاحي، وبالطبع لم يكن مصطفى كامل يعمل في فراغ، فقد كـــان الواقـــع المصـــري يحمل في داخله جذور الثورة ومبادئها، وبرغم حالـــة الســـكون الظـــاهري واستبداد الخديوي والاحتلال فإن مبادئ الأفغاني وذكريات الثورة العرابيـــة، وحالة من الوعي الكامن كانت موجودة تحت السطح تنتظر اللحظة المناســـبة لتعلن عن نفسها.

وفي هذا الصدد فنحن نختلف مع الرافعي، الذي يـــري أن مصـــطفى كامل هو منشأ الحركة الوطنية وموجدها [٢]، وفي الحقيقة فإن الحركة الوطنية كانت موجودة قبل مصطفى كامل وهذا لا ينقص من قدر الرجل وكفاحه وأن مصطفى كامل ذاته كان ممثلا لجيل جديد من أجيال تلك الحركة، نعم كانـــت هناك حالة ثورية كامنة تتمثل في تلاميذ الأفغاني، وخلايا الثورة العرابية التي لم تنكشف أو التي لم تطلها يد البطش الاستعماري، وكان هناك حالـــة مـــن

الوعي الثوري والخبرات الثورية التي تراكمت إبان أحداث الثورة العرابيـــة، وكانت سلطات الاحتلال ودعايته غير قادرة على اجتثاث تلك الحالـــة مهمـــا كانت وسائل البطش، ومهما كانت درجة الهزيمة التي لحقت بالثورة العرابية.

نفخ مصطفى كامل في تلك الحالة الموجودة والكامنة فتأججت ســـريعًا لأنها تنطلق من روح الشعب المسلم، التي لا تموت بـــأذن الله تعـــالي، بـــدأ مصطفى كامل، يدرس حالة مصر، ويكتب في الصحف العربية والإفرنجيـــة بل وقام بتأليف رواية فتح الأندلس التي ضـــمنها حـــوادث فـــتح المســـلمين للأندلس، وهي إشارة هامة إلى فهم التاريخ الإسلامي، وقدرة المسلمين علـــى هزيمة أوروبا، وهي دعوة ضمنية إلى الجهاد ضد الاحتلال الإنجليزي لمصر " أخرج مصطفى كامل الرواية في ديسمبر سنة ١٨٩٣ ".

ثم قام مصطفى كامل بعمل دراسة عن المســـألة المصـــرية باللغـــة الفرنسية لتكون وثيقة احتجاج على الاحتلال الإنجليزي أمام أمـــراء أوروبـــا وإثبات لعدم شرعية هذا الاحتلال (١٨٩٤)، ثم ظهر كتابـــه عـــن المســـألة الشرقية سنة ١٨٩٨، وتحدث فيه عن الصراع بين الإسلام والصليبية، وعـــن التاريخ الاستعماري والصليبي الأوروبي وعن قدرة الجامعة الإسلامية علـــي النهوض ببلاد المسلمين والكفاح ضد الاحتلال الأوروبي في كل مكـــان مـــن البلاد الشرقية وشرح المسالة المصرية بكل أبعادها.

ولم يقتصر مصطفى كامل على إصدار الكتب والدراسات، بل كتـــب العديد من المقالات في الصحف المحلية والأوروبيـــة وأدلـــي بـــالكثير مـــن الأحاديث الصحفية لبيان حق مصر المشروع في الاستقلال، وعدم شـــرعية

الاحتلال الإنجليزي كما ألقى الكثير من الخطب في المحافل والمناسبات المختلفة داخل مصر وخارجها للدفاع عن قضية البلاد وإثارة الحمية في نفوس أبنائها، وقام بالعديد من الرحلات إلى أوروبا لشرح قضية بلاده والاستفادة من التناقضات الثانوية بين دول أوروبا لدعم القضية الوطنية.

وكرس مصطفى كامل كفاحه بإصدار ثلاث صحف هي اللواء " عربية سنة ١٩٠٠ " وصحيفتي ليتندار إجبسيان، وذي إجيبسيان أستاندرد " بالفرنسية والإنجليزية سنة ١٩٠٧ "، ثم قام بأهم أعماله وهي تأسيس الحزب الوطني بصورة رسمية ونظامية سنة ١٩٠٧.

والحديث عن كفاح مصطفى كامل والحزب الوطني في تلك الفترة يستدعي بالقطع الحديث عن عدد من القضايا الهامة والدروس المستفادة من جهاد الشعب في تلك الحقبة وهي قضايا الجامعة الإسلامية، الاستفادة من التناقضات الثانوية بين دول أوربا، التحالف مع الخديوي عباس الثاني، وكذلك يتطلب الحديث عن مواقف الحزب الوطني من الممارسات الإنجليزية في مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والتصدي للدعوات المشبوهة التي حاول الاحتلال غرسها في بلادنا.

الجامعة الإسلامية

الجامعة الإسلامية هي الكلمة الوحيدة الصالحة أن تكون عنوانـــا علـــى الحزب الوطني ومدخلا لفهم ممارسات هذا الحزب ولأيدلوجيته أيضًا، وهـــي مفتاح شخصية مصطفى كامل ومحمد فريد على السواء، وحركـــة النضـــال الشعبي برمتها خرجت من عباءة الجامعة الإسلامية، سواء هذا النضال ضـــد الحملة الفرنسية أو حملة فريزر أو النضال في فترة حكم إســـماعيل وحركـــة جمال الدين الأفغاني، أو الثورة العرابية، أو نضال الحـــزب الـــوطني ضـــد الاحتلال.

وهكذا لم يكن غريبًا أن يخرج الحزب الوطني، ومصطفى كامل ومحمد فريد من عباءة الجامعة الإسلامية، أليس الحزب الوطني ذاته امتدادا عضويا لحركة الكفاح الشعبي في مصر ضد النفوذ الأجنبي، أليس مصـــطفى كامـــل ومحمد فريد امتدادا عضويا للأفغاني والنديم.

كان مصطفى كامل ومحمد فريد، يدركان أن بلادهما في حالة صـــراع مع الاحتلال وأن هذا الصراع هو جزء أو حلقة من صراع الأمة الإســـلامية ضد الحضارة الأوروبية الصليبية التي تريد تدمير أمتنا والقضاء على هويتنا، واستغلالنا، وهكذا لم يكن عجيبا أن يكونا كغيرهما من حلقات الكفاح الشعبي المصري جزءًا لا يتجزأ من الكفاح الإســـلامي عمومـــا ضـــد الاســـتعمار الأوروبي الصليبي، وأن الشعب المصري لا يتحرك ألا مـــن خـــلال هـــذه العقيدة، وأن الواقع والتاريخ يؤكدان أن هناك ارتباطا لا ينفصم بين الإسلامية وبين الكفاح ضد الاستعمار والانحياز إلى الشعب، وأن كـــل هـــؤلاء الـــذين

انحازوا إلى أمتهم ودافعوا عن حريتها واستقلالها، كـانوا إسـلاميين شـكلا ومضمونا،وإن هؤلاء الذين انحازوا إلى الاحتلال أو تهاونوا في حقوق الأمة كانوا معادين للإسلام وللتراث الإسلامي والسلوك والقيم الإسلامية وأنهم كانوا يعتنقون المثل والمبادئ والقيم المستمدة من الحضارة الغربية الأوروبية.

وإذا كان مصطفى كامل قد تلقي دروس الثورة والوطنية على يد عبد الله النديم فهاهو عبد الله النديم يقول في مجلة الأستاذ سنة ١٨٩٣:"لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصـغيرة، ولكن المغايرة وسعي أوروبا في تلاشي الدين الإسلامي أوجب هذا التحامـل على الدولة العثمانية وإننا نري كثيرا من المغفلين الذين حنكتهم قو ابلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ويرمونها بالعجز وعدم التبصـر وسـوء الإدارة وقسوة الأحكام، ولو أنصفوها لقالوا أنها أعظم الدول ثباتا وأحسنها تبصـيرا وأقواها عزيمة فأنها في موقع ينصب إليها تيار أوروبا العدواني، لأنها دولـة واحدة إسلامية بين ثمان عشر دولة مسيحية غير أمريكا وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان وكثير من اللغات، والفتن متواصلة من رجـال أوروبا إلى من يماثلهم مذهبا، أو يقرب منهم جنسا، وكل دولة طامعـة فـي قطعة تحتلها باسم المحافظة على حدودها أو وقاية دينها " (٣).

ويقول مصطفى كامل في مقدمة كتابه" المسألة الشرقية " الذي ظهر سنة ١٨٩٨:"وإني أضرع إلى الله فاطر السماوات والأرض من فؤاد مخلص وقلب صادق أن يهب الدولة العلية القوة الأبدية والنصر السرمدي؛ ليعيش المسلمون

مدى الدهر في سؤدد ورفعة وأن يحفظ للدولة العثمانية حامي حماها وللإسلام إمامه وناصره جلالة السلطان عبد الحميد " (٤).

ويقول مصطفى كامل أيضًا:"أن المسألة الشرقية مسألة النزاع بين النصرانية والإسلام أي مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدول القائمة بأمر الإسلام وبين دول المسيحية (٥).

ويضيف أيضًا:"ولكن الحقيقة أن بقاء الدولة العلية ضروري للنوع البشري " (٦)، بل ويصل مصطفى كامل إلى الحقيقة العظيمة في ضرورة انحياز نصارى الشرق إلى الإسلام باعتباره وطنا لهم وثقافة وحضارة قائلا:"إن الذين يدعون العمل لخير النصرانية في الشرق يعلمون قبل كل إنسان أن تقسيم الدولة العلية أو حلها يكون الضربة القاضية على مسيحي الشرق عموما قبل مسلميه " (٧).

ويدعو مصطفى كامل في الفصل الأول من كتابه إلى الالتفاف حول الراية العثمانية قائلا :"أما واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة إنجلترا للدولة العلية أن يجتمعوا حول راية السلطنة السنية، وأن يدافعوا عن بلادهم بكل قواهم رلو تفاني الكثير منهم في هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا أبد الدهر سادة لا عبيدًا، وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة الإسلامية المقدسة وأن يعززوها بالأموال والأرواح ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفي بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية (٨) .

بل وكان مصطفى كامل يري أن الباعث الديني، أو الصراع الإسلامي الصليبي هو الدافع وراء القلاقل والفتن التي تثيرها الأقليات غير الإسلامية

في الخلافة العثمانية بتحريض أوروبي خارجي، وكذلك في فتن بعض المناطق الخاضعة للخلافة الإسلامية مثل اليونان وغيرها، يقول مصطفى كامل:"أما العناصر التي تستعملها بعض الدول كالأرمن فهي تثور بعوامل الدين وبدسائس دينية، وقد ثبت ذلك جليًا في المسألة الأرمينية " (٩).

أكثر من هذا نجد مصطفى كامل يهاجم فكرة الخلافة العربية التي روج لها الإنجليز فهو يقول:" تسعى إنجلترا إلى نقل الخلافة الإسلامية إلى يد رجل يكون تحت رحاهم؛ ولذلك أخرج الإنجليز مشروع الخلافة العربية مؤملين به استمالة العرب لهم وقيامهم بالعصيان في وجه الدولة العلية ".

أما محمد فريد خليفة مصطفى كامل والرجل الثاني في الحزب الوطني فقد ألف كتابا عن تاريخ الدولة العلية العثمانية يقول في مقدمته:"على أن الملك العثماني قد لم شعث الولايات الإسلامية، وأن أوروبا المختلفة قد اتفقت على محاربة تلك الدول مثني وثلاث ورباع، وأنه لما كانت الخلافة العثمانية هي الحامية لبيضة الإسلام زمنا طويلا، رأيت من الواجب خدمة للحقيقة ونفعا لأبناء البلاد أن أدون هذا التاريخ راجيا من الله تعالي أن يوفقني لخدمة الوطن ونفع بنيه وأن يديم ويؤكد ما بين مصرنا والدولة العلية من روابط التابعية " (١١).

و يلخص مصطفى كامل الأمر كله في قوله:

" إنه مصري عثماني " ويفسر ذلك قائلا:"ليس في الأمر جنسيتان بل في الحقيقة جنسية واحدة " (١٢)، ونجد أن صحيفة اللواء وهي صحيفة الحزب الوطني تخوض المعارك ضد هؤلاء الذين يدعون إلى القومية المصرية أو الخلافة العربية أو الهجوم على الخلافة العثمانية بل وتدعو إلى الاكتتاب

لمناصره الجيش العثماني في معاركه وكذلك تدعوا إلى التطوع دفاعـا عـن ليبيا أمام الاحتلال الإيطالي سنة ١٩١٠.

وعلى مستوى المواقف نجد أن مصطفى كامل يقف مع الدولة العثمانية ضد اليونان ويدعوا إلى مناصرتها بل ويبـرق للحكومـة العثمانيـة مهنئـا بالانتصار العثماني على اليونان سنة ١٨٩٧ (١٣).

بل وأشاد بهذا الانتصار في خطبتين بالإسكندرية في ٨ يونيـه ١٨٩٧، أكثر من هذا أنه في الخلاف الذي وقع بين الحكومة المصرية وبين تركيا سنة ١٩٠٦ حول "طابا" أو الحدود المصرية في سيناء انحـاز مصـطفى كامـل والحزب الوطني بكامله إلى موقف تركيا في هذا الصدد،لأن طابا العثمانيـة هنا أفضل من أن تكون مصرية تحـت سـلطة الاحـتلال، أي أن مصـالح المسلمين وأمة الإسلام مقدمة علي كل شيء حتى ولو كان السيادة المصـرية على طابا.

وفي الحقيقة فإن الجامعة الإسلامية، وقضية انحياز الحـزب الـوطني ومصطفى كامل ومحمد فريد إلى قضية الوحدة الإسلامية كان مثار لغط كبير من المؤرخين والمثقفين؛ لأن هذه ليست قضية جزئية أو قضية تاريخية بقدر ما هي قضية تمس المستقبل وتمس الأسلوب الصحيح للنضال ضد الاحـتلال والنفوذ الأجنبي أمس واليوم وغدًا.

وهناك عدد من الحقائق التي لا يختلف عيها أحـد مـن المـؤرخين أو المثقفين أو أي تيار سياسي أو فكري وهي:

١ــ إن الوجدان المصري كان دائمًا إسلاميا، وأن الأسلوب الوحيد لتحريـــك الجماهير وحشدها هو التعبئة الإسلامية.

٢ــ إن الحقوق التركية في مصر كانت وسيلة من وسائل إثبات عدم شرعية الاحتلال الإنجليزي.

وفي إطار ذلك يمكن مناقشة الآراء والأفكار حول موضوع الجامعة الإسلامية لدى الحزب الوطني ومصطفى كامل ومحمد فريد.

فهناك من ينتقد الحزب الوطني ويهاجم مصطفى كامل ومحمد فريد، لأن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية أمر غير عصري أو أنه تعصب أو أن الكـــلام من الحقوق التركية في مصر معناه استبدال احتلال باحتلال، وبالطبع فإن من يردد هذا القول هم مثقفي المدرسة الاستعمارية وعملاء الحضـــارة الغربيـــة، وهؤلاء وإن كانوا قد اعترفوا بحقيقة أن الحزب الوطني ومصـــطفى كامـــل ومحمد فريد قد خرجوا مثل كل حركات النضال في مصر من مشكاة الإسلام، إلا أنهم بهجومهم واستنكارهم هذا الأمر يريدون تحقيق عدة أهداف تقع كلهـــا في سلة الاستعمار أو من أجل مصلحته.

فهم أولا لا يريدون ألا يكون النضال ضد الاستعمار والنفـــوذ الأجنبـــي ذو صيغة إسلامية بل يجب في وجهة نظرهم أن يحمل أيدلوجية أخرى مســـتمدة من الثقافة الغربية أو جعله مجرد نضال وطني ضد الاحتلال بلا بعد أيدلوجي أو ثقافي.

أي أنهم عمليا يريدون إنهاء هذا النضال وتوقفه نهائيًا والخضوع عمليا للنفوذ الأجنبي لأنه مادام الوجدان الشعبي إسلاميا، فلن يصلح في التعبئة إلا الإسلام أي باستبعاد الإسلام يستبعدون النضال برمته.

وهم ثانيا: يريدون الإساءة إلى حركة النضال الشعبي متمثلة في السيادة التركية واستبدال استعمار باستعمار وهم هنا كشأنهم دائما يريدون الإساءة إلى كل النضال الشعبي ضد الغزو الأوربي لبلادنا منذ الحملة الفرنسية، وحتى الآن، أي يريدون قطع الجسور بين النضال الآن وبين النضال أمس وذلك بهدف جعل نضال اليوم مقطوع الجذور ولا يمت لنا بصلة، أي عمليا قتل نضالنا اليوم بجعله نضالا بلا جذور ومعلقًا في الهواء.

وهم ثالثا: يريدون الالتفاف على حقائق التاريخ التي تؤكد وجود التعصب الصليبي الأوروبي خصوصا وأن المسألة مسألة صراع مستمر بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة الغربية وذلك خدمة لأهداف الاختراق الأوروبي والسيطرة الغربية على بلادنا.

وهناك مجموعة أخرى، وهم المهزومون، الذين يحبون بلادهم وإسلامهم ولكنهم لا يمتلكون الشجاعة الكافية لإعلان ذلك ويخجلون من إظهار إسلامهم حتى لا يتهموا بالتعصب، وهؤلاء يلتفون على الحقائق ويحاولون تفسيرها بأي تفسير آخر غير تفسيرها الحقيقي.

ويقول هؤلاء إن شعار الجامعة الإسلامية أو التمسك بالحقوق العثمانية في مصر كان أسلوبًا من أساليب إثبات عدم شرعية الاحتلال الإنجليزي، وأن موقف الحزب الوطني ومصطفى كامل ومحمد فريد يأتي في هذا الإطار، أي

أن الحزب الوطني ومصطفى كامل، ومحمد فريد لم يكونوا يؤمنون حقا بالجامعة الإسلامية ولا بالوحدة الإسلامية، أو كانوا يؤمنون بها ويجب إخفاؤها كما لو كانت عورة وأن المسألة كانت البحث عن ذرائع وأسانيد تؤكد عدم شرعية الاحتلال الإنجليزي لمصر.

وفي الحقيقة فإن هؤلاء يسيئون إلى الحزب الوطني ومصطفى كامل، ومحمد فريد إساءة بالغة، لأنهم يتهمونهم دون أن يدروا بأنهم كانوا يبطنون غير ما يظهرون، وهم يسيئون إلى مستقبل النضال الصحيح لأن الجماهير لا تتحرك إلا من خلال الإسلام ولا مستقبل للنضال إلا بالإسلام.

وهم أيضًا يتجاهلون الحقائق المجردة، هذه الحقائق المجردة التي يتفق عليها كل المؤرخين والمثقفين المحترمين وهم كثير جدًا بعضهم لم يكن إسلاميا ومع ذلك قال الحقيقة المجردة لأنه احترم قواعد المنهج العلمي أو مركزه كأستاذ جامعة أو مؤرخ محترم وهذه الحقائق هي:

- إن كل الكفاح الشعبي في مصر خرج من عباءة الإسلام.
- إن الحركة الوطنية المصرية كانت تعتبر الجامعة الإسلامية علما عليها وأحد أهم مبادئها ولم يكن الحزب الوطني إلا امتداد عضويا لتلك الحركة.
- إن الصراع الإسلامي الصليبي ممتد في الزمان والمكان ولا سبيل إلى إنكاره.

كان مصطفى كامل ومحمد فريد، يفهمان ويدركانه كل هذا و يؤمنان به، لم يكن مصطفى كامل ألا صادق ومعبرا عن نفسه وعن حزبه، وعن جماهيره حينما نادى بالجامعة الإسلامية، ولو كان مصطفى كامل يريد فقط أن يستفيد من الحقوق التركية في مصر لإثبات عدم شرعية الاحتلال الإنجليزي لاكتفى

الرجل بترديد هذا القول في المحافل الدولية أو في خطبه ومقالاته في أوروبا، أو في مراسلاته مع رجال الرأي والحكم في أوروبا أو تركيا، ولكن مصطفى كامل وكل الحزب الوطني كان يؤكد دائما هذا الأمر في الداخل أيضًا وفـي لقاءاته الجماهيرية وفي مقالاته في اللواء.

لو كان الأمر مجرد ذريعة، لاكتفى مصطفى كامـل بترديـد الحقـوق التركية في مصر ولم يتطرق إلى فكرة الجامعة الإسلامية وهي الفكرة التـي رددها أكثر مائة مرة من كلمة الحقوق التركية في مصر، أن مصطفى كامـل كان يؤكد ويدرك أن الصراع ضد الاحتلال الإنجليزي في مصر جـزء مـن الصراع الإسلامي الشامل، وفي إطار هذا الصراع انحاز إلى تركيا في حادثة طابا ١٩٠٦، ودعا إلى الاكتتاب لمناصرة الجيش العثماني في حرب اليونـان ١٨٩٧، بل وابرق مهنئًا عندما انتصر الجيش العثماني، لماذا فعل مصـطفى كامل ذلك ؟

وهل هذا يدخل في إطار مجرد الاستفادة من موضوع الحقوق التركية في مصر؟
لو كان الأمر كذلك لما انحاز مصطفى كامل إلى تركيا في حرب اليونان وحادثة طابا ولما دعا إلى الاكتتاب لمناصرة الجيش العثماني.
بل أكثر من هذا أن مصطفى كامل، تكلم بصراحة عن الصراع الإسلامي الصليبي في كتابه المسألة الشرقية، ودعا إلى التفاف المسلمين والعثمانيين حول الخلافة التركية لحماية الإسلام، وكذلك محمد فريد في كتابه " تاريخ الدولة العلية العثمانية ".

لو كان الأمر مجرد لعبة سياسية، فما الداعي لمثل تلك الكتب وتلك المقالات وتلك المواقف؟

بل إن مصطفى كامل كان يخاطب في كتبه ومقالاته " المسلمون والعثمانيون " أي ليس مجرد رعايا الدولة العثمانية بل والمسلمين خارجها أيضا، مثل مسلمي الهند، ولو كان يقصد رعايا الدولة العثمانية فقط لاكتفى بمناشدة العثمانيين، إذن هي جامعة إسلامية أشمل من الدولة العثمانية ذاتها وإن كانت تحت قيادتها باعتبارها أقوي بلاد المسلمين في ذلك الوقت.

انظر إلى مصطفى كامل يخاطب السياسي الإنجليزي جلادستون قائلا:"وألا فهل مسلمو مصر أقل استحقاق لرعايتك العالية من مسيحي الأرض أو هل أنت عدو للإسلام ؟! " (١٤).

"أو ليس لنا حق كذلك نحن معشر المصريين المسلمين في دعواكم المؤثرة وندائكم القوي " (١٥) ، و" لماذا لا يميلون ألا إلى المسيحيين من بني الإنسان " (١٦).

وفي حديثه لجريدة " اكتسر تاجبلاط " يقول مصطفى كامل:"لقد تظاهرت أوربا ضدنا بموافقتها على الاحتلال فمن الواجب إذن العمل ضدها "(١٧).

وفي خطبته في فيينا في ١٤ مارس ١٨٩٧ يقول:"وإذا كان الكذب شعار أوروبا المتمدينة فماذا يكون شعار المتعصبين كما يتهمنا الإنجليز " (١٨)، أليس ذلك سخرية بقيم الحضارة الأوروبية !!

أليس كل ما سبق يؤكد اقتناع مصطفى كامـل بالتعصـب الأوروبـي الصليبي ضد بلادنا وتآمرهم عليها أو دفاعهم عن الاحتلال الإنجليزي بسـبب أننا مسلمون؟

بل أن الحب العظيم الذي كان مصطفى كامل يكنه لمصر لا يخـرج ألا من مشكاة الإسلام فهو يقول:"قد يفطن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية فـي شـيء ولكنـي أرى أن الـدين والوطنية توأمان متلازمان وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فـؤاده يحـب وطنه حبا صادقا ويفديه بروحه وما تملك يداه " (١٩) .

إذا فإسلامية الحزب الوطني ومصطفى كامل ومحمد فريد، لا شبهة فيها بل وإسلامية كل حركات النضال الشعبي في مصر ضـد النفـوذ الأجنبـي، وخلاصة موقف ورأي الحزب الوطني، ومصطفى كامل ومحمد فريد في هذه المسألة هو:

- إن هناك تعصبا صليبيًا أوروبيًا، وأن هناك صراعًا إسلاميًا صليبيًا منـذ فترة طويلة، وأن الصراع في مصر جزء من هذا الصراع.
- إن الإسلام "والجامعة الإسلامية" هو أيدلوجية الجمـاهير وأن الحـزب الوطني منا ما هو ألا امتداد عضوي في هذه المسألة لحركـة النضـال الشعبي في مصر ضد النفوذ الأجنبي.
- إن الوحدة الإسلامية فريضة علي كل مسلم، وأن الـدفاع عـن بـلاد الإسلام فريضة على كل مسلم، بل ويجب على غير المسلمين فـي بـلاد

الشرق الدفاع عن بلاد الإسلام باعتبارهم ينتمون إلى الحضارة الإسلامية.

- إن إسلامية مصطفى كامل كانت غير طائفية مثل كل حركات الكفاح الإسلامي، وهكذا لم يكن عجيبا أن يعلن مصطفى كامل أن الحضارة الغربية خطر على نصارى الشرق أيضًا مثلما هي خطر على المسلمين ولم يكن عجيبا أن نجد أن الكثير من أقباط مصر قد انحازوا إلى الحزب الوطني ضد الاستعمار الإنجليزي على قاعدة الانتماء إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن.
- إن مسألة الدفاع عن الدولة العثمانية كان بسبب كونها أقوي الدول الإسلامية في ذلك الوقت وبالتالي فهو دفاع عن كيان المسلمين ووحدتهم ومستقبلهم، وأنه لو كانت الخلافة العثمانية مثلا غير موجودة في ذلك الوقت لدعا مصطفى كامل أيضًا إلى الخلافة الإسلامية والوحدة الإسلامية تحت أية راية حقيقية ولتكن راية مصر مثلا، وأن إسلامية مصطفى كامل كانت أصلية بمعني أنها كانت اشمل من الخلافة العثمانية وليست مرتبطة بها بقدر ارتباطها بفكرة أن الدولة العثمانية هي أقوي الدول الإسلامية في ذلك الوقت.
- إنه يجب عدم الربط بين فكرة الجامعة الإسلامية وفكرة الوحدة الإسلامية، والأيدلوجية الإسلامية وبين حديث مصطفى كامل عن الحقوق التركية في مصر، فلو لم توجد حقوق تركية في مصر أو حتى لو لم توجد تركيا أصلا لما منع هذا من تبني المسلمين للأيدلوجية الإسلامية ن

والدعوة للوحدة الإسلامية، وأن كلام مصطفى كامل عن الحقوق التركية في مصر يأتي في إطار الدعوة إلى وحدة المسلمين، ويأتي في إطار إثبات عدم شرعية الاحتلال، وكان من الممكن لمصطفى كامل، لو لم يكن إسلاميا أصيلا، أن يكتفي بالكلام عن الحقوق التركية في مصر كأداة لإثبات عدم شرعية الاحتلال الإنجليزي - وقد فعل حزب الوفد هذا الشيء بعد ذلك دون أن يربطه بالجامعة الإسلامية-، وأن يكتفي مصطفى كامل بالكلام عن هذه الحقوق في هذا الإطار دون أن يستلزم ذلك الحديث عن الجامعة الإسلامية أو الخلافة الإسلامية أو التعصب الأوروبي الصليبي أو غيرها، والجامعة الإسلامية ظهرت قبل دخول قوات الاحتلال الإنجليزي مصر على يد الأفغاني وغيره.

- إن مصطفى كامل، وجريدة اللواء، خاضت أيضًا المعارك دفاعا عن بلاد المسلمين وتأييدا لجهود وجنود المسلمين في اليونان ١٨٩٧ وفي طرابلس ١٩١١، بل ودافعت عن السلوك والقيم الإسلامية، وهاجمت السفور، ودافعت حتى عن حجاب المرأة المسلمة عندما بدأت الدعوة لنزع حجاب المرأة أو الدعوات إلى اعتناق القيم الغربية في السلوك.

الاستفادة من التناقضات الثانوية

اهتم مصطفى كامل، بشرح القضية المصرية في أوروبا، وخاصة في فرنسا وألمانيا على أساس أن هناك تناقضا بين إنجلترا وفرنسا وألمانيا في العديد من المسائل الدولية يمكن أن يستفيد به مصطفى كامل في الضغط على إنجلترا للانسحاب من مصر، وكذلك أهتم مصطفى كامل بشرح القضية المصرية لدى الرأي العام الأوروبي لتشكيل نوع من الضغط الأدبي على الساسة الإنجليز للتسليم بحقوق مصر.

وفي الحقيقة فإن هذه المسألة تطرح عدد من المسائل الهامة على صعيد النضال الوطني عمومًا.

فما طبيعة تلك التناقضات بين الدول الأوروبية، وما مدى أهمية الاستفادة منها على صعيد النضال الوطني؟

ثم ما هي رؤية مصطفى كامل لهذه المسألة ؟

وفي البداية، فأنه من الحقائق المسلم بها، والتي يمكن الخروج بها من دراسة تاريخ الصراع والعلاقات الدولية طوال حقب تاريخية طويلة.

إن هناك تناقضا جوهريا يتمثل في الصراع بين الأمة الإسلامية وبين أوروبا الصليبية، وأن هناك تناقضات ثانوية بين دول المعسكر الأوروبي الصليبي، وأن تلك التناقضات الثانوية عادة ما تختفي أو تتلاشي مع ظهور التناقض الجوهري، وهكذا فإن من الوهم أن نظن أنه يمكن للتناقضات الثانوية بين دول أوروبا أن تطغي على تناقضها الرئيسي مع أمتنا الإسلامية وقد ظهر ذلك جليا في أكثر من حادثة وموقف وآخرها سكوت أوروبا بل وتشجيع

فرنسا لإنجلترا على غزو مصر سنة ١٨٨٢ بهدف التخلص من الثورة العرابية الإسلامية التي تهدد المشروع الأوروبي الصليبي الاستعماري برمته أو في شمال أفريقيا على الأقل.

وفي إطار النضال الوطني أثناء فترة مصطفى كامل، نجد أن التناقضات الثانوية أيضًا قد اختفت واستطاعت فرنسا وإنجلترا أن تعقدا اتفاقا " الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤ " على حساب الحقوق المشروعة للبلاد الإسلامية، وقد جاء في هذا الاتفاق بأن الحكومة الفرنسية تتعهد بالا تعرقل إنجلترا في مصر مقابل التزام الحكومة البريطانية ألا تعرقل عمل فرنسا في مراكش.

إذا نظرنا مثلا إلى تعليق الصحيفة الألمانية " برليتر تاجبلاط " وهي كبري الصحف الألمانية في ذلك الوقت ولسان حال وزارة الخارجية الألمانية على النداء الذي وجهه مصطفى كامل إلى الأمة الألمانية بتاريخ ٢٧ يناير ١٨٩٧: "ولكن إذا لوحظ أن رجال السياسة البريطانية لا يخشون المجاهرة الآن برغبتهم في اهتضام حقوق البوير "سكان الترنسفال" الذين هم أقرب الناس إلينا، نفهم جيدا أن مديري السياسة الألمانية يرون ضرورة طرح المسألة المصرية في ميدان الحل ليفهموا الإنجليز أن في استطاعة ألمانيا القصاص ممن يتجاسر على إهانة كرامتها والمساس بشعورها واعتبار مصالحها السياسية وغير السياسية عديمة الأهمية قليلة الاحترام، ولذلك نعتقد أن دعوة مصطفى كامل للأمة الألمانية جاءت في حينها وصدرت في أحسن وقت سياسي مناسب لها ".

إذن فالمسألة واضحة، وهي أن الدول الأوروبية تحاول الاستفادة من الحركة الوطنية في البلدان المستعمرة في تصفية مشاكلها والضغط على بعضها بعضا، وحل تناقضاتها الثانوية، وليس بهدف دعم الحركة الوطنية أو تحقيق المطالب المشروعة للحركات الوطنية، بل يتم حل التناقضات على حساب تلك المطالب المشروعة أساسًا.

إذن فعلينا ألا نقع يوما في وهم إمكانية دعم إحدى الدول الأوروبية لنضالنا الوطني على طول الخط أو إلى مدى تحقيق مطالبنا الوطنية، وأن ندرك أنه إذا حصلنا على دعم ما فأنه يأتي في إطار التناقضات الثانوية بين تلك الدول، وأنه في اللحظة الحاسمة تحل تلك التناقضات على حسابنا أساسًا، ومن حيث المبدأ فلا مانع طبعًا من الاستفادة من تلك التناقضات الثانوية، ولكن بشرط أن ندرك أولا أنها تناقضات ثانوية ولا ترقي إلى مستوى التناقض الجوهري بين أمتنا عموما وأوروبا الصليبية عمومًا، وبشرط ألا نعتمد أساسًا ألا على قوانا الذاتية في انتزاع حقوقنا وألا ننشغل بتلك التناقضات الثانوية عن مصدر قوتنا الأساسي وهو وعي الجماهير وحركتها وكفاحها.

والآن لنري رؤية مصطفى كامل لهذه المسألة، فصحيح أن مصطفى كامل اهتم اهتمامًا كبيرًا بتلك التناقضات الثانوية، ولكنه كان يدرك دائمًا أنها مجرد تناقضات ثانوية، وأن الطريق الصحيح لانتزاع حقوقنا يكمن في الاعتماد على أنفسنا وعلى قوانا الذاتية، وهناك كثير من الأدلة على وعي مصطفى كامل بهذه المسألة ووضعها في إطارها الصحيح.

فلو كان مصطفى كامل يعتمد فقط على تلك التناقضات بين دول أوروبا أو على الرأي العام الأوروبي أو على التوازنات الدولية، لانهــار مصــطفى كامل وانهارت معه الحركة الوطنية عقب توقيع الاتفاق الودي بين إنجلتــرا وفرنسا سنة ١٩٠٤، ولكن بالعكس نجد أن الكفاح الوطني بعد هذا الوقت قــد استمر وتصاعد وأصبح أكثر قوة، ولو لم يكن مصــطفى كامــل والحركــة الوطنية قد عملا منذ البداية على بناء القوي الذاتية لما كان للحركة الوطنية أن تستمر بعد ١٩٠٤.

أن مصطفى كامل نفسه، كان يدرك الأبعاد الحقيقية للصراع، وقد تحدث عن الصراع الإسلامي الصليبي وعن التآمر الأوروبي الصليبي على أمتنا في أكثر من موقع وبإسهاب وفهم عميقين وخاصة في كتابه المسألة الشرقية.

وعلى كل حال، فإن محاولة مصطفى كامل الاستفادة مــن التناقضــات الثانوية، والتي انتهت إلى اليأس من هذا الطريق بعد الاتفــاق الــودي ســنة ١٩٠٤ قد أصبح درسًا هامًا من دروس الحركة الوطنيــة المصــرية، التــي اختارت الطريق الوحيد الصحيح وهو الكفاح والثورة، في حــين أن القــوي والأحزاب العلمانية والمهادنة ظلت إلى آخر يوم "مثل حزب الوفــد" تجــري وراء نفس السراب، وأصبح هناك فاصلا بين القوي الإسلامية التي تــرفض المفاوضات وتصر على الكفاح والجلاء، وبين دعاة التفاوض والمهادنة على اختلاف درجاتهم ومواقفهم.

الحركة الوطنية وعلاقتها بالخديوي عباس حلمي الثاني

وفي الحقيقة فإن الحديث عن هذه العلاقة يعطينا درسًا هاما وتجربة خطيــرة لحركة النضال الإسلامي الوطني في بلادنا، وينبغي هنا أن ندرس المسألة من زاويتين، زاوية علاقة الخديوي بالحركة الوطنية وأسبابها ودوافعها، وزاويــة علاقة الحركة الوطنية بالخديوي وأسبابها ودوافعها أيضًا٠

وينبغي أن نشير أولا هنا إلى أن هناك تناقضًا ثانويًــا بــين ســلطات الاحتلال وبين الأسرة الخديوية، وأن هامش التناقض يتسع أو يضيق حســب الظروف والأحوال وحسب شخصية ممثلي السلطة وشخص الخديوي أيضًــا، إلا أنها في جميع الأحوال تظل في إطــار التناقضــات الثانويــة، وأن هــذه التناقضات الثانوية تتلاشي مع ظهور خطر الثورة الإسلامية التي هي خطــر على النفوذ الأجنبي وعلى المؤسسة الخديوية في وقت واحد، وهذا ما حــدث أبان الثورة العرابية حيث أصبح الخديوي توفيق وجيش الاحتلال في معسكر واحد ضد الثورة٠

إذن فيجب أن ندرك تمامًا أن التناقضات الثانوية بين الطرفين لا يمكن أن تصل يوما إلى تناقض جوهري، وينبغي أن يكون فهمنا لهــا فــي هــذا الإطار٠

عندما تسلم الخديوي عباس حلمي الثاني السلطة الخديوية ســنة ١٨٩٢ كان شابًا صغيرًا لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره وكان له بالطبع حمــاس الشباب وشيء من طهارته، ولكن مصالحه الخديوية والأســرية والســلطوية انتصرت في النهاية وتغلبت على حماسه وطهارته بل قضــت عليهــا شــيئًا

فشيئًا، ومن ناحية أخرى كان الإنجليز في ذلك الوقت قد رسخوا قدمهم فـــي مصر وظهر جليا تمسكهم باحتلالها، بل وبدءوا يسيطرون على كل مراكـــز السلطة فيها من الجيش والبوليس والوزارة والقضاء والتعليم وغيرها، بحيث أصبح منصب الخديوي مجرد طرطور، فكل السلطة تتسرب شيئًا فشيئًا إلـــى المعتمد البريطاني اللورد كرومر، وكان عباس حلمي الثاني يريد أن يســترد شيئًا من السلطة المفقودة، وأن يشارك اللورد كرومر في تلك الســلطة، بــل وكان هناك من العوامل والتوازنات الدولية ما يوحي بإمكانية خروج الإنجليز من مصر تحت الضغط الدولـــي.

إذن فقد أعتمد الخديوي عباس حلمي الثاني خطة تقليدية في محاولـــة الاستفادة من الحركة الوطنية في استرداد شيئًا من السلطة من الاحتلال مـــن ناحية، والظهور بمظهر المدافع عن استقلال مصر على أساس أن التوازنات الدولية إذا ما نجحت في إخراج الإنجليز من مصر يكون هو بطل الاستقلال وبالتالي تسقط ثمرة الاستقلال في فمه هو وليس في فم حركة الشعب، وفـــي كل الأحوال فإن الخديوي عباس حلمي الثاني أدار تلك العلاقة مع منع اندلاع الثورة ضد الاحتلال ومنع إمكانية نجاح الحركة الوطنية في إخراج الاحتلال والاحتفاظ بالحركة الوطنية في إطار ضيق لا أكثر ولا أقل، وكـــان تقييمـــه الشخصي لتلك الحركة أنها غير قادرة على دفع الأمور إلى حافة الثورة التي تشكل خطرًا على الاحتلال وعليه شخصا كخديوي.

وهكذا فإن الخديوي في إطار ما سبق قـــدم الـــدعم للحركـــة الوطنيـــة وساندها في البداية ثم ما لبث أن نفض يده منها تدريجيا عقب حادثة فاشـــودة

١٨٩٨ ثم نهائيًا عقب الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤، وذلك أن حادثة فاشودة أطاحت بأمل الخديوي في الحصول على الاستقلال لمصر عن طريق الضغط الفرنسي لأن تلك الحادثة أثبتت أن فرنسا غير جادة في المطالبة بجلاء الإنجليز عن مصر، فلو كانت جادة لساومت بالانسحاب من فاشودة مقابل انسحاب الإنجليز من مصر، وجاء الاتفاق الودي بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ ليطيح نهائيًا بأي أمل في استقلال مصر عن طريق التوازنات الدولية، وبما أن الخديوي لا يريد ولا يري إمكانية جلاء الإنجليز عن غير هذا الطريق، فأنه سرعان ما أظهر الود للإنجليز وتنكر للحركة الوطنية، بل أصبح مؤيدًا لوجود الاحتلال ومحاولة انتزاع أكبر قدر ممكن من السلطة من خلاله، وخضع تمامًا للسلطة الإنجليزية لدرجة أنه كان يصرح بذلك عيانًا بيانًا، مثل حديثه في جريدة الديلي تلغراف الإنجليزية في مايو سنة ١٩٠٧ " إذ نفي عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال وذكر اللورد كرومر بالخير، وصرح بأن المعتمد البريطاني لا يستطيع حكم مصر وحده، وأنه مستعد للتعاون معه وأنه لا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال وأن الاحتلال البريطاني أفضل من أي احتلال آخر ".

أما من زاوية محاولة الحركة الوطنية الاستفادة من الخديوي عباس حلمي الثاني فلا مانع فيه من حيث المبدأ، على أساس أن تكون الحركة مدركة أنها استفادة ثانوية، وأن وسيلتها الأساسية في الكفاح هي الجماهير وقواها الذاتية، وأن التناقض بين الخديوي والاحتلال سيظل تناقضا ثانويًا مهما كانت الظروف ومهما كانت شخصية الخديوي.

وفي الحقيقة فإن مصطفى كامل كان يدرك ذلك ويعمل في هذا الإطار، فهو يحدد أيضًا العلاقة قائلا:"إن المجاهدين ضد الاحتلال يجب أن يكونـــوا مستقلين كل الاستقلال عن الخديوي، فهو إن قال كلمة في صـــالح الحركـــة الوطنية خدم نفسه وعرشه واستمال أمته إليه، وإن عمل ضدها أضر نفســه وعرشه ونفر أمته منه، ولكن في الحالتين لا يستطيع الأضرار بهذه النهضـــة الوطنية، لأنها نهضة المطالبين بالحياة والوجود ومثل هذه النهضة لا يغيرها إنسان مهما كان قويًا وعظيمًا"(٢٠).

ومصطفى كامل يحدد أبعاد المسألة، فهو يؤمن أن الحركة تعتمد علـــى نفسها أساسًا، وهي مستقلة عن العرش كل الاستقلال، وهو يعرف أن الخديوي يحاول الاستفادة من الحركة في المقام الأول، وهو يدرك ثالثًـــا أن الحركـــة ستستمر رغم أنف الخديوي، بل رغم محاولته الأضرار بها.

بل إن محاولة مصطفى كامل الاستفادة من الخديوي لم تمنعه من أن يطالب بحقوق الأمة في الحياة الدستورية والنيابية، أي على حساب سلطة الخديوي فهـــو يقول :"لا يقبَل مطلقًا أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديوي بمفردة أو بيد المعتمد البريطاني أو بيد الاثنين معًا، بل أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بيـــد النـــابغين والصادقين من أبنائه، وأن يكون نظام الحكومة دستوريًا ونيابيًا " (٢١).

وعلى كل حال، فإن الحركة الوطنية المصرية كانت موجودة قبل الخـــديوي عباس حلمي الثاني، وفي وجوده وفي إطار تعاونه معها وفي إطار عدائه لها أيضًا، وظلت رغم عداوته لها وانحيازه للإنجليز، وأيضًا استمرت بعد خلعه من العرش.

إسلاميون لا طائفيون

ولأن الحزب الوطني، كان حزبًا إسلاميًا، فإنه لم يكن طائفيًا ولا سلك يومًا سلوكًا طائفيًا، ولم يكن الحزب الوطني في ذلك إلا انعكاسًا حقيقيًا وصحيحًا للإسلام، فالإسلام دين غير طائفي، ولم يكن الحزب الوطني إلا صورة صحيحة للحركة الإسلامية، فالحركة الإسلامية حركة غير طائفية، فهي تري أن بها هامشًا متسعًا لمساهمة غير المسلمين، وخاصة أن التحدي الحضاري الذي يواجها وهو التحدي الغربي الأوروبي الصليبي، يستهدف أيضًا القضاء على نصارى الشرق ودمجهم في الحضارة الغربية، وتذويب عقائدهم وقيمهم المستقلة، وأكثر من هذا، أن هناك خصوصية لأقباط مصر فهم ينتمون إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن.

وهكذا لم يكن غريبا أن مصطفى كامل، ومحمد فريد، و عبد العزيز جاويش، وكل تراث ومواقف الحزب الوطني تعكس هذه الرؤية، ولم يكن غريبًا أيضًا أن يساهم الأقباط بدور هام في النضال الإسلامي ضد الاحتلال من خلال الحزب الوطني.

كان مصطفى كامل إسلاميا حتى النخاع، بل وخرجت الحركة الوطنية في مصر بكاملها من عباءة الجامعة الإسلامية، وقد رأينا في جزء سابق موقف الحزب الوطني ومصطفى كامل، ومحمد فريد من قضية الخلافة الإسلامية عمومًا والخلافة الإسلامية العثمانية خصوصًا.

ولم تقتصر إسلامية الحزب الوطني، ومصطفى كامل ومحمد فريد على مسألة الإيمان بالجامعة الإسلامية أو الخلافة الإسلامية، أو دعم الدولة

العثمانية والدفاع عنها ولكن كان كل سلوك وموقف يخرج من مشكاة الإسلام ويعبر عن وعي إسلامي عظيم.

فمصطفى كامل مثلا شديد الاعتزاز بالتاريخ الإسلامي وبقيم الحضارة الإسلامية فهو يقول:" ألا فاقرأوا التاريخ الإسلامي وانظروا في أعمال أولئك الخلفاء العظماء الذين كان الواحد منهم ينشد الحقيقة في كل وقت وفي كل مكان، ويمتثل للحق ولو كان قائله من أصغر الناس" [٢٢]، ويقول:"أن رجال المدنية الإسلامية لم يكونوا ليقولوا "السياسة فوق الحق" بل كانوا يقولون "الحق فوق كل شيء" " ويؤيد هذا القول ألف دليل ودليل من العمل [٢٣] وهو يقول:"إن الإسلام كفل المواد الحيوية لأرقى مدنية يشتهيها بنو الإنسان " [٢٤].

وهو يقول:" قال أعداؤنا أننا نخلط الإسلام بالوطنية ونتكلم دائمًا عن المسلمين، ونطلب إدخال الدين في التعليم وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم، وكيف لا تكون إنجلترا وألمانيا إذن متعصبتين وهما الدولتان المتمسكان بالتعليم الديني في مدارسهما ونتهم نحن بالتعصب الديني ؟ لماذا يكون الإنجليزي وطنيًا وبروتستانتيا في آن واحد ولا يكون المصري المسلم وطنيًا ومسلمًا ؟!

ألا تكون الوطنية صحيحة سليمة إلا إذا قضت على الدين ومحته ؟ " الحقيقة الساطعة التي لا ريب فيها هي أن الوطنية والدين يتفقان، بل وقد يكونان متلازمين " [٢٥]، ويقول:"كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية"[٢٦]، ويقول:"إن التعليم الديني ليس فرضا من الوجهة الدينية فحسب بل هو كذلك أيضا من الوجهة الوطنية " [٢٧].

وكذلك: "على أن بث الحقيقة الإسلامية بين المسلمين هي من أكبر الأسباب الموجودة للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى، إذا لا تعصب مع علم ولا نفرة مع نور ورشاد، فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقتة، وأن تزول الجهالات والخرافات من بينهم" [٢٨]، :"إن الإسلام والجهل لا يجتمعان، فلا إسلام بغير علم وفضل ومدنية وإنسانية [٢٩].

ويصل مصطفى كامل إلى قمة الوعي الإسلامي حين يقول:

" إن على المسلمين أن يحملوا على أسباب الفشل والسقوط بينهم، وأن على المسلمين أن ينظموا بلادهم لأن الإسلام دين مدنية وعمران وقدرة ورفعة " [٣٠].

"إن المسلمين يخدعون أنفسهم كثيرًا ويسيئون إلى بلادهم حقيقة إذا اعتقدوا أن سلامتهم في الاعتماد على دولة من الدول وأن لهم أن يناموا على وسادة الأمان والاطمئنان إذا جاملتهم هذه الدولة أو تلك بكلمة عطف لغاية يجهلونها " [٣١].

إذن فمصطفى كامل يؤمن بأن الدول الأوروبية لا تجامل بالكلمات ألا لأسباب أخرى غير الحب والعطف للمسلمين، وأن الطريق الوحيد للحصول على الحقوق هو الاعتماد على النفس، بل ويؤكد أن سبب ضعف المسلمين وتخلفهم هو عد تمسكهم بالإسلام، وشيوع الفشل والانقسام بينهم.

وهو يلخص المسألة كلها بقوله:" لو تمسك المسلمون بالإسلام لما اعتدى عليهم أحد ولخطب ودهم كل إنسان " [٣٢]، ويقول أيضًا:" إن الإسلام ليس عقيدة دينية فقط، بل قانون اجتماعي، وإن ميل كل مسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي، وأنه إذا كان لتأخر الشعوب الإسلامية أسباب واحدة فأن نهضتهم تكون بوسائل واحدة " [٣٣] .

أكثر من هذا أن مصطفى كامل كان شـــديد الاهتمـــام بقضـــايا العـــالم الإسلامي عمومًا وتقوية الروابط بين الشعوب الإســـلامية فأصـــدر جريـــدة أسبوعية هي " العالم الإسلامي " كان ينشر بها ما يهم الإسلام من المقـــالات والأنباء [٣٤].

وعلى مستوى السلوك الشخصي، كان مصطفى كامـــل مثـــالا للمســـلم المعتزم بدينه سواء في العبادات ، أو في المعاملات، أو في الأخلاق.

وفي ذلك يقول الخديوي عباس حلمي الثاني في مذكراته التي نشـــرتها صحيفة المصري سنة ١٩٥١ " إن مصطفى كامل ظل متدينًا ومتعلقًا بروح القرآن طوال حياته، وأن أفكاره كانت أقرب إلى التقليد الشرقي، وأنـــه كـــان يستخدم النظريات الغربية كوسيلة، ولكنه لا يعتبرها غاية في ذاتها " [٣٥].

ويقول الأستاذ محمود العمري [٣٦] " لقد كان مصـــطفى كامـــل اكبـــر المناضلين عن الإسلام "

وبسبب الفهم الصحيح للإسلام الذي عكسه مصطفى كامل، وبســـبب إيمانـــه بالجامعة الإسلامية ووحدة العالم الإسلامي، ودفاعه عن الخلافـــة الإســـلامية عمومًا والدولة العثمانية خصوصًا، وبســـبب إيمانـــه بالتعصـــب الأوروبـــي الصليبي ضدنا الذي يستهدف المسلمين وغير المسلمين في بلادنا على السواء، وبسبب إيمانه بأن الإسلام قانون اجتماعي، وأنه السبيل إلى النهضة ودعوتـــه إلى إقامة وسائل المدنية والعمران على قواعد الإسلام، وبسبب دعوته للتعليم الديني، وبسبب التزامه بالإسلام على مستوى السلوك الشخصي أيضًا، بسبب إسلامية مصطفى كامل المتكاملة فإن الأقباط في مصر انخرطوا في الكفـــاح

تحت راية الحزب الوطني، لأنهم أيضًا ينتمون إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن، ولأنهم يعادون الحضارة الغربية الصليبية ويرفضونها.

فعلى سبيل المثال كان الأستاذ ويصا واصف من أكبر دعاة الحزب الوطني، وأكثر المتحمسين لمصطفى كامل، بل كان عضو اللجنة الإدارية الأولي للحزب الوطني التي كانت تضم ثلاثين عضوًا، وكذلك كان الأستاذ مرقص حنا من كبار أعضاء الحزب الوطني، والمتحمسين لمبادئ مصطفى كامل وكفاحه، أكثر من هذا أن كثيرا من الأقباط شارك في تأبين مصطفى كامل بعد موته بكلمات الرثاء والإشادة بفضله مثل الأستاذ مرقص حنا وويصا واصف، وغيرهم من أعضاء الحزب الوطني من الأقباط، بل إن بعض الأقباط من خارج الحزب الوطني شاركوا في تأبين الفقيد، بل الأعجب من هذا أن بعض صنائع الإنجليز من الأقباط لم يستطيعوا أن يجدوا في مواقف مصطفى كامل ومبادئه الإسلامية ما يمكن انتقاده بسببها فاضطروا لتأبينه والإشادة بذكره مثل أخنوخ فانوس.

حقائق الحركة الإسلامية الوطنية وأباطيل خصومها

من دواعي العجب أن التهم والأباطيل التي يلصقها أعداء الحركة الإسلامية الوطنية هي نفسها، بل ربما باللفظ التي كان يرددها أعداء الحزب الوطني، ومصطفى كامل، ويروج لها دعاة الاستعمار، والحقيقة أن نفس التهم والأقوال كانت وما تزال، وربما ستكون في المستقبل هي نفسها، لأن معسكري الصراع هما أيضًا نفس المعسكرين ويحملان نفس السمات والأهداف والتوجهات حتى الآن، المعسكر الإسلامي الوطني المعادي للاحتلال والنفوذ الأجنبي والذي يعمل من أجل النهضة والتحرر في الإطار الإسلامي وفي إطار وحدة المسلمين، والمعسكر المعادي الذي يضم الاحتلال أو دعاة النفوذ الأجنبي وعملائهم من المؤسسات والشخصيات والقوي العلمانية.

انظر مثلا إلى التهم التي ألصقت بالحزب الوطني وبمصطفى كامل تجدها تهم التعصب الديني، دعاة الفتنة والثورة، الارتباط بالأجانب !!، ضيق الأفق، تحريض المسلمين على الدول، تكدير الأمن العام.. التطرف.

ولنترك مصطفى كامل بنفسه يرد على تلك التهم، فإن رده هو في الحقيقة الرد الصحيح على نفس التهم التي تلصق الآن بالحركة الإسلامية.

يقول مصطفى كامل:" ينسب الطاعنون فينا إلينا من التهم، أن الحزب الوطني أكبر آلة في يد ألمانيا، وأنه يهدف إلى أحداث فتنة في البلاد الإسلامية، وأننا نريد استبدال احتلال باحتلال، وقالوا فيما قالوا أننا ضيقوا الفكر صغار الآمال، وأننا نأبى على الذين ولدوا في مصر واستوطنوها أن يكونوا مصريين، وأننا نخلط الإسلام بالوطنية، ونتكلم دائما عن المسلمين،

ونطلب إدخال الدين في التعليم وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم، كما يـروق لبعض الجهلاء والمسخرين لخدمة الإنجليز أن يلقبوننا بالمتطرفين " (٣٧).

ويردد مصطفى كامل على ذلك بقوله:"نلقب بالمتطرفين لماذا ؟ هل لأننا نطالب بحقوق بلادنا واستقلالها.

متطرفون لأننا نعلن ثقتنا الكاملة في مستقبل بلادنا، ونقول للأمة في الصباح والمساء اليوم عسر وغدًا يسر!!.

متطرفون لأننا نقول للأمة اعملوا!!

متطرفون لأننا ننادي بالعلم والتعليم على أساس ديني، ونطالب برد الحقوق إلى الفقير!!

متطرفون لأننا نعلن أن الإسلام عامل قوي لترقية الأمة ونشر أنوار المدنية فيها!!

متطرفون لأننا نرفع صوتنا محتجين على الفظائع.

متطرفون لأننا نطالب باستقلال بلادنا!! " (٣٨).

فإن كنا نعتبر متطرفين لأننا نكن ذلك كله ولأن هذه خطتنا فأكرم بالتطرف، ويا فخارنا أن نلقب بالمتطرفين، ومن منكم لا يفخر بالتطرف وأيكم لا يريد أن يكون سائر المصريين متطرفين؟ وهل يكون الاعتدال في هذه الحالة شيئًا آخر سوى الجبن والرياء، واستعمال خطتين، واتباع سياستين، ومخاطبة الناس بلسانين.

وإذا تركنا التهم وقد وجدناها هي نفس التهم التي مازال أبواق الاستعمار يستخدمونها، نجد أيضًا أن نفس الأطروحات الانهزامية التي مازال

البعض يرددها كانت هي بنفسها نفس الأطروحات في مواجهة كفاح الحــزب الوطني، ومصطفى كامل.

فمثلا نجدهم يقولون " لنهجــر طلــب الاســتقلال ولنطالــب الإنجليــز بالإصلاحات الداخلية مثل تأسيس مجلس نيابي، ونشر التعليم حتى إذا صرنا أصحاب الحول والطول في البلاد قلنا لهم انجلوا عنا فلا يســتطيعون إلا أن يتخلوا خاضعين ممتثلين " (٣٨).

نفس الكلام يردده البعض الآن قائلين اتركوا الثورة الإسلامية وأعملــوا للإصلاح أولا في التربية والتعليم وغيرها، قبل مهاجمــة النفــوذ الأجنبــي، ولنترك مصطفى كامل يرد:"اللهم أني أعترف بأني لست مــن المهــرة فــي السياسة حتى أدير مثل هذا التدبير،و أصرح بأنه لم يخطر لي لحظة واحــدة بأني قادر على أن أصرع السياسة الإنجليزية بمثل هذه العبارة، كما أني مــع عداوتي الأكيدة للاحتلال لا أرى ان الإنجليز قد تحولوا بسرعة البرق أطفالا صغارًا حتى تدخل عليهم هذه الحيلة المضحكة " (٣٩).

ونردد هنا مع مصطفى كامل، ونحن أيضا لا نري الأمريكان ومراكــز النفوذ الأجنبي سيتركوننا أيضا نصلح الأحوال حتى إذا انصلحت قلنــا لهــم اسحبوا مراكز النفوذ السياسي والاقتصادي لكم في بلادنا فيسحبونها.

وأطروحة أخرى يرددها دائمًا أعداء الحركة الإسلامية الوطنية وهي أن الحكومة قد أنجزت كذا وكذا من الإنجازات، وأنه لا داعي لإنكارها، أنظــر إلى دعاة الاستعمار يقولون نفس الشيء " يفاخرنا دعاة الاحتلال على الــدوام بأنهم اعتنوا بالبلاد وملئوها ذهبًا (٤٠) .

ويردد مصطفى كامل قائلا:"وما قيمة الثروة بجانب الحرية الشخصية والعمومية وسيادة المصري في بلاده واستقلاله في وطنه[٤١].

ونردد مع مصطفى كامل، ما قيمة الإنجازات وفلسطين محتلة، وما قيمة الإنجازات ومراكز النفوذ الأجنبي ترتع في بلادنا وخاصة الأمريكي منها.

وفي الحقيقة أنه لا إنجازات ولا يحزنون، وأن الاحتلال والنفوذ الأجنبي والسلطات المستبدة دائمًا لا تقوم بإنجازات حقيقية ولا يعود نفع مشروعاتها إلا على فئة محدودة من المرتبطين بجهاز السلطة ومراكز النفوذ الأجنبي.

وأطروحة ثالثة تقول أن البلاد غير مستعدة الآن للاستقلال أو غير مستعدة للحريات أو غير قادرة على صيانة الأمن العام إلا بالطوارئ أو بجيش الاحتلال، وأنه إذا خرج جيش الاحتلال أو إذا ألغيت الطوارئ أو إذا فتحنا باب الحريات على مصراعيه تدب الفوضى والفتنة وغيرها من الأطروحات العميلة التي يرددها أعداء الحركة الإسلامية قديمًا وحديثًا.

ويرد مصطفى كامل على ذلك مؤكدًا أن بلادنا تعرف النظام قبل بلاد أوروبا، وأن الإسلام ونشر العلم الديني يحققان الاستقرار والازدهار معًا، بل إن سياسة الاحتلال هي التي توجد الفوضى والفتنه.

ونردد مع مصطفى كامل " أن غياب الحريات وجود الطوارئ ومراكز النفوذ الأجنبي هي التي تؤدي إلى الاضطراب والفتن، وأن حكم الإسلام هو الذي يحقق الاستقرار، بل لا استقرار بدونه.

وأطروحة رابعة تقول أنه لا قيمة للنضال، وأن الشعب وزعماء حركة الشعب لن يحصلوا على نتيجة نضالهم وكفاحهم، وأن قوة الاحتلال لا سبيل

إلى مواجهتها، وأن من يحلم بمواجهتها مجرد شخص يحلم أو يقع في الوهم، أي هي أطروحة اليأس.

وفي هذا الصدد يقول مصطفى كامل:"لا يأس مع الحياة ولا حياة مـــع اليأس " ويقول أيضًا إن الرجال اليائسين يضرون بلادهم أعظم ضــــرر لأن قتل العواطف الشريفة وإخماد نار الغيرة الوطنية هي أكبر خيانة على الوطن وأهله " (٤٢).

وفي الحقيقة فإن اليأس ودعاة التثبــيط موجــدون دائمـــا، وهــؤلاء لا يدركون حقيقة أن النضال الوطني إذا لم يحقق اليوم شيئًا منظورًا فإنه يقــدم الشعلة متقدة للجيل الذي بعده، ثقة في المستقبل وأملا، ويكفي أيضًا أن هــذا النضال يخفف من آثار العجلة الاستعمارية، ويقلل من سرعتها، ويحافظ على الأمة من الانهيار النهائي والذوبان، وهذا وحده يكفيه إن لم يحقق غيره.

جانب من كفاح الحزب الوطني في عهد مصطفى كامل

ظهر الحزب الوطني بصورة نظامية، أي بتشكيل لجان ولائحة ونظام داخلي، وأهداف معلنة سنة ١٩٠٧، ولكن الحقيقة أن الحزب الوطني كان موجودا في الواقع المصري منذ سنة ١٨٩٠ متمثلا في كفاح ونشـــاط مصـــطفى كامـــل ورفاقه، بل أن الحزب الوطني ذاته ما هو إلا حلقة أخرى من حلقات الكفـــاح الشعبي المصري، أو جيل جديد من أجيال الحركة الإسلامية الوطنيـــة فـــي مصر، جاء بعد جيل الأفغاني والنديم وعرابي.

وإذا كان النفوذ الأجنبي بالتحالف مع الأسرة الخديوية والأرســـتقراطية الزراعية قد لعبوا دورًا كبيرًا في تحطيم الاقتصاد والثقافـــة الـــوطنيتين، وإذا

كانت الثورة العرابية كانت محاولة شعبية ضد هذا الواقع، فـإن تصـاعدها ووعيها أديا إلى تدخل الإنجليز بجيشهم وأسطولهم لذبح تلك الثورة، وتكريس هذا الواقع بل وتطويره في اتجاه التبعية والقضاء نهائيا على أي شـكل مـن أشكال النهضة والاستقلال.

وبدخول جيش الاحتلال لمصر، قامت السلطات الاستعمارية بالقضـاء على ما بقي من صناعة، مدنية أو عسـكرية لدرجـة أن النقـود المصـرية أصبحت تصك في انجلترا.

وحطمت السلطات الاستعمارية حتى الصناعات الصغيرة، بل والحرف الصغيرة، بل والصناعات المنزلية المنتشرة في الريـف، فأصـبحت السـلع الإنجليزية الصغيرة والكبيرة والمتوسطة هي وحدها المتاحة أمام الناس بمـا فيهم الغني والفقير، يقول الدكتور لهيطة " شرد الإنجليز مائتي ألف من صغار الحرفيين بما فرضوه عليهم من ضرائب باهظة وقوانين جائرة " (٤٣).

ويقول روزنيشتين:" إن الإنجليز لم يكتفوا بعدم إنشائهم ولـو صـناعة واحدة، بل قتلوا بالفعل ما من شأنه أن يعود ببعض التقدم الصناعي(٤٤).

وأغلق الإنجليز المدارس الصناعية، والمعاهد العليا العلمية ليقضوا على أي قاعدة علمية للصناعة، بل أكثر من هذا روجوا لمقولة أن مصر بلد غيـر صناعي.

ويلخص كرومر المسألة كلها قائلا " من يقارن الحالة الراهنة، بالحالـة التي كانت منذ ١٥ سنة "أي قبل الاحتلال" يري فرقًا ضخمًا، فالشوارع التـي كانت مكتظة بدكاكين أرباب السلع والصناعات والحرف من غزليين وخياطين

ونساجين وصباغين وخيامين وصانعي أحذية قد أصبحت مزدحمة بالمقـــاهي والدكاكين المليئة بالبضائع الأوروبية، أما الصانع المصري فقد تضاءل شأنه، وانحطت كفاءته على مر الزمن، وفسد لديه الذوق الفني الذي طالما إخرج من قبل المعجزات في مفاخر الصناعة " (٤٥) .

إذن فكرومر يعترف بكفاءة الصانع المصري، ولكنه لا يفصح عن سبب ضياع الصناعة، وانحطاط الكفاءة، أليست هي السياسة الاستعمارية؟

ويقول ملنر " إن السوق المصرية هامة لتصريف البضائع الإنجليزيـــة بسبب المنافسة الشديدة لبضائعنا في التجارة الدولية " (٤٦).

وسيطر الإنجليز خصوصًا والأجانب عمومًـــا علـــى قطـــاع التجـــارة والمقاولات ولنقرأ دلالة هذه الأرقام (٤٧).

في سنة ١٩٠٠ مثلا طرحت الحكومة المصرية مقاولات قيمتها ٥٥١ ألـــف جنيه وزعت كالتالي:

مقاولـــون	إنجليز =	٣٤٢,٥٠٠٠
مقاولـــون من	بلجيكا=	٥٦,٠٠٠
مقاولـــون من	النمسا=	٥٠,٠٠٠
مقاولـــون من	ألمانيا=	٤٩,٠٠٠
مقاولـــون من	إيطاليا=	١٠,٠٠٠
مقاولـــون من	فرنسا =	٨,٥٠٠
مقاولـــون من	تركيا =	٣,٥٠٠

أما نصيب المقاولون المصريون فكان ٣٢ ألف جنيه، وهذه أيضًا كانت من نصيب الأجانب المتمصرين.

إذن فالصناعة المصرية ممنوعة، والتجارة والمقاولات في يد الأجانب، والمسموح به فقط هو مشروعات البنية الأساسية اللازمة لخدمة الأجانب، وتسهيل عملية النهب مثل شركات المياه والكهرباء، والسكك الحديدية والطرق والكباري، واستصلاح الأراضي، مشروعات الري، وحتى تنفيذ كل هذه الأعمال ظل قاصرًا على الأجانب، ودلالة أرقام المقاولات خير شاهد على ذلك.

ويلاحظ في هذا الصدد مثلا أن الطرق والكباري والسكك الحديدية صممت بحيث تربط مواقع إنتاج الخامات بمواني التصدير، وليس لخدمة الأهالي وتسهيل تنقلاتهم، أما مشروعات الكهرباء والمياه فاقتصرت على الأماكن التي يعيش فيها الأجانب، أو الأرستقراطية الزراعية، وظل الريف والمناطق الشعبية في المدن محرومة منها، أي كانت لتسهيل حياة الموظفين الاستعماريين وعملائهم، والمرتبطين بهم لا أكثر ولا أقل.

الشيء الوحيد الذي كان مسموحًا للمصري أن يمارسه هو الزراعة، واستصلاح الأراضي، وذلك لزيادة المتاح من المحاصيل التصديرية اللازمة لإدارة المصانع الأوروبية، وبشرط أن يكون معظم الأراضي في أيدي الأرستقراطية الزراعية المتحالفة والمتعاونة مع الاستعمار، وأن يكون الاستعمار في القطاع الزراعي وسيلة لامتصاص التراكم المالي لدى هذه الطبقة، بحيث لا تفكر في مزاحمة الاستعمار في القطاع التجاري أو الصناعي، وأن تكون الزراعة في قطاعها الأكبر لصالح إنتاج القطن مثلا

اللازم للمصانع الأوروبية، فقد زادت المساحة المنزرعة قطنا من نصف مليون فدان سنة ١٨٧١ إلى ١,٧ مليون فدان سنة ١٩١٣، وارتفعت نسبة صادرات القطن، بحيث أصبحت تمثل ٩٣% من قيمة الصادرات المصرية بين سنة ١٩١٠ ــ ١٩١٤.

وبالطبع فالاعتماد على تصدير سلعة واحدة أولية مثل القطن، بحيث لا يصدر غيرها هو التجسيد العملي لسياسة التبعية الاقتصادية، وهو أيضًا وضع الاقتصاد المصري تحت رحمة الاستعمار والسوق العالمي.

وقد أصبح التحكم في سعر القطن هو السمة السائدة، والنتيجة الطبيعية فمثلا أصبح قيمة ما تصدره مصر من القطن سنة ١٨٩٨ هو ٦ مليون قنطار قيمتها ٨,٢٥ مليون جنيه، في حين أنها كانت تصدر عام ١٨٧٠، ٣ مليون قنطار قيمتها أيضًا ٨ مليون جنيه، أي أن مصر أصبحت تصدر ضعف الكمية من القطن بنفس القيمة من النقد، أي بسبب التحكم في أسعار القطن يضيع عليها ٨ مليون جنيه سنويًا على الأقل حتى بفرض عدم غلاء السعر مع الزمن، ومع انخفاض قيمة النقد عادة مع الزمن.

وبالطبع هذه السياسة الزراعية القائمة على إنتاج وتصدير سلعة واحدة، أدي إلى تقليص المساحات المنزرعة بالحبوب، وهو ما أدي بدوره إلى أن مصر كانت تصدر ما قيمته ٢ مليون جنيه من المواد الغذائية عام ١٨٧٠ أصبحت تستورد من المواد الغذائية ما قيمته ٦ مليون جنيه سنة ١٩١٦، بل أصبحت مصر وهي التي تنتج القطن وتصدره تستورد ما قيمته ٩,٥ مليون جنيه من المنسوجات عام ١٩١٦ -عملية نهب وإفقار متعمد وبشع أيضًا-.

أكثر من هذا قام الاستعمار بتصدير رؤوس أموال إلي مصر لتوظيفهــا طبعًا في الربا والرهن العقاري وما شابه ، أي سرقة مجهود الفلاح الصــغير والمتوسط والكبير إذا أمكن، وكان الاستعمار يحصل على ٢٥ مليون جنيــه سنويًا كعائد من الربا والرهن العقاري، أي امتصاص ٢٥مليون جنيه ســنويًا من دم الشعب المصري، وأحداث نوع من عدم الاستقرار العقاري، والفوضى الاقتصادية فبلغ مثلا المرهون من الأطيان عام ١٨٩١ حوالي ٢,٣ مليون فدان ٠

بل أن الأمر بلغ أقصي درجاته من السلب والنهب والتبعية، حيث قامت السلطات الاستعمارية بربط النقد المصري بالعملة الإنجليزية، فكان الغطــاء للبنكنوت المصري مكونا أساسًا من أذونات الخزانة البريطانيــة والســندات الإنجليزية، بل إن البنك الأهلي المصري الذي أعطته الحكومة امتياز إصدار النقد كان مؤسسوه وحملة أسهمه هم السير أرنست كاسل المالي الإنجليــزي الشهير، والسير سلفاجو وشركاه، والخواجة روفائيل سوارس وإخوتــه [٤٨]. أي أنه بنك مصري اسمًا وأجنبي فعلا٠

هذا على مستوى الحالة الاقتصادية، أما علي مستوى السياســة، فلقــد أصبح المعتمد البريطاني هو الحاكم بأمره في البلاد، كما تم إلغــاء دســتور ١٨٨٢ وكذلك تم إلغاء البرلمان وأستبدل بمجلس شوري القــوانين الــذي لا حول له ولا قوة ولا سلطة، كما تم تحطيم الجــيش والأســطول، وأصــبحت السيطرة للإنجليز في كل شيء، فقائد الجيش إنجليزي، وكذلك كبار الضــباط إنجليز، وقائد البوليس وكبار ضباطه ومفتشوه كلهم إنجليز، والمستشار المالي

في وزارة الداخلية إنجليزي أيضًا، وكذلك المستشار القضائي والنائب العــام، كلهم إنجليز .

وزاد عدد الموظفين الإنجليز فوصل إلى ١٦٠٠ موظف عــام ١٩١٩، وكان نصيب الإنجليز في الوظائف الكبيرة حوالي ٥٩,٣٠/٠ ما بــين ١٩٠٥ إلى ١٩٢٠، بينما كان نصيب المصريين ٢٣,١٠/٠ من تلك الوظائف التــي في يد الأجانب، بل حتى هؤلاء المصريين كــانوا مــن عمــلاء الاحــتلال والموالين لسياساته " ومن يعترض سيطرد"، وهناك من العملاء من يمكن أن يحل محله، ألم يقل وزير خارجية إنجلترا في برقيته المشهورة ســنة ١٨٨٤ ذلك الأمر بدون خجل قال " يجب على المديرين والــوزراء المصـــريين أن يكونوا على بينة من أن الحكومة البريطانية تصر على إتباع السياســة التــي تراها، ومن الضروري أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وفقًا لهذه السياسة " (٤٩).

ومن السيطرة على الاقتصاد والجهاز السياسي إلــى محاولــة تحطــيم الثقافة الوطنية والتعليم الوطني، وزرع الثقافة الاستعمارية، فتم إلغاء مجانيــة التعليم، وتم إغلاق المدارس العالية وخاصة العلمية والصناعية منها، كما تــم استبعاد التاريخ القومي والمواد الدراسية العلمية والصناعية، واكتفت البرامج الدراسية بما يؤهل الخريجين فقط لمهمة الوظائف وليس العالم أو الباحــث أو الأديب أو الخبير الصناعي، بل تم إدخال اللغة الإنجليزية والمعلمين الإنجليز بدلا من اللغة العربية والمعلمين المصريين، وتم تشــجيع بعثــات التبشــير الأجنبية من كل لون وشكل وجنسية، كما تم تشكيل مدارس فكرية تغريبية أو

عملية للاستعمار، وكذلك صحف وأحزاب موالية للإنجليز ومعادية للشعب وحضارته وثقافته. وكل هذا يهدف تجهيل أبناء الشعب المصري والقضاء على الثقافة الوطنية الإسلامية لصالح الثقافة والقيم الأوروبية.

كان على الحزب الوطني أن يتحرك في مواجهة ذلك كله، ولأن الحزب الوطني كان حزبًا ثوريًا وليس إصلاحيا، فأنه رأي أن كل شيء كان نتيجة للاحتلال وللنفوذ الأجنبي، وهكذا وجه اهتمامه الأول والأكبر لقضية الجلاء بحيث أصبح حزب الجلاء، ،أصبح مطلب الجلاء هو المطلب التقليدي للحزب الوطني ولمصطفى كامل، ولكن هذا لم يمنع أن يقوم الحزب الوطني ومصطفى كامل بمواجهة السياسات الاستعمارية في كل مجال، في المجال الاقتصادي والسياسي والثقافي، وفي الحقيقة فإن المنهج الثوري يؤكد على ضرورة الاهتمام بالسبب الأساسي للمشكلة، ولكن ذلك لا بحول دون الاهتمام بالآثار والنتائج والسياسات الجزئية، ولكن في إطار عدم طغيانها على القضية الأساسية ومع الإدراك الكامل أن القضاء على تلك الآثار والنتائج والسياسات لن يتم إلا بالقضاء على أصل المشكلة وسببها الرئيسي، أما المنهج الإصلاحي فأنه يهتم بالآثار والنتائج والسياسات الجزئية على حساب أصل المشكلة وسببها الأساسي.

اهتم إذن مصطفى كامل ومعه رجال الحزب الوطني بقضية الاحتلال، وحددوا مطلبهم الأساسي في "الجلاء"، وهكذا لم يكن عجيبًا أن يطلق المؤرخين على الحزب الوطني اسم حزب الجلاء.

وقد انطلق مصطفى كامل ورفاقه من فكرة أن الاحتلال هو رأس كل فساد وأن الأوضاع المصرية المتردية لم تكن إلا نتيجة مباشرة للاحتلال، وأن محاولة إصلاح الأحوال في ظل الاحتلال ليست إلا ملهاة ولن تفيد شيئًا، وأن الذين يريدون مهادنة الاحتلال بدعوى إصلاح الأحوال ليسوا إلا خدما للاستعمار، بل ويعملون على تثبيت الاحتلال من خلال تلك المقولة.

واعتمد مصطفى كامل في دعواه للجلاء على تعبئة الشعور الوطني لدى الجماهير وتخليصها من اليأس والسلبية ودفعها للاهتمام بقضايا الوطن، كما اعتمد أيضًا على إصدار الكتب التي تحدد جذور المسألة المصرية وتعدد أخطاء وجرائم الاحتلال وعدم شرعيته، وتؤكد الانتماء الإسلامي لمصر، كما قام مصطفى كامل بإصدار الصحف وإلقاء الخطب في كل مكان داخل مصر وخارجها على السواء، بل استفاد مصطفى كامل من التناقضات الثانوية بين الإنجليز والفرنسيين، أو بين الإنجليز وباقي دول أوروبا في تشكيل رأي عام عالمي لصالح قضية مصر، ولكن مصطفى كامل كان يدرك أن هذه ليست إلا تناقضات ثانوية، وأن المعول الأساسي في المسألة يقع على عاتق الشعب المسلم في مصر، وحاول مصطفى كامل أيضًا الاستفادة من التناقضات الثانوية بين الاحتلال والخديوي عباس الثاني، وذلك من أجل عدم تشتيت القوي وحشد ما يمكن حشده من التناقضات الجوهرية والثانوية في مواجهة الاحتلال.

على أنه يمكن رصد عددا من المحطات في كفاح الحزب الوطني، ففي البداية كان الاهتمام بدراسة جذور المسألة المصرية وإصدار الكتب لشرح تلك المسألة ثم مرحلة الخطابة في الداخل والخارج، وإعداد المسرح المحلي

والعالمي لقضية الكفاح ثم إصدار الصحف وفي النهاية بناء تنظيم كبير هـو الحزب الوطني، يمتلك قيادة منتخبة ولجنة إدارية ولائحـة ونظـام داخلـي، وبرنامجًا وأهداف معلنة سنة ١٩٠٧، وذلك لتحويل الحركة الوطنية من مجرد تيار شعبي ضخم إلى حزب منظم وفعـال وذو قيـادة ومسـتويات قياديـة وجماهيرية مختلفة، بل ويمتلك أيضًا خلايا سرية تعمل على أعداد المسـرح للثورة الشاملة.

وهناك أيضًا على مستوى الخطاب الشعبي والسلوك السياسـي، ففـي البداية أهتم مصطفى كامل بالاستفادة من التناقضات الثانوية وذلـك لتخفيـف قبضة الاحتلال على العمل الجماهيري، حيث أن الدعاية في أوروبا وتشـكيل رأي عام أوروبي معادي للإنجليز في مصر سـيجعل مـن الصـعب علـى الإنجليز ضرب الحركة الوطنية الوليدة والتي تحتاج إلى الوقت ليشتد عودها، وفي نفس الإطار يأتي اهتمام مصطفى كامل بعدم الصـدام مـع الخـديوي، ومحاولة كسبه إلى صف الحركة الوطنية، وذلك لحمايتها من بطشه قبـل أن يشتد عودها وحتى لا ينسق الإنجليز مع الخديوي لتصفية تلك الحركة الوليدة، ولكن شيئًا فشيئًا ومع تصاعد المد الجماهيري وزيادة قوة الحركة الوطنيـة، اعتمد مصطفى كامل على الجماهير وحدها، بل ووضح لها أن الاعتماد على النفس هو الطريق الوحيد للاستقلال، وعقب حادثة فاشـودة ١٨٩٨، أعلـن مصطفى كامل أن من الخطأ الاعتماد على فرنسا في مسألة الجلاء فلو كانت جادة في مطالبة إنجلترا بالجلاء لكان احتلالها لفاشودة فرصة لمساومة إنجلترا على استقلال مصر، وقد تبين ذلك جليا فيما بعد سنة ١٩٠٤ حيث عقدت كل

من بريطانيا وفرنسا الاتفاق الودي بينهما، والذي يطلق يد إنجلترا في مصـــر مقابل إطلاق يد فرنسا في مراكـــش.

وعلى الجانب الآخر كان الخديوي يتحول تدريجيًا منذ سنة ١٨٩٨ إلى جانب الإنجليز بعد أن يأس من إمكانية خروج الإنجليز من مصر عن طريق التوازنات الدولية، وكانت هذه أيضًا فرصة لمصطفى كامل وللحركة الوطنية المصرية لتعلن الجماهير أن الاعتماد على النفس هو الطريق الوحيد لتحقيـــق الاستقلال، وأن تبدأ تلك الحركة الوطنية في مقاطعة الخديوي تـــدريجيًا مـــن ١٨٩٨ ــ ١٩٠٤، حيث أصبحت القطيعة نهائية وبالتالي أزداد اعتماد الحركة على نفسها، وأصبحت قادرة على فرز أعدائها بدقة، وقطعت الطريق أيضـــاً على هؤلاء الذين لا يفهمون قيمة الكفاح الشعبي، ويعتمدون فقط في كفـــاحهم على مناشدة الضمير الأوروبي أو الاستفادة من الخـــديوي أو العمـــل تحـــت قيادته، أو بالتنسيق معه.

وهكذا فرزت الحركة الوطنية صفوفها، واتضحت معالم معسكري الثـــورة، وأعداء الثورة، وانطلقت الحركة تعتمد على الله وحده ثم على الجماهير.

وجاءت حادثة دنشواي لتؤكد من جديد على تلك الحقائق ولتثبيت مـــدى الحقد والبطش الاستعماريين، بل وتعري السلطات الاستعمارية مـــن ورقـــة التوت، وتكشف معسكر الخيانة الذي تورط فيه الـــوزراء والمســـئولين فـــي الحكومة المصرية، والذين انحازوا إلى الإنجليز ضد أبناء شعبهم.

وفي الحقيقة فإن حادثة دنشواي ١٩٠٦ والتي حاول الإنجليز استغلالها كوسيلة أو كفرصة لإظهار الأنياب الاستعمارية بهـــدف تخويـــف الحركـــة

الوطنية الإسلامية في مصر، كانت فرصة لتلك الحركة لحشد الجماهير حولها ولإلهاب الوجدان الوطني، وزيادة تماسك الأمة حول قيادتها الطبيعية، وكشف معسكر الأعداء.

كانت الحركة الوطنية كما قلنا قد زادت من الاعتماد على نفسها وأسقطت من حسابها نهائيًا التناقضات الثانوية بين إنجلترا وفرنسا عقب الاتفاق الودي ١٩٠٤، كما نفضت يدها من الخديوي عباس حلمي الثاني، وكان معني هذا أن التناقض الجوهري يتصاعد بسرعة بعد استنفاد التناقضات الثانوية، كان معني هذا أنه لا طريق للاستقلال وتحقيق الجلاء إلا عن طريق الثورة، فأما الثورة وأما الاستسلام واليأس، ومن الطبيعي أن التراكمات التي أحدثتها الحركة الوطنية الإسلامية في مصر بقيادة مصطفى كامل كانت أكبر من أن تستسلم أو تصاب باليأس، وبالتالي فلا مفر من الثورة وتصاعد الحركة، وكان الإنجليز يعرفون ذلك ويرصدونه، وهكذا حاولوا استغلال حادث عادي يمكن أن يحدث في أي مكان وهو مجرد خناقة بين جنود الاحتلال وبعض الأهالي عقب اشتعال النيران في أحد الأجران بسبب رصاص بنادق الجنود الذين كانوا يصطادون الحمام في بلدة دنشواي بمحافظة المنوفية، حاول الإنجليز إذن استغلال الحادث لإظهار البطش والقمع وتخويف الشعب المصري، فتم إنشاء محكمة استثنائية وصدرت أحكام قاسية بالقتل أو الجلد أو الحبس على عدد كبير من أهالي دنشواي، ولم يكن أهالي دنشواي هم المستهدفين، فهم أصلا لم يفعلوا شيئًا يستدعي المحاكمة، بل كان المقصود تخويف الشعب المصري وفضه من حول الحركة الوطنية المصرية، وتخويف

تلك الحركة أيضًا وإبراز الأنياب الاستعمارية لها في محاولة لترويعها وإيقاف عجلتها المتسارعة، ولكن الحركة قلبت سحر الساحر على رأسه واستخدمت القسوة الاستعمارية ذاتها كوقود لشعلة الثورة، والتعبئة الجماهيرية، وحشد الأمة خلفها في مواجهة الاحتلال وأعوانه من الخونة المصريين، وتمخض ذلك عن ظهور الحزب الوطني، حزب الجلاء، كحزب منظم يعمل لتحقيق الجلاء من خلال الضغط الجماهيري، واعتمادًا على قوي الشعب المصري وحده.

لم يقتصر نضال الحزب الوطني على المطالبة بالجلاء فقط، ولكن كان الحزب الوطني يعمل ما أمكنه لتقليل آثار السياسات الاستعمارية ومعارضتها والتصدي لها دون أن يفقد ولو للحظة اهتمامه الأساسي بقضية الجلاء باعتبارها القضية المركزية للحركة الوطنية الإسلامية في مصر.

ففي مواجهة السياسة الاقتصادية الاستعمارية، أهتم الحزب الوطني بالدعوة إلى التصنيع وإنشاء المدارس الصناعية والهجوم على الممارسات الاستعمارية في قتل الصناعة الوطنية، وربط مصر بعجلة الاقتصاد الأوروبي.

في ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٠ تكتب اللواء " إن الاهتمام بالصناعات يخلق روح الصناعة، وهو أسمي خدمة تقدم لبلادنا وأكبر سعادة تجهز لرجال الغد ".

بل وفي العدد الأول من اللواء الصادر في ٢ يناير ١٩٠٠ تقول " إن خطة الجريدة هي ترقية التجارة والصناعة ".

ومصطفى كامل لا يفتأ يكرر ذلك في خطبه ومقالاته، فهو يقول: "متى تخلصت التجارة من الكلل الذي يسببه لها الاحتلال الإنجليزي فسيفتح لنا أفاقًا ذهبية، ومتى تخلصت الصناعة من العوائق التي يسببها لها الاحتلال

فسترقي الصناعة الأهلية وتعود فائدة رقيها على أبناء مصـــر"، بـــل ودعـــا مصطفى كامل إلى إنشاء المدارس الصناعية، كما شكل الحزب الوطني لجنة برئاسة "حسن بك محمد" لعمل مشروع تأسيس مدرسة صناعية (٥٠).

وفي مواجهة سيطرة الإنجليز على الجهاز الإداري السياسي للبلاد دعا مصطفى كامل الوزراء والمديرين إلى عدم التعاون مع الاحـــتلال وتعويـــق سياساته ولو على حساب فقدانهم مناصبهم، كما ندد بتـــدخل الإنجليـــز فـــي الوزارات المختلفة مثل الجيش والبوليس والقضاء والتعليم والخارجية، وطالب بعزل المستشارين الأجانب من تلك الوزارات والمصالح، وفي إطار المطالبة بالدستور والحريات طالب مصطفى كامل بإنشاء حياة دستورية سليمة ومجلس نواب حقيقي تكون له السلطة التشريعية، وأن تكون السلطة للشعب وليســت للإنجليز أو الخديوي، يقول مصطفى كامل في هذا الصدد:"إن هذه البلاد فـــي حاجة إلى مجلس نيابي تكون له السلطة التشريعية، فلا يســـن قـــانون بغيـــر إرادته، وأن بقاء السلطة المطلقة في يد رجل واحد، سواء كـــان مصـــريًا أو أجنبيًا يضر بالبلاد كثيرًا أو يجر عليها الوبال "

وهذا القول دلالة واضحة على انحياز الحركة الوطنيـــة إلـــى الحيـــاة الدستورية ورفض الاستبداد والحكم المطلق حتى لو كان من مصـــري وهـــو أمر يدل على وعي متقدم بقضية الحريات لدى الحركة الوطنية الإسلامية في ذلك الوقت.

وفي مواجهة السياسة التعليمية الإنجليزية نجـــد أن مصـــطفى كامـــل والحزب الوطني قد اهتما اهتماما بالغًا بعملية نشر التعليم باعتبار أن التعلـــيم

فريضة إسلامية وباعتباره أداة هامة من أدوات التقدم، وباعتباره أيضا أحد وسائل مقاومة الاستعمار والاستبداد، وهو هنا يدعوا إلى إنشاء المدارس عن طريق المجهود الشعبي لأنه لا أمل في سلطات الاحتلال والخديوي بالطبع يقول مصطفى كامل في المؤيد سنة ١٨٩٥ :" يجب على أغنياء البلاد أن يؤسسوا المدارس العديدة على أساس من الدين القويم والتربية السليمة " •

وواضح هنا أن الاهتمام بالتعليم كان اهتماما مبكرًا، أي منذ السنوات الأولي لجهاد مصطفى كامل، كما كان مصطفى كامل يؤمن بأن يكون التعليم على أساس ديني وتربوي سليم، وبالطبع هذا عكس هدف الاستعمار الذي كان لا يريد انتشارًا للتعليم ولا يريد الموجود منه في إطار ديني، بل في إطار الثقافة الغربية•

يقول الرافعي {اتجهت عزيمة مصطفى كامل إلى حث الأمة على التعليم لكي تقوي الروح الوطنية في نفوس الجيل الجديد ويستعد للاضطلاع بأعباء الكفاح " (٥٣)•

وقد أثمرت دعوته إلى التعليم، فعلى سبيل المثال قام حسين بك القرشوللي بتأسيس مدرسة على نفقته الخاصة بمنطقة الحلمية، تم افتتاحها يوم ٨ يناير ١٨٩٩، وقام كل من محمد أفندي سعيد الفيومي، وأحمد أفندي صادق بتأسيس مدرسة في منطقة باب الشعرية، وهي المدرسة التي أسميت باسم مصطفى كامل، وتم افتتاحها في يناير ١٨٩٩ أيضًا•

وقد كتب مصطفى كامل بيانا ونشر في صحيفة المؤيد بهذه المناسبة، وهذا البيان يوضح رؤية مصطفى كامل للقضية التعليمية، يقول البيان:"أني

اتشرف بإعلان الجمهور أن التعليم في هذه المدرسة مقرون بالتربية، لأنـــي أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة، بل ربما كان كثير الأضرار، وأقصـــد بالتربية، التربية الإسلامية المحضة، لأن أساس التربية هو الدين وكـــل أمـــة يتربى أبنائها على غير قواعد الدين تكون عرضة للدمار والانحطـــاط، وقـــد رأيت بنفسي في أغلب مدارس أوربا اهتماما فائقا بتعلـــيم الـــدين المســـيحي للناشئين، لذلك عولت على جعل الغرض الأول من المدرسة ترقيـــة الملكـــة الإسلامية عند التلاميذ، وتمكين مبادئ حب الوطن والاتحاد والائـــتلاف مـــن نفوسهم، وتقديم اللغة العربية على كل لغة، ورغبة مني في نفع أبناء الفقـــراء قررت قبول ثلاثين في المائة منهم مجانـــاً " (٥٤).

استمرت دعوة مصطفى كامل للتعليم، واستمرت الاستجابة الشعبية لتلك الدعوة العظيمة، فقام مصطفى بك الشوربجي سنة ١٩٠١ بإنشـــاء مدرســـة مجانية في بلدته "بريم" بمديرية البحيرة.

واستمرت عملية تأسيس المدارس بجهود الرجال الشرفاء من أبنـــاء الشـــعب المصري كنتيجة واستجابة لدعوة مصطفى كامل، ولم يكتف مصطفى كامـــل بذلك، بل دعا إلى إنشاء جامعة مصرية، فقد أقترح في جريدة اللواء عدد ٢٦ أكتوبر ١٩٠٤ " بإنشاء جامعة مصرية بأموال الأمة " وفي يناير ١٩٠٥ عاود الدعوة إلي المشروع في جريدة اللواء أيضا عدد ٨ يناير ١٩٠٥ وكتب عدة مقالات شرحًا وتأييدًا للمشروع، وقد تم جمع الاكتتابات لهذا الغـــرض ســـنة ١٩٠٥ فبلغت ثمانية آلاف جنيه، وقفزت الفكرة قفزة كبيرة إلى الأمام عنـــدما

تبرع مصطفى بك كامل الغمرواي أحد سراة بني سويف بمبلغ ٥٠٠ جنيــه، واستمرت الفكرة بعد ذلك إلى أن تحققت بعد وفاة مصطفى كامل٠

ولم يقتصر كفاح مصطفى كامل على التعليم وحده بل امتد إلى الثقافــة كلها وقد أهتم الحزب الوطني، ومصطفى كامل بدعم فكرة الجامعة الإسلامية في مواجهة الدعاية الاستعمارية التي تريد ربط ثقافة مصر بثقافة الاحــتلال، كما أنشأ مصطفى كامل مجلة العالم الإسلامي الأسبوعية للاهتمــام بقضــايا العالم الإسلامي، وربطه بمصر وربط مصر به، كما دعا مصطفى كامل إلى نشر الكتب العلمية والتاريخية والدينية، فدعا في وقت مبكر بجريــدة المؤيــد عدد ٣٠ يوليه سنة ١٨٩٥ " أن يقوم العلماء بنشر الكتــب المفيــدة ومهــرة الكتاب بإنشاء الصحف الصادقة " كما قام هو نفسه بتأليف عدد مــن الكتــب لخدمة الثقافة الوطنية الإسلامية وتوضيح حقوق مصر وبيان الحقد الصــليبي الأوروبي على العالم الإسلامي، كما أصدر العديد من الصحف مثــل اللــواء والعالم الإسلامي باللغة العربية، وصــحيفتي الأجبســيان أســتاندرد باللغــة الإنجليزية، ,ليتندار أجيبسيان باللغة الفرنسية وقد قامت اللواء بدور هام فــي الدفاع عن الثقافة الوطنية الإسلامية، والهجوم على القــيم الغربيــة، وانتقــاد البعض الذي يقلدون أوروبا في سلوكهم وأخلاقهم، كما دافعت تلك الصــحيفة عن الحجاب في مواجهة الدعوة الاستعمارية المشبوهة إلى سفور المرأة، كما قامت اللواء أيضًا بنشر صفحات الكفاح المشرفة للشعب المصري وللشــعوب الإسلامية وتاريخ عظماء الرجال من صدر الإسلام والعديد مــن الدراســات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية من منظور إسلامي،وقد اهــتم مصــطفي

كامل بصورة خاصة باللغة العربية " حيث أن إحياء اللغة العربية هو إحيـاء للثقافة والآداب وتقدم الأفكار بل وأداة للنهضة الوطنية، ففي بلد كالمجر مثلا كانت القومية أداة للنهضة الوطنية " (٥٥).

كان مصطفى كامل شخصية فذة، يمتلك من الوعي والخبرة الكثير، وهو ضليع في المسائل السياسية، مضطلع على أحدث التحركات السياسـية فـي السياسة الدولية وخاصة ما يتصل منها بالمسألة المصرية، وكان أيضًا زعيمًا سياسيًا كبيرًا جدًا نال من الحب ما لم ينله أحد من بعده، ويكفـي أن الأمـة خرجت كلها في وداعه بعد موته، وأن قلب مصر قد خفق عندما توفي ذلـك الزعيم الوطني الكبير، كما اعترف بذلك لطفي السيد وهو أحد خصوم الزعيم مصطفى كامل، وكان يمتلك قلمًا فذًا وقلبًا شجاعًا وكان من الخطباء النادرين في تاريخ الإنسانية كلها ومصر خصوصًا.

ومع كل هذا فإن مصطفى كامل لم يربط الحركة الإسلامية الوطنية في مصر بشخصيته، بل عمل على تشكيل إطارات تنظيمية لتلك الحركة بحيـث تستمر تلك الحركة في غيابه أو موته أو تراجعه، وهذه سمة جديدة من سمات العظمة والعبقرية التي تمتع بها مصطفى كامل، وهكذا أظهر مصطفى كامـل اهتماما كبيرًا بتشكيل هيئات منظمة حزبية وسياسية، وعلمية وثقافية وغيرها، بل أن الفكر النقابي أرتبط أساسًا بالحزب الوطني منذ مصطفى كامل وتـدعم وتصاعد التفكيـر النقابي في عهد محمـد فريـد .

أهتم مصطفى كامل في هذا الصدد بإنشاء نادي للمدارس العليا، وهـو شكل من أشكال التنظيم النقابي للطلاب والخريجين على السواء، وقد لعب هذا

النادي دورًا هامًا في الكفاح الوطني المصري حتى أضطر الإنجليز إلى إغلاقه سنة ١٩١٤.

يقول الرافعي عن هذا النادي:" كان هذا النادي من أعظم مظاهر الحركة الوطنية وصار بمثابة معهد وطني علمي أخلاقي تكون فيه جيل من خيرة الشباب وفيه ظهرت حركة فكرية قوية انتجت على توالى السنين عدة مشروعات جليلة كان لها فضل كبير على الحركة الوطنية فقد ظهرت فيه قوة الشعبية ووحدتها، وأمتزج الطلبة بالخريجين فاكتسبوا بهذا الاتصال النضج الفكري والمعنوي، وفيه القي أعلام الفكر والعلم المحاضرات في مختلف العلوم والفنون، وفيه تأسست جمعية رعاية الأطفال وفي قاعاته اجتمعت وقتا ما لجنة إنشاء الجامعة المصرية، وفيه تأسست مدارس الشعب وفيه نشأ مشروع النقابات الزراعية على يد عمر بك لطفي "[٥٦]، إذن فهو منظمة سياسية ونقابية، ويظهر التفكير النقابي للحزب الوطني في اهتمام عمر بك لطفي بمشروع النقابات الزراعية.

وفي هذا الإطار أيضا يأتي اهتمام مصطفى كامل بتشكيل حزب سياسي منظم سنة ١٩٠٧ له لجنة إدارية عليا وتنظيمات جماهيرية وقيادية على كل مستوي، وكان مصطفى كامل قد دعا قبل ذلك عدة مرات إلى إنشاء حزب منظم يقود العمل الوطني، ويكون إطارًا للحركة الشعبية الثقافية، وقد القى مصطفى كامل بمناسبة تأسيس الحزب الوطني خطبة هامة حدد فيها مبادئ الحزب الوطني، وطريقته في الوصول إلى أهدافه، وقد حدد مصطفى كامل هدف الحزب في الجلاء، ومبادئه في الجامعة الإسلامية، ووسائله في الاعتماد

على الجماهير وحدها لتحقيق الأهداف، وفي هذا الصـــدد يقــول مصـــطفى كامل:"إن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بمجهوداتها، وأن الشعب مثل الفرد لا يكون آمنا على نفسه إلا إذا كان قويا بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع وآلات الذب من الشرف والمال والحياة "٠

ولعل هذه الكلمات تقطع بأيمان مصطفى كامل بحتمية الثورة وحتميــة الأعداد لها وحتمية الاعتماد على النفس والقوي الذاتية في هذه الأمور٠

وفي إطار كفاح الحزب الوطني ومصطفى كامل، تصدي الحزب للمخططات الإنجليزية التي تستهدف السيطرة على السودان، وأعتبر مصطفى كامــل أن السودان ومصر جسم واحد لا يعيش أحدهما بدون الآخــر، وهــو الموقــف التقليدي لكل المدارس الفكرية والسياسية في مصر بداء مــن شــريف باشــا ومرورا بمصطفى كامل، ومحمد فريد وانتهاء بمصطفى النحاس، ولم يخرج من هذا الإجماع الوطني إلا عملاء الإنجليز مــن أمثــال مصـــطفى فهمـــي وبطرس غالي اللذين وقعا اتفاقية ١٨٩٩ التي أطلقت يد الإنجليز في السودان وعملاء الأمريكان أمثال عبد الناصر الذي وقع اتفاقية فصل الســودان عــن مصر ١٩٥٦.

وقد قام مصطفى كامل بحملة صحفية وسياسية في مصـــر وخارجهــا احتجاجا على اتفاقية ١٨٩٩ ، واعتبر تلك الاتفاقية اغتيالا للحقوق القومية في رائعة النهار، وسرقة على مشهد من الأمم جمعاء [٥٧]، وأعتبر مصطفى كامل أيضًا أن الحكومة المصرية ليس لها الحق في التنازل أو استبعاد أي جزء من أجزائها لأن نصوص الفرمانات السلطانية صريحة في هذا الأمر [٥٨]٠

كان من الطبيعي أن يحدث كفاح مصطفى كامـل ونضـاله السياسـي ارتفاعًا في مستوى الوعي الوطني وتصاعدا في الكفاح الشعبي، وقد ظهر هذا الأمر جليا خاصة بعد وفاته متمثلا في الإضرابات الطلابية والعمالية، وظهور المنظمات السرية المسلحة وعمليات الاغتيال السياسي وغيرها ممـا شـهدته مصر منذ ١٩٠٨ وفي ١٩١٩، ولكن كان هناك أيضًا عددا من الانتفاضـات الشعبية حدثت في حياة مصطفى كامل ففي سنة ١٩٠٠ حصـل تمـرد فـي فرقتين بالجيش المصري بالسودان وذلك احتجاجا على القيـادة الإنجليزيـة، ويرجع هذا بالطبع إلى انتشار الروح الوطنية في الجيش وسريان روح العداء للممارسات الإنجليزية ، وقد تمت محاكمة الضباط المتهمين بالتحريض على التمرد وانتهت المحاكمة بطرد سبعة من الضباط من خدمة الجيش [٥٩].

وفي عام ١٩٠٦ أضرب جميع طلبة الحقوق احتجاجا على النظم التـي وضعها المستشار الإنجليزي لوزارة التعليم، وقد أتخذ الطلبة من جريدة اللواء منبرًا للتعبير عن مطالبهم، ونشر احتجاجاتهم، كما قام مصطفى كامل وجريدة اللواء بالدفاع عن مطالب الطلبة، وانتقدت الصحيفة قرارات وزارة المعارف التي أوعز بها اللورد كرومر واصفة إياها بأنها تؤدي إلى إبطال تعليم الحقوق في مصر.

حادثة دنشواي تكشف حقيقة الحضارة الغربية

إذا كانت الحضارة الغربية قد أرتكبت دائما الجرائم البشعة فـــي حـــق شعوب العالم عامة وحق الشعوب الإسلامية خاصة، فـــإن حادثـــة دنشـــواي جاءت كدليل جديد على حقيقة تلك الحضارة المجرمة التي لا تحمل إلا القمع والقهر والنهب، وأن كل ما تدعيه تلك الحضارة عن حقوق الإنسان ما هي إلا شقشقة لسان سرعان ما تختفي لتظهر الأيدي القـــذرة لتلـــك الحضـــارة وسلوكها الإجرامي.

وتخلص وقائع حادثة دنشواي أنه في يوم ١١ يونيه سنة ١٩٠٦ قام عدد من جنود الاحتلال برحلة لصيد الحمام في قرية دنشواي بمحافظة المنوفيـــة، وهذه أول جريمة فليس الحمام ملكا مشاعا لمن يصطاد، بل هو ملك للأهالي، وبالطبع مارس الجنود استهتارهم فأطلقوا النار على الحمام في أحد أجـــران القمح دون مراعاة وجود البشر الذين ربما يصـــيبهم هـــذا الرصـــاص ودون مراعاة إمكانية حدوث حرائق بسبب هذا الرصاص المنطلق في اتجاه أعـــواد القمح الجافة، وبالفعل أصيبت إحدى السيدات وسقطت جريحة، واشتعلت النار في جرن القمح، وكان من الطبيعي أن يهيج زوج تلك السيدة الجريحة، بل أن يحدث صياح بين أهل القرية على هؤلاء الجنود احتجاجا على جرح الســـيدة واحتراق الجرن، وبالطبع لاذ جنود الاحتلال بالفرار بعد أن أطلقوا النار على أهالي القرية فأصابوا اثنان منهما، وبسبب الحرارة الشديدة سقط أحد الجنـــود الإنجليز من جراء ضربة شمس وفارق الحياة، وحاول أحد الأهالي أن يقدم له

جرعة ماء قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة فما كان من باقي الجنود الذين أتوا إلى مكان زميلهم إلا أن قتلوا هذا الشخص، هكذا تكون إنسانية أهل الحضارة الغربية.

وعقب هذه الحادثة هاجت سلطات الاحتلال وماجت وشكلت محكمة استثنائية وأصدرت أحكامها قبل انعقادها كما نشرت ذلك الصحف الموالية للاحتلال مثل المقطم التي بشرت بالإعدام، ونشرت خبر إرسال المشانق إلى دنشواي قبل انعقاد المحكمة، وصدر الحكم في ٢٥ يونيه ١٩٠٦ بإعدام أربعة أشخاص وبالأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة على ١٢ رجلا وبجلد خمسة أشخاص كل منهم خمسين جلدة، وقد تم تنفيذ حكم الإعدام والجلد على مرأى من أهل القرية، وبطريقة بشعة ولا إنسانية .

ولعل إجراءات المحاكمة والأحكام التي صدرت وطريقة تنفيذها تكشف زيف دعاوى الحضارة الأوروبية عن حقوق الإنسان، والرافعي نفسه يصف المحاكمة بأنها مخالفة لمنهج التحقيق والمحاكمة التي تقول بها أصول المحاكمات الجنائية ".

والحقيقة إن كل وقائع المحاكمة تدل على إهدار كل الحقوق المعروفة والمعترف بها حتى من الإنجليز أنفسهم، ومع ذلك داسوا تلك الحقوق وضربوا بها عرض الحائط، فالمحكمة أولا استثنائية، ثم هي تجتمع وتصدر حكمها في ثلاثة أيام فقط وهي أيضًا مشكلة من الإنجليز أساسًا والقضاة يهددون الشهود، بل وتهدر شهادة الدكتور قولن وهو طبيب شرعي إنجليزي، وترفض سماع أقوال أحد رجال البوليس، ولم تسمح لـ ٥٠ متهما بالكلام حيث خصصت لهم جميعًا ثلاثين دقيقة، أي كل منهم ٠,٦ دقيقة أو ٣٦ ثانية.

كما أن أحكامها كانت مبيته فصحيفة المقطم الموالية للاحتلال تنشر قبل انعقاد المحاكمة خبرًا يقول أنه قد تم إرسال المشانق إلى دنشواي، وأكثر من هذا أن الحكم القاسي وغير العادل ينفذ بطريقة وحشية وسط صـراخ أهـالي المحكوم عليهم وذويهم.

وهل كان مصطفى كامل قد أصاب كبد الحقيقة حينما قـال:"إن حادثـة دنشواي تكفي وحدها لأن تسقط إلى الأبد تلك المدنية الأوروبية فـي أعـين العالم كافة " [٦٠] ؟.

ولعل موقف اللورد جراي وزير الخارجية الإنجليزي من هذه المسـألة يشرح الموقف كله فقد قال في مجلس النواب البريطاني:" أرجوكم لا تنشغلوا بمسائل مصر ولا تبحثوا في حادثة دنشواي لأن مصر بها تعصب إسلامي ".

إذن فما دام هناك مسلمون وإسلام في مصر " هو بلغة أوروبا متعصب إسلامي " إذا فلا حديث عن حقوق إنسان ولا عن قانون دولي ولا عدل، ولا أي شيء؛ لأن هذه الأشياء ليست إلا للإنسان الأوروبي وهي ليست بالتحديـد للإنسان المسلم، هذه هي حقيقة الحضارة الأوروبية التي تحقد كل الحقد على الإسلام والمسلمين، ولا تراعي فيهم إلا القهر والنهب والمشانق تحت السـتار التقليدي المزعوم المسمى " التعصب الإسلامي ".

هوامش

(١) الرافعي، مصطفى كامل دار المعارف.

(٢) الرافعي مرجع سابق.

(٣) الأستاذ عدد ١٧ يناير ١٨٩٣٠

(٤) مصطفى كامل، المسألة الشرقية ص ٤٠

(٥) نفس المرجع ص ٥٠

(٦) نفس المرجع ص ١٣٠

(٧) نفس المرجع ص ١٣ ـ ١٤٠

(٨) نفس المرجع ص ٢٣٠

(٩) نفس المرجع ص ٨، ٩٠

(١٠) نفس المرجع ص ١٩، ٢٠٠

(١١) محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية.

(١٢) من أجابه مصطفى كامل على الأميرلاي بارنج حين لقيه في لندن سنة ١٨٩٥، نقلا عن محمد محمد حسين، اتجاهات وطنية في الأدب المعاصر ص ٤٧، جـ ١٠

(١٣) الرافعي، مصطفى كامل، دار المعارف ص ١٠٧

(١٤) الرافعي، مصطفى كامل، دار المعارف ص ٧٦

(١٥) الرافعي، مصطفى كامل، دار المعارف ص ٨٧

(١٦) الرافعي، مصطفى كامل، دار المعارف ص ٨٧

(١٧) الرافعي، مصطفى كامل، دار المعارف ص ٩٣

(١٨) الرافعي، مصطفى كامل، دار المعارف ص ١٠٤

(١٩) محمد محمد حسين، مرجع سابق ص ٦٥ جـ ١، الطبعة الثالثة، مكتب الآداب ١٩٨٠

(٢٠) اللواء، ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧

(٢١) اللواء، ٢٧ مايو سنة ١٩٠٧

(٢٢) من خطبة مصطفى كامل في ٢١ سنة ١٩٠٢

(٢٣) نفس الخطبة

(٢٤) من خطبة مصطفى كامل في ٢١ مايو سنة ١٩٠٢

(٢٥) من خطبة مصطفى كامل بالإسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧

(٢٦) نفس الخطبـــــة

(٢٧) نفس الخطبـــــة

(٢٨) نفس الخطبـــــة

(٢٩) نفس الخطبـــــة

(٣٠) نفس الخطبـــــة

(٣١) نفس الخطبـــــة

(٣٢) نفس الخطبـــــة

(٣٣) من حديث مصطفى كامل إلى صحيفة " الطان " الفرنسية عدد ٨ سبتمبر ١٩٠٩

(٣٤) الرافعي، مصطفى كامل، دار المعارف ص ٤٣١

(٣٥) مذكرات عباس حلمي الثاني، جريدة المصري ١٩٥١

(٣٦) في كلمة الأستاذ محمود العمري في تأبين مصطفى كامل، بمناسب رفع الستار عن تمثال مصطفى كامل في ١٤ مايو سنة ١٩٤٠

(٣٧) من خطبة مصطفى كامل في الإسكندرية ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧

(٣٨) نفس الخطبـــــة

(٣٩) نفس الخطبـــــة

(٤٠) نفس الخطبـــــة

(٤١) نفس الخطبـــــة

(٤٢) نفس الخطبـــــة

(٤٣) نقلا عن عطية الشافعي، تطور الحركة الوطنية المصرية، الطبعة الأولي ١٩٥٧

(٤٤) روزنشتين، مرجع سابق

(٤٥) كرومر، مرجع سابق

(٤٦) نقلا عن شهدي عطية الشافعي، مرجع سابق

(٤٧) رشدي صالح، مرجع سابق

(٤٨) الرافعي، مرجع سابــــق

(٤٩) الرافعي، مرجع سابــــق

(٥٠) الرافعي، مرجع سابــــق

(٥١) اللواء، أكتوبر ١٩٠٠

(٥٢) المؤيد ٣٠ يوليو ١٨٩٥

(٥٣) الرافعي، مرجع سابــــق

(٥٤) المؤيد، ١ يناير ١٨٩٩

(٥٥) من خطبة مصطفى كامل، ٢٧ فبراير ١٩٠٢

(٥٦) الرافعي، مرجع سابــــق

(٥٧) من خطاب مصطفى كامل المنشور في صحيفة الجولدا الباريسية بتاريخ ٦ فبراير ١٨٩٩

(٥٨) نفس الخطاب

(٥٩) الرافعي، مرجع سابــــق

(٦٠) الرافعي، مرجع سابــــق

(٦١) من رسالة مصطفى كامل بعنوان:"إلى العالم المتحد ".

الحزب الوطني والنضـــال الســـري

خفق قلب مصر عندما توفي مصطفي كامل وخرجت مصر كلها فـــي وداعه كتعبير عن الحب والعرفان لرجل قدم حياته فداء لمصر، وكتعبير عن التمسك بقضية الجلاء، والتقط الراية بعد مصطفي كامل زميل كفاحه والرجل الثاني في الحزب الوطني الزعيم الفذ محمد فريد، واستمرت حركـــة الكفـــاح الشعبي، بل وتصاعدت لأنها حركة شعب بأسره وليست حركة فـــرد مهمـــا كانت عبقريته تسقط بموته أو غيابه، تسلم محمد فريد الراية إذن سنة ١٩٠٨، ولم يكن محمد فريد إلا امتدادا عضويا لمصطفي كامل، ألم يكن شريكه فـــي الكفاح منذ اللحظة الأولي، ألم يكن هو الذي وضع معه معـــالم هـــذا الكفـــاح وغاياته وأساليبه؟.

جاء محمد فريد كقائد لحركة الكفاح الشعبي في مصـــر فـــي ظـــروف صعبة ومتميزة وكانت سلطات الاحتلال الإنجليزي تحاول بأســـاليب متعـــددة القضاء على حركة الكفاح الشعبي أو الالتفاف عليها وتطويقها، حاولت تلـــك السلطة وحاول المرتبطون بها نشر حالة من اليأس والإحبـــاط فـــي أوســـاط الشعب المصري خاصة عقب الاتفاق الودي مع فرنسا سنة ١٩٠٤، ونجحت حملة اليأس في استقطاب الخديوي وعدد من الوزراء والأعيان وكبار القوم إلي جانب الإنجليز، ونفضوا أيديهم من الحركة الوطنية، ولكن عموم الشعب المسلم في مصر لم يتأثر بتلك الحملة، بل زادته إصرارًا على الكفاح، بل إنها ساهمت في بلورة الإيمان بالاعتماد على الذات في الكفاح الوطني، وخرجت الحركة الوطنية أكثر قوة بعد ١٩٠٤ بعد أن نفضت عن كاهلهـــا تـــداعيات

الاهتمام بالدعم الفرنسي أو الأوروبي أو التحالف مع الخديوي، بل نفضت عن كاهلها هؤلاء المترددين ودعاة أنصاف الحلـول مـن الـوزراء والأعيـان والوجهاء، وبدأ التلاحم الرائع بين قيادة الحركة الوطنية وبين عموم الشـعب المكافح، العمال والفلاحين والطلاب وصغار الموظفين والحرفيين.

حاولت سلطات الاحتلال أن تحدث الخوف والهلع في صفوف الشـعب المصري عن طريق الممارسات الوحشية في حادثة دنشواي، ولكـن وعـي الحركة الوطنية قلب السحر على الساحر، فإذا بتلك الحادثـة تزيـد وعـي الجماهير بأهمية الاستقلال فتلتف جموع الشعب حول الحركة الوطنية.

وإذا كان اليأس والقمع لم ينجحا في القضاء على الحركة الوطنية، فإن الإنجليز لجئوا إلى أسلوب التطويق فقاموا بدعم وإنشاء حـزب يـدعو إلـى التعاون معهم ومهادنتهم، وهو حزب الأمة الذي ضم كبار مـلاك الأراضـي وعدد من الوجهاء والأعيان على أساس أن يكون هذا الحزب مدعاة لتفريـق الأمة بين الحزب الوطني وبين حزب الأمة، وعلى أساس تنسيق جهود هؤلاء الذين نفضوا أيديهم من الحركة الوطنية، أي محاولة لشق صـفوف الشـعب، واستقطاب جزء من الشارع السياسي لصالح الإنجليز على حساب الحزب الوطني، وقام الإنجليز بتغيير المعتمد البريطاني في مصر " اللورد كرومر " بمعتمـد آخر هو المستر جور ست على أساس تنفيس الغضب الشعبي، ومحاولة تهدئة ثورة الجماهير الناقمة والغاضبة بعد حادثة دنشواي، وقام المعتمـد الجديـد بالاستجابة لمطلب الإفراج عن مسجوني حادث دنشـواي وذلـك لتهدئـة خواطر الشعب والتقليل من التفافه حول الحزب الوطني ودعم حجة القـائلين بالتعاون مع الاحتلال أو مهادنته.

قام الإنجليز من جانب آخر بالتضييق على الحزب الوطني وعلى حرية الصحافة فاستخدموا قانون المطبوعات في مصـــادرة الصـــحف الوطنيـــة أو مطاردة الصحفيين الوطنيين أو تلفيق التهم لهم وإدخالهم السجن مرارا وتكرارًا٠

على أن أخطر المخططات الاستعمارية كانـــت محاولـــة زرع الفـــتن الطائفية في الواقع المصري واستخدام عدد من الأقباط الذين باعوا أنفسهم في العزف على نغمة حقوق الأقليات والتعصب الإسلامي وغيرها من النغمـــات المعروفة وذلك بهدف الالتفاف على الحزب الوطني وتمييع قضـــية الجـــلاء وتصعيد قضايا جانبين تثير الفرقة وتضيع الوقت وقد كانت سنة ١٩١٠، هـــي الذروة في هذا المجال حيث تم عقد ما يسمي بالمؤتمر القبطي فـــي مواجهـــة ذلك كله كان كفاح الحزب الوطني، وكفاح محمد فريد٠

محمد فريـــــــــد

محمد فريد نموذج فذ للمسلم المجاهد، ذلك المسلم الذي يكافح الاحـتلال ويدعو إلى الجامعة الإسلامية، ويحرص على وحدة العالم الإسـلامي ويهـتم بشئون المسلمين في كل مكان، ذلك المسلم الذي ينطلق من وعي عميق وفهم دقيق للإسلام فيقف مع المستضعفين ويدعم الفلاحين والعمال، بـل يحـرص على إنشاء النقابات، بل يعد رائدًا من رواد الحركة النقابية في العـالم كلـه، والرائد الأول في مصر، وكذلك اهتمامه المبكـر بالحركـة التعاونيـة، بـل يحرص على دعم وحدة المسلمين والأقباط في مصر على قاعدة الانتماء إلى الإسلام كحضارة وكثقافة وكوطن في مواجهة دعاة الفرقة والانقسام الذين كان الاحتلال الإنجليزي يحركهم ويستخدمهم لتحقيق مآربه.

محمد فريد رمز للإسلام والوطنية والإخلاص، وهـو إنسـان يتمتـع بأخلاق عظيمة وتضحية نادرة، ضحي بالمناصب في جميع مسـتوياتها مـن أجل مصر بداءً من النيابة والقضاء وانتهاء بالوزارة التي رفضها أكثر مـن مرة، وضحي بماله وهو الغني الموفور المال والجاه، فانفق هذا المـال عـن آخره على الحركة الوطنية حتى مات فقيرًا منفيًا لا يجد ثمن الدواء (ورث محمد فريد عن والده أكثر من ٣٠٠ فدان وعددًا من العمـارات والعقـارات وأراضي البناء) ، كما ضحي محمد فريد بصحته وفضل أن يموت في المنفي على الاتفاق مع الإنجليز أو مهادنتهم أو ترك راية الكفاح في مقابل السـماح بعودته إلى مصر كما نصحه الأطباء لأن صحته لم تحتمل الأجواء الباردة.

التحق محمد فريد بالحركة الوطنية مبكرًا في سنة ١٨٩٣ وأتصل بمصطفي كامل، وأصبح من يومها الرجل الثاني في الحركة الوطنية الإسلامية في مصر، وبالتالي فإن جهاد الحزب الوطني في فترة مصطفي كامل كان جهاد مصطفي كامل ومحمد فريد وغيرهما من رجال الحزب الوطني، أي أن محمد فريد شارك وساهم في ذلك الجهاد بدرجة كبيرة جدًا وهو أيضًا مسئول مسئولية مباشرة عن ذلك الكفاح، وذلك النضال وتلك المبادئ التي سادت تلك الفترة من عمر الحركة الوطنية المصرية.

وهكذا فإن مبادئ مصطفي كامل في الدعوة إلى الجلاء والجامعة الإسلامية هي ذاتها مبادئ محمد فريد ولكنه أضاف إليها بعد موت مصطفي كامل أبعادًا جديدة فاهتم بوحدة وادي النيل أكثر من ذي قبل، كما أهتم بقضايا الدفاع عن الفقراء والمستضعفين بصورة أكثر شمولا وأرسي معالم الحركة النقابية والتعاونية.

يقول الرافعي في هذا الصدد:" وأتصل محمد فريد منذ سنة ١٨٩٣ بالمرحوم مصطفي كامل لاتفاقهما في الميول والمبادئ الوطنية، وتوثقت عري الصداقة بينهما على مر السنين، فصار محمد فريد زميل مصطفي كامل المخلص وصديقه الوفي وعنصره الأكبر في بعث الحركة الوطنية، لازمه حياته وقد صحبه في كثير من رحلاته وناب عنه خلال صيف ١٩٠٧ في الأشراف على اللواء حينما سافر مصطفي كامل إلى أوروبا، وكان يراه خير خليفة له في قيادة الحركة الوطنية فاختاره وكيلا للحزب الوطني في أول جمعية عمومية له وأوصي بانتخابه رئيسًا من بعده " (١).

ويقول الرافعي أيضا:" كانت سياسة محمد فريد الوطنية استمرارا لسياسة مصطفي كامل ولا غرو فقد وضعا معًا قواعدها وجاهدا معا في سبيلها " [٢].

محمد فريد يصلح لأن يكون نموذجًا متكاملا للحركة الإسلامية الوطنية في مصر، أمس واليوم وربما غدًا، ذلك أن إسلامية محمد فريد كانت إسلامية عميقة وشاملة وفذة، فهي إسلامية النضال ضد الاستعمار والتبعية، وإسلامية المطالبة بالدستور والحريات السياسية، وإسلامية الانحياز إلى الفقراء والمستضعفين، وإسلامية العمل النقابي والتعاوني، ومع كل هذا هي إسلامية الاهتمام بالجامعة الإسلامية والوحدة الإسلامية.

فعلى مستوي الاهتمام بالوحدة الإسلامية والجامعة الإسلامية، نجد أن محمد فريد قد شارك مصطفي كامل في وضع مبادئ الحزب الوطني والدعوة إليها، وبالتالي فهو يؤمن بكل ما قاله مصطفي كامل في هذا الإطار وما بذله الحزب الوطني في حياة مصطفي كامل من جهد في سبيل دعم الوحدة الإسلامية وقضايا العالم الإسلامي، وبالإضافة إلى ذلك نجد أن محمد فريد قد عمق هذا المفهوم وزاد في عملية الكفاح في هذا الإطار في حياة مصطفي كامل وبعد وفاته على حد سواء، فقد ألف محمد فريد كتابًا في تاريخ الدولة العلية العثمانية ظهر سنة ١٨٩٦، قال في مقدمته:" أن الملك العثماني قد لم شعث الولايات الإسلامية، وأن أوروبا المختلفة قد اتفقت علي محاربة تلك الدولة، وأنه لما كانت الخلافة العثمانية هي الحامية لبيضة الإسلام فإن من الواجب خدمة للحقيقة ونفعًا لأبناء البلاد أن أدون هذا التاريخ ".

وقد طبع محمد فريد الكتاب نفسه مرتين بعد ذلك سنة ١٨٩٦ وسنة ١٩١٢، ولم يغير شيئًا.

يقول الرافعي في هذا الصدد:" وسياسة محمد فريد الإسلامية هي سياسة مصطفي كامل فقد عمل على توثيق عري التعاون والتضامن بين الأمم الشرقية، وكان يدعو إلى هذه الغاية في مقالاته وخطبه وأحاديثه، وأنشأ وهو في منفاه في سويسرا جمعية ترقي الإسلام وأنشأ لها مجلة باللغة الفرنسية " (٣).

ويضيف الرافعي:" وكان محمد فريد يحرص على توثيق علاقة مصر بتركيا لكي يحبط مساعي السياسة الإنجليزية التي كانت ترمي إلى حمل الحكومة التركية بمختلف الوسائل على الاعتراف بمركز الاحتلال البريطاني في مصر والتنازل لإنجلترا عن سيادتها الاسمية " (٤).

وعن تأسيس جمعية ترقي الإسلام ومجلتها في فبراير سنة ١٩١٣ يقول الرافعي:" وفي أثناء مقام محمد فريد بالمنفي في جنيف تعرف ببعض الشرقيين النازلين بها من أمراء الأمم الشرقية، ودعا نحو خمسة عشر منهم إلى وليمة أقامها لهم يوم- ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٢، فلبوا دعوته، وأقترح عليهم تأسيس جمعية باسم جمعية ترقي الإسلام فقابلوا الاقتراح بالتأييد والارتياح، وتأسست الجمعية فعلاً، ولقد كان الفقيد دعامتها واكبر مؤسسيها، وهوا لذي وضع لها لائحة تتضمن أغراضها ونظامها وكان اكبر عضد له فيها ميرزا سعيد بك أحد أركانها، وتتلخص الغاية التي ينشدها في تقوية روابط التضامن بين الأمم الإسلامية، وبعث روح النهضة الفكرية والاقتصادية فيها، واتخذت الجمعية جنيف مقرًا لها، وأصدرت مجلة باللغة الفرنسية باسم مجلة جمعية ترقي الإسلام، ومن أغراضها أنها تبحث في أحوال الشرق والعالم الإسلامي، وفي شئون الأمم والممالك الشرقية وتدافع عن مصالحها وتبث روح النهوض والحياة فيها " (٥).

وعندما نشبت الحرب الطرابلسية سنة١٩١١ وجدنا الحـزب الـوطني يؤلف الجمعيات ويدعو إلى الاكتتاب لمساعدة الجيش العثماني في الدفاع عن ليبيا أمام الغزو الإيطالي، بل ويقوم بعض المصريين بالتطوع للقتال دفاعًـا عن ليبيا، ثم معارضة الإنجليز وذلك اسـتجابة لنـداءات الحـزب الـوطني وتحريض صحيفة اللواء، كما أقيمت الأسواق الخيريـة لجمـع التبرعـات، وأرسلت البعوث الطبية، وكان محمد فريد زعيم الحزب الوطني فـي ذلـك الوقت يلعب دورًا هامًا في هذا الصدد [٦].

على أنه وبالرغم من حماس محمد فريد لتركيا وهو في الأصل تركـي جاء جده إلى مصر مع الفتح العثماني لمصر ١٥١٦ واستقر بها مـن ذلـك الوقت [٧]، إلا أنه حماسه ذلك كان نابعًا من الإسلام والمحافظة علـى وحـدة المسلمين، والخلافة العثمانية باعتبارها حامية بيضة الإسلام، فلما رأي محمد فريد أن الاتحاديين قد وصلوا إلى السلطة في تركيا، وأنهم يعملون من أجل القومية التركية لا الجامعة الإسلامية بل أنهم يعملون لإلغاء الخلافة الإسلامية ويعادون الشعور الإسلامي، لما رأي محمد فريد ذلك وقف موقفًـا إسـلامية عظيمًا، وهو الدعوة إلى استقلال مصر عن إنجلترا وعن تركيا أيضًا، فـإذا كان الإسلام يجمع بين تركيا ومصر، فانه بغياب جامعة الإسـلام ووصـول الاتحاديين إلى الحكم فليس هناك ما يربط بين مصر وتركيا، وقد عبر الزعيم محمد فريد بذلك الموقف عن أن مبادئه كانت إسلامية ولم تكن تركية رغم أنه تركي الأصل، وهكذا فإن موقف محمد فريد سنة ١٩١٥ هو عين موقفه قبـل ذلك وبعد ذلك، وهو أن الجامعة الإسلامية هي التي تجمع مصر بتركيا، وأن الحماس لتركيا كان من أجل الإسلام، فإذا جاء الاتحاديون ونحـوا الإسـلام

جانبًا في تركيا فلا مبرر لاستمرار الحماس لتركيا ولا مبرر للدعوة لربط مصر بتركيا، وهذا يدل على وعي إسلامي وإخلاص إسلامي عظيم.

على أن إسلامية محمد فريد كانت من الشمول والوعي، بحيث أنه أدرك أن الحضارة الغربية لا تعتد بحقوق الشعوب الإسلامية، بل إن أوروبا لا تفتأ تدوس على تلك الحقوق في حين أنها تضر الدول الأوروبية الصغيرة، فيقول محمد فريد في مذكراته إلى الدول المتحاربة والمحايدة "الأوروبية" في ١٠ أكتوبر سنة ١٩١٧:" حقًا أنه لمن المدهش ألا يكون في المذكرات الرسمية المتبادلة بين الدول الأوروبية المتحاربة، ولا في مذكرة البابا أي كلمة تختص بمصر أو غيرها من المستعمرات التابعة لإنجلترا ولغيرها من الدول، فهل الحقوق الإنسانية قسمان، أم أن الحق الأوروبي لا يستحقه غير الشعوب الأوروبية الصغيرة ؟! " (٨).

وهو نفس رأي مصطفي كامل في المدنية الأوروبية فهو القائل:" من سوء حظ النوع البشري أن المدنية الأوروبية أبطلت الرق في الأفراد وأعلنته في الشعوب، واستهجنت مخالفة الذمة والشرف في المعاملات الشخصية، وسمحت بها في المعاملات الدولية (٩).

وانطلاقا من وعي الإسلام، انحاز محمد فريد إلى الفقراء والمستضعفين وأهتم بنشر العلم والتعليم، فكان يدعو دائمًا إلى تعميم التعليم الابتدائي وجعله إلزاميًا ومجانيا لكل مصري ومصرية (١٠)، وكان من الأعضاء المؤسسين للجمعية الخيرية الإسلامية التي ساهمت في نشر التعليم الابتدائي في مصر وظل عضوًا في مجلس إداراتها خمس عشرة سنة، كما سعي إلى تأسيس مدارس الشعب الليلية لتعليم الصناع والعمال ومن إليهم مجانا، وأسس فعلا

عددًا من المدارس في العاصمة والبنادر، وتطوع فيها أنصار الحزب الوطني لإلقاء الدروس فيها كل ليلة، وفي التعليم الثانوي كان يدعو إلى إنشاء مدرسة ثانوية في عاصمة كل مديرية، وعلى مستوي التعليم العالي ساهم في فكـــرة الجامعة المصرية التي ظهرت سنة ١٩٠٦، وكان من أعضاء أول اجتمـــاع عقـــد لتأسيسها واكتتب بمائتي جنيه وبمثل هذا المبلغ سنويًا تبرعًا للجامعة المصرية[١١].

وكان يدعو دائمًا إلى تعديل الميزانية للأنفاق على إصلاح حالة الشعب ورخائه والعناية بالصحة العامة، وبالأحياء الوطنية الشعبية، ودعا إلى تعديل الضرائب والعدل في فرضها وتخفيف ما يثقل كاهل الفلاحين منها، وتعـــديل الرسوم الجمركية ودعوته إلى وضع تشريع للعمال يراعي مصالحهم، ويرفع عنهم البؤس والجهل والإرهاق، كما عني بإنشاء النقابات للعمـــال والصـــناع ويعتبر محمد فريد هو رائد العمل النقابي في مصر وأحد رواد العمل النقابي في العالم بأسره كما وجه تلاميذه إلى بذل الجهود لإنشاء الحركـــة التعاونيـــة وقدم لها الكثير من الدعم [١٢].

كما أهتم محمد فريد بالمشاركة في المؤتمرات الدولية الاشتراكية وكان يحضرها بنفسه أو يوفد أليها عددا من أعضاء الحزب الوطني أو يرسل أليها الرسائل والخطب التي تؤكد تمسكه بالعدالة الاجتماعية انطلاقا من الإسلام.

وفي الحقيقة فإن وعي محمد فريد بهذه المسألة تؤكد صـــلاحية النظـــام الإسلامي كفلسفة وأسلوب لبناء مجتمع لا طبقي يحقق أكبر قدر من المساواة والعدالة بين أبناء هذا العالم ولو كانت الحركة الاشتراكية الدولية قد التفتـــت إلى القيم العظمي والمناهج العبقرية التي قدمها الإسلام فـــي إطـــار منهجـــه المتكامل للحياة – للعدالة الاجتماعية والمساواة لكان وجه التاريخ قد تغيـــر –

ولكانت قضية العدالة قد فانتصرت ولكانت قد وفرت الآلام والشقاء الذي عاناه العالم من خلال الأنظمة الاشتراكية القائمة على الفلسفات الملحدة كالماركسية أو الخيالية كالطوباوية، ولكانت قضية العدالة الاجتماعية قد حشدت خلفها كل المسلمين والمستضعفين في العالم في مواجهة الرأسمالية البشعة، ولما استطاعت الدوائر الرأسمالية أن تنتصر على الاشتراكية كما حدث الآن في نهاية الثمانينات وأوائل التسعينات عندما انهارت النظم الاشتراكية تباعا.

وفي الواقع فإن مفهوم محمد فريد والحزب الوطني لقضية العدالة الاجتماعية في الإسلام، وصلاحية هذه المبادئ وقدرتها الحيوية ينطلق من تراث إسلامي من خلال نصوص القرآن والسنة، ومن خلال النماذج التطبيقية التي قدمها الصحابة رضوان الله عليهم ومن خلال مواقف وأفكار زعماء الحركة الإسلامية المعاصرة مثل الأفغاني والنديم، وفي الحقيقة أيضًا أن هذه المبادئ مازالت صالحة اليوم وغدًا بأذن الله لتكون قاعدة لنضال الشعوب المستضعفة والطبقات المستضعفة في مواجهة النظام الرأسمالي الدولي البشع الذي يسود الدنيا الآن، وخاصة بعد انهيار الماركسية.

الشـــــيخ عبد العزيز جاويش

هو من الشخصيات الهامة التي لعبت دورًا في الحياة الوطنية المصرية من خلال الحزب الوطني، بل يعد الرجل الثاني في الحزب بعد محمد فريد خاصة في الفترة من ١٩٠٨ إلى ١٩١٢ وهي الفترة التي تولي فيها الشيخ عبد العزيز جاويش رئاسة تحرير جريدة اللواء الناطقة بلسان الحزب الوطني، وهو منصب هام ولاشك ويعبر ثقة الحركة الوطنية في مصر في الشيخ عبد العزيز جاويش ويعبر أيضًا عن مدي وطنية وإخلاص الشيخ عبد العزيز جاويش للحركة الوطنية في مصر ومبادئها الراسخة كالجامعة الإسلامية والجلاء ووحدة وادي النيل، والدستور والدفاع عن المستضعفين.

ولاشك أن الجهد الكبير الذي بذله الشيخ عبد العزيز جاويش وما لاقاه من صعوبات، وما قدمه من تضحيات في سبيل الحركة الوطنية في مصر، وكذلك ثقة تلك الحركة وزعيمها محمد فريد في الشيخ عبد العزيز جاويش لدرجة إسناد منصب رئيس تحرير جريدة الحزب الرسمية إليه إنما يعبر عن روح الجامعة الإسلامية والعالمية الإسلامية أيما تعبير، حيث الشيخ عبد العزيز جاويش تونسي الأصل، ولكن الواجب الإسلامي الذي يرفض القوميات والحدود بين المسلمين هو الذي دفع الشيخ عبد العزيز جاويش إلى تلك الجهود والتضحيات، وهو أيضًا الذي جعل الحركة الوطنية في مصر بقيادة محمد فريد تقدم هذا الرجل التونسي ليكون معبرًا عنها ورئيسًا لتحرير جريدتها الرسمية.

"وكان محمد فريد قد تعرف بالشيخ عبد العزيز جـاويش فـي مـؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥، وعرفه بمصطفي كامل سنة ١٩٠٦ بباريس فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية والإسلامية " (١٣).

ومن سنة ١٩٠٥ أنخرط الشيخ عبد العزيز جاويش في الحركة الوطنية في مصر برغم أنه تونسي الأصل لأن الدفاع عن قضايا المسلمين والإسـلام أمر لا يتجزأ، وقد أسند إليه محمد فريد رئاسة تحرير جريـدة اللـواء سـنة ١٩٠٨ وأستمر يعطي في ذلك الموقع عطاءًا وطنيًا متميزًا حتى سنة ١٩١٢، حيث تم نفيه إلى الأستانة.

وقد تمت محاكمة الشيخ عبد العزيز جاويش عدة مرات بسبب مواقفـه الوطنية وحماسه الشديد للقضايا الوطنية في مصر والسودان، فقد حوكم فـي يوليه ــ أغسطس سنة ١٩٠٨ بتهمة إهانـة وزارة الحربيـة لنشـر قضـية "الكاملين" التي دافع فيها الجاويش عن أهالي بلدة الكاملين بالسـودان بقيـادة الشيخ عبد القادر وأتهم الحكومة بأحداث مذبحة مثل مذبحة دنشواي في بلـدة الكاملين بالسودان وأنها أعدمت ٧٠ رجلا، وحكمت بالسجن المؤبد على ١٣ آخرين، وقد قضت المحكمة التي نظرت القضية ببراءة الشيخ عبـد العزيـز جاويش من التهم الموجهة إليه.

كما حوكم للمرة الثانية في يونيو ــ أغسطس ١٩٠٩، وذلك لنشر مقالة عن ذكري حادثة دنشواي وقد قضت المحكمة بحبس الشـيخ عبـد العزيـز جاويش ثلاثة اشهر قضاها الرجل صامدًا محتسبًا.

أما المرة الثالثة، فقد كانت سنة ١٩١١، وذلك بسبب كتابة مقدمة كتاب وطنيتي الذي ألفه الشيخ على الغاياتي، وهو أحد محرري جريدة اللواء وأحد

مناضلي الحركة الوطنية في ذلك الوقت، وقد صدر الحكم على الشـــيخ عبـــد العزيز جاويش بالحبس ثلاثة أشهر أخرى قضـــاها الرجـــل أيضًـــا صـــابرًا محتسبًا، وقد صدر حكم بالحبس على محمد فريد ستة أشهر أيضًا في نفـــس القضية، قضاها محمد فريد بعد عودته من أوروبا.

عمر بك لطـــفـــــي

هو أحد أبناء الحزب الوطني ن ومن أهم الشخصيات في تاريخ مصـــر المعاصر، وهو رائد الحركة التعاونية المصرية، وقد ظهرت فكرة التعاون في مصر على يد هذا الرجل العظيم، وقد نادي بتلك الفكرة مـــن خـــلال نـــادي المدارس العليا الذي كان رئيسًا له، فقد القي عمر بك لطفي أو محاضرة لـــه عن التعاون يوم الأول من نوفمبر سنة ١٩٠٨ في نادي المدارس العليا شرح فيها مزايا التعاون وأهميته لمصر لأنه وحده الكفيل بالقضاء على أفة الربـــا الماحقة [١٤] على حد قوله في تلك الخطبة.

وفي الحقيقة فإن قراءة الخطب والمحاضرات التي شرح فيها عمر بـــك لطفي فكرة التعاون وأهميتها نجد أنه تناول الأفكار الآتية:" أن التعـــاون هـــو الكفيل بإنقاذ البلاد من آفة الربا الماحقة " [١٦]:" يعتقد بعض الناس أن تفريج الأزمة المالية لا يكون ألا بجلب رؤوس الأموال من البلاد الأجنبيـــة، وهـــذا خطأ كبير " [١٧]:" وعندي أن أساس الاستقلال والحرية في كـــل أمـــة هـــو الاستقلال الاقتصادي " [١٨]:" علينا أن نوجه مجهوداتنا كافة لتقويـــة وتنميـــة مصادر الثروة المصرية الحقيقية " [١٩].

ولعل تلك المفاهيم والأقوال التي نادي بها عمـــر بـــك لطفـــي تعكـــس الاهتمام المبكر للحركة الوطنية المصرية لقضـــية الاســـتقلال الاقتصـــادي، وقضية بناء نمط اقتصادي مستقل وغير تابع ومستمد من الإسلام، فعمر بـــك لطفي يدعوا بالتحديد إلى رفض الديون الأجنبية، والاعتماد على الذات وتنمية ثرواتنا، ويدرك أن أساس الاستقلال هو الاستقلال الاقتصادي، ويـــدعو إلـــى

التعاون للقضاء على آفة الربا، ولتحقيق النهضة الاقتصادية المستقلة، أي نمط اقتصادي مستقل وغير تابع ومستمد من الإسلام.

وقد استمرت الحركة التعاونية بعد وفاة عمر بك لطفي على يد تلاميذه من أعضاء الحزب الوطني وفي مقدمتهم أحمد بك لطفي " شقيقه " فتأسست العديد من شركات التعاون والنقابات، وانتشرت أفكاره التعاونية، فقد تأسست النقابة العامة لتعاون المنزلي والزراعي سنة ١٩١٢، ثم توالى تأسيس النقابات العمالية والزراعية والتعاونية، وصدور التشريعات الحكومية بذلك تحت الضغط الشعبي، ألا أنها اشتملت على كثير من العيوب التي كبلتها بها الحكومة خوفًا من تصاعد المد الشعبي والوطني من خلال الحركة التعاونية والنقابية، وأنتهي الأمر بصدور عددًا من القوانين التي جعلت التعاون حكوميًا بحتًا مما جعل الأمر أشبه بالجثة الميتة أو مجرد هيئة تتبع الحكومة، وتتحرك من خلال الأوامر الحكومية مما أفقدها مضمونها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي" مثل قانون ١٩٢٣، وقانون ١٩٢٧، وقانون ١٩٥٤، وقانون ١٩٦١ ".

الحزب الوطني والنضال السري

وبجانب الكفاح العلني للحزب الوطني ضد الاحتلال والخديوي، كان هناك هامشًا كبيرًا من النضال السري، وكانت هناك العديد من المنظمات السرية المسلحة بعضها كان امتدادًا لخلايا ثورة ١٨٨١ والبعض الآخر استحدثته الحركة الوطنية وخاصة محمد فريد.

فعقب هزيمة الثورة العرابية، بسبب القمع السلطوي من جانب الإنجليز والخديوي لجأت الخلايا الثورية التي لم تطالها يد البطش إلى العمل السري،

فتأسست "جمعية الحزب الوطني السرية" وضمت هذه الجمعية عددًا من الذين شاركوا مشاركة فعلية في أحداث الثورة مثل لطيف سليم وحسن عاصم، وحسن عبد الرازق، ومحمود سالم، وعلى فخري وغيرهم، ولكن الملاحظ أن تلك الجمعية ظلت طوال عهد الخديوي توفيق دون نشاط، حيث كانت الاجتماعات سرية تتناول المناقشة في الأحوال السياسية التي آلت إليها البلاد [٢٠].

وقد تمكن لطيف سليم من تنظيم وتوسيع قاعدة هذه الجمعية تضم أعدادًا جديدة من الشباب إليها عام ١٨٩٣، مثل مصطفي كامل ومحمد فريد ومحمود أنيس ومحمد خلوصي وأحمد الصوفاني وعبد اللطيف الصوفاني [٢١].

ومن خلال تلك الجمعية تم الاتصال بين عبد الله النديم، ومصطفي كامل حيث تعلم مصطفي كامل على يد النديم في منزل لطيف سليم، درس الوطنية وخبرات الثورة العرابية وأسباب فشلها.

وأهتم مصطفي كامل بعد انضمامه إلى تلك الجمعية السرية بضم عناصر عسكرية إليها، حيث أنه رحب بدخول ضباط الجيش في جمعية الحزب الوطني دخولاً خافيًا.

ولعل ما يؤكد ذلك حدوث تمرد في الوحدات العسكرية في السودان سنة ١٩٠٠، وكذلك اكتشاف سلطات الاحتلال لتنظيم عسكري يضم ٧٥ ضابطًا من ينتمون إلى منظمة الحزب الوطني السرية، وذلك بعد أن وشي بهم أحد الضباط [٢٣].

وفي نفس الإطار السري تأسست جمعية أخرى عرفت باسم الجمعية الوطنية وقد أحتوي القانون الأساسي لتلك الجمعية السرية الصادرة في ١٤

مايو ١٨٨٣ على عشرين بند اتخذت شكل "المؤامرة الوطنية المصرية" وأبرزت هذه البنود أحكام عضوية الجمعية ونظام وأوامر مهام الأعضاء الذين ألزموا بارتداء زي خاص حينما يطلبون للاجتماع، عولت على إنشاء الفروع لها وتركزت في أيدي رئيس الجمعية سلطات واسعة وحتم على الأعضاء أن يكونوا مسلحين أثناء الاجتماعات وذلك لدرء العوارض عند حصولها، حيث فرض البند الخامس عشر وجوب إحراز كل عضو على بندقية وخنجر وما يكفي من الذخيرة، بل وأباح القانون الأساسي للجمعية الانتقام إذا تعرض أحد الأعضاء للقبض عليه، وأتضح أن الاجتماعات كانت تحدث قبيل منتصف الليل بعد تحديد أماكن الاجتماع في الأماكن الخالية عن طريق أوامر التكليف بالحضور، وأنه عند الاقتراب من المكان المحدد للاجتماع يقوم العضو بارتداء الملابس الخاصة بالجمعية، وضمت الجمعية فروعًا لها تكونت من رئيس وستة أعضاء، كما اتفقوا على استخدام القوة لتنفيذ أغراضهم وسعوا للحصول على مطبعة خاصة بهم (٢٤).

وأصدرت تلك الجمعية عددًا من المنشورات هدفها تحرير الوطن، وطرد الإنجليز من مصر وإبعادهم عن كل الوظائف بما في ذلك الجيش، وحذرت الجمعية في منشوراتها الوطنية من التعامل مع جنود الاحتلال أيا كان نوع التعامل، كما أرسلت الجمعية خطابات التهديد للخديوي والأمراء والهيئة الحاكمة من النظار، وكبار المسئولين والأغنياء، وإلى السير ادوارد ماليت، وذلك على أساس أنها جمعية للانتقام لطرد الإنجليز، وكان من بين ما أرسلته الجمعية إعلان إلى جريدة "الوطن" لنشره تضمن التهديد لكل من يتعامل مع الاحتلال ولو كان الجالس على العرش، وأنها تكلفت منذ ذلك اليوم

بتطهير البلاد من الجيش الإنجليزي، وتطالب بالدستور، كما وصفت الخديوي بالظلم والاستبداد، وأن الشعب يكره الخديوي ويرفضه (٢٥).

وقد تم اكتشاف هذه الجمعية في يونيو ١٨٨٣، والقي القبض على عدد كبير من أعضائها، وضبط لديهم عدد من قطع السلاح، وكان من بين المقبوض عليهم سكرتير الجمعية الدكتور محمد سعيد وهو جزائري الجنسية (٢٦).

ولعل قراءة أهداف الجمعية وبيانا وتشكيل تلك المنظمة تثبت عددا من الحقائق التالية:

- إن الحركة الوطنية الإسلامية في مصر لم تمت عقب الاحتلال الإنجليزي واستمرت رغم أبشع وأوسع عملية قمع ومطاردة مارستها سلطات الاحتلال عقب هزيمة الثورة العرابية.
- إنها كانت ترفض الخديوي وتطالب بالدستور، أي أن هدفها كان الجلاء والدستور، أي الاستقلال والحريات.
- إن إسلامية الحركة جعلت الجزائري "محمد سعيد" ينخرط في صفوفها دفاعًا عن مصر، بل وأن يكون سكرتيرًا للجمعية، وهذا يؤكد على إسلامية الحركة الإسلامية الوطنية في مصر، وعلى مفهومها العالمي والأممي للإسلام، وأن الدفاع عن بلاد الإسلام فرض على كل مسلم بصرف النظر عن جنسيته.

وظهرت جمعية سرية أخرى سنة ١٨٩٦ في مدينة بني سويف برئاسة أحمد فؤاد طلعت رئيس نيابة بني سويف، ولما علم مصطفي كامل بأمر هذه

الجمعية سعي إلى ضمها إلى جمعية الحزب الوطني السرية، وقد نجــح فـــي ذلك، كما تم عقب ذلك إعادة تنظيم جمعية الحزب الوطني السرية ومحاولـــة ضم عناصر جديدة إليها ونشر خلاياها في الأقاليم، وقد أتخذ مصطفي كامـــل اسمًا مستعارًا في تلك الجمعية هو اسم "أبو الفدا".

وكان هناك أيضًا جمعيات شبه سريه تعمل بالتنسيق الكامل مع الخلافة العثمانية مثل جمعية شمس الإسلام، وكذلك جمعية مكارم الأخلاق التي قدرت عضويتها بالآلاف حيث كان لها فروع في أكثر المدن المصـــرية، وهـــدفت للنهوض بالإسلام، وقد أهتم مصطفي كامل بالاتصال بتلك الجمعيات في إطار اهتمامه بالجامعة الإسلامية والخلافة والجلاء [٢٧].

وفي سنة ١٩٠٥ تكونت جمعية سرية هي " جمعية الاتحاد الإسلامي " ويقول عنها الدكتور عصام ضياء الدين في رسالته لـــدكتوراه (يلاحـــظ أن اسمها كان يتناسب مع النزعة الإسلامية التي كانت طابعًا أقتـــرن بالنشـــاط الوطني في ذلك الوقت، واشتمل قانونها الصادر في ٥ فبراير ١٩٠٥ علـــى أثنين وثلاثين مادة أوضحت بأسلوب متناه في البساطة طبيعة الجمعية، وأنها إسلامية محضة من أجل مساعدة المسلمين بقدر الإمكان مع الحـــرص علـــى عدم إتيان رأي يجافي غير المسلمين، وحدد القانون خطر الاجتماعات العلنية، وقيمة الاشتراكات، ووجبات الأعضاء وطريقة اختيار الرئيس وتنظيم الخلايا، وقد كانت هذه الجمعية هي نواة جمعية التضامن الأخوي التـــي لعبـــت دورًا هامًا في النشاط الثوري للحزب الوطني، وليس من المبالغة أن نعتبر الحزب الوطني كان وراء هذه الجمعية) [٢٨].

وقد انتشرت خلايا هذه الجمعية في معظم المدن المصرية، والمدارس العليا بل وظهر التفكير في إنشاء نادي المدارس العليا للتنسيق بين الطلاب والخريجين من خلال تلك الجمعية.

ويضيف د. عصام ضياء الدين :" ولا شك أن تلك البؤر الثورية كانت بحق أبرز معالم الحركة الوطنية، حيث خرجت منها المظاهرات وأعمال العنف التي شهتها مصر، فقد توفر في النادي مكان رحب للقاء أعضاء الجمعيات السرية الذين أدوا دورًا ملموسًا في تنشيط النضال الوطني بصفة عامة"(٢٩).

وحتى أنه عندما تقرر إنشاء الحزب الوطني العلني سنة ١٩٠٧ تم الاتفاق على أن تشكل لجنة سرية من بين الأعضاء المخلصين (٣٠).

ويعلق د. عصام ضياء الدين على إيمان الحزب الوطني بالعمل السري إلى جانب العمل العلني في إطار الأعداد للثورة قائلاً (لجأ الحزب الوطني إلى العمل العلني إلى جانب العمل السري لأن إستراتيجية الحزب في الواقع كانت قائمة على أساس النضال المسلح، ولم يكن النضال العلني إلا سياسة اقتضتها الظروف خشية البطش بالحركة في وقت مبكر، ولقد كانت قيادة الحزب حريصة على العمل في الخفاء لخلق الكوادر السياسية القادرة على تفجير الثورة، ولذلك فمن الحق القول بأن نشاط مصطفي كامل العلني ما كان إلا ليخفي ثورة) (٣١).

بل إن صحيفة اللواء وخطب مصطفي كامل وغيرها ما كانت ألا لنشر بذور الثورة، بل حرصت قيادة الحزب إلى توجيه الجمعيات الوطنية السرية

إلى الإيمان بأسلوب ذلك مما طرأ على جمعية التضامن الأخوي، وهي امتداد لجمعية الاتحاد الإسلامي من أفكار واتجاهات احتوت على هذه النقلة باتجـاه العنف، لاسيما إذا علمنا أن هذه الجمعية قد عول عليها الحزب الوطني – فيما بعد– للقيام بدور طليعي في إعمال العنف [٣٢].

فلقد تم تقديم الشاب إبراهيم الورداني للالتحاق بالجمعية على أساس أنه سيصير كيماويًا ماهرًا يمكنه عمل ديناميت إلى جانب إعداد العقاقير السـامة عند اللزوم، ليس هذا فحسب بل جرت حركة الأفكار في الجمعية إلى تأسيس الفروع والإكثار منها. [٣٣]

ويعبر مصطفي كامل عن هذا الأمر بقوله:" أنه لابد من بلـوغ الأمـة درجة من القوة تستطيع معها أن تجبر الدولة المحتلة على الجلاء، وأن تنـال الاستقلال رغما عن كل انسان " [٣٤].

وقول اللواء أيضًا " بأن إنجلترا ليست بالتي تخـرج مـن مصـر مختارة عملاً بمبدأ أو تعاطف على الشعب، ولكنها تدافع عن بقائها حتى تضطر إلى الجلاء " [٣٥].

وأيضًا " إن الإنجليز لا يخدمون ألا القوة المادية وهي الـدافع فصـبرًا سيكون لنا مدافع يومًا وأن الشباب المصري أصبح يؤمن بذلك وأنهم سيأتون بها في الوقت المناسب " [٣٦].

كما أبرزت صحيفة اللواء حادثة اغتيال ملك البرتغال وولي عهده فـي أول فبراير ١٩٠٨ وعلقت عليها بقولهـا " أنهـا نتيجـة لاسـتبداد الحكـام

بالمحكومين، وأنها حكم قضي به الشعب الغاضب على رأس متوجـة ورأس مستعدة للتتويج [٣٧].

وعندما تولي محمد فريد الحزب الوطني عقب وفاة مصـطفي كامـل ١٩٠٨ كان التنظيم السري للحزب الوطني قد وصل إلى مرحلة من القـوة لا يستهان بها خاصة بعد اهتمام مصطفي كامل في الفترة الأخيرة مـن حياتـه بالاعتماد على الجماهير وعلى القوي الذاتية للأمة أساسًا بعد الاتفاق الـودي بين إنجلترا وفرنسا، ومهادنة الخديوي للاحتلال، وكان من الطبيعي أن يشهد التنظيم السري للحزب الوطني في عهد محمد فريـد مزيـدًا مـن الاهتمـام والانتشار والقوة بحكم الظروف التي كانت تمر بها مصـر وقتهـا، وبحكـم الظروف الدولية والمحلية التي جعلت من طريق الثورة طريقًا لا بديل عنـه وبحكم أن محمد فريد، بتكوينه وتفاعلاته الثورية يميل إلى الشدة والعنف الثوري.

وكان من الطبيعي أن تحاول سلطات الاحـتلال والخـديوي تصـفية الحزب الوطني ومنظماته السرية، وهكذا شهدت تلك الفترة حالة من النضال الحاد والعنف، وتعرض محمد فريد وعبد العزيز جاويش وغيرهم من زعماء الحزب الوطني إلى المحاكمات والسجن والمطاردة.

واهتم محمد فريد بمجرد تسليمه زمام القيادة بإتمـام تنظـيم الحـزب، ووضع تنظيم جديد للحزب يراعي ظروف المرحلـة، وبمقتضـي اللائحـة الجديدة للحزب التي وافقت عليها الجمعية العمومية للحزب الوطني فـي ٢٦ مارس سنة ١٩٠٩، تم إنشاء عددًا من اللجان الاختصاصـية مثـل اللجنـة الخطابية واللجنة السياسية، ثم اللجان الفرعية، ويري د٠ عصام ضياء الدين " أن اللجان الفرعية بالرغم من صفتها العلنية إلا أنها كانت بمثابـة تنظيمـات

سرية للحزب، يخرج منها ما يأتيها من أوامر من القيـادة الثوريـة للحـزب للاتصال بالجمعيات السرية في الأقاليم وغيرها، وليس أدل على ذلـك مـن التكتم الشديد في اختيار أعضائها من ناحية، ثم لطبيعة تكوين جهازها القـائم عليها والمطابق تمامًا لأمر تكوين الجمعيات السرية من ناحية أخـرى، هـذا فضلاً عما ثبت لدينا من أن اللجنة الفرعية للحزب بالعباسـية كـان ينتمـي أعضاؤها إلى الجمعيات السرية، بينما أن اللجنة الفرعية للحزب بالإسكندرية تحولت إلى جمعية سرية في زمن الحرب العالمية الأولـى " (٣٨).

والراصد لاهتمامات صحيفة اللواء في تلك الفترة يجد أنها اهتمت بنقل تجارب العنف الثوري والإشادة بها مثل العنف الثوري ضد الإنجليز في الهند وأيرلندا، بل ودعت الصحيفة الشباب إلى التعاهد سرًا على أعـداد أنفسـهم لإنقاذ أمتهم، ومناقشة الأعداء الحساب، وعدم الظهور في ميدان العمل قبل أن تنضج خطتهم، ويكونوا على تمام الاستعداد لتنفيذها مؤكـدة علـيهم إنشـاء الجمعيات السرية (٤٠).

وكان محصلة هذا الاتجاه الذي التزم به محمد فريـد تكثيـف مصـر بالجمعيات السرية، مع إدخال القوة اللازمة لها ليكسبها الفعالية فـي العمـل، ومن ثم فليس من الغريب أن نري مصر وقد امـتلأت بالجمعيـات السـرية بتوجيهات من زعيم الحزب الوطني على الرغم من حرصـه الشـديد علـى الظهور دائمًا في ثوب السلام في أعمال الحزب الوطني حتى يجنـب حزبـه البطش المتوقع من ناحية الاحتلال، ولم تقتصر الجمعيات السرية على مصر فقط بل امتدت لتشمل الطلبة المصرين في أوروبا الذين أفادوا في دعم وتطور التنظيمات السرية في مصر حين عادوا إليها، وكان أبـرز هـؤلاء إبـراهيم

الورداني الذي كانت له صلات متينة بمحمد فريد، فكان يتميز بوطنية حـــادة ساعدته على النهوض بأخطر الجمعيات السرية للحزب الوطني وهي " جمعية التضامن الأخوي " التي انعكست عليها أسلوب العنف للجناح الثـــوري فـــي الحزب الوطني الذي كان على قمته محمد فريد، وعبد العزيز جاويش [٤١].

وإذا كنا قد تعرضنا من قبل لجمعية التضـــامن الأخـــوي، فإننـــا الآن سنناقش الخطوط العريضة للبرنامج السياسي للجمعية، والذي صدر في يونيو ١٩٠٨ بعد عدة لقاءات بين الورداني وأعضاء الجمعية، ومحمد فريد وعبـــد العزيز جاويش [٤٢].

وقد جاء البرنامج السياسي للجمعية كالتالي: [٤٣]

أولاً: التأثير على العامة وتأليف قلوبهم بما يأتي:

١ـ تكليف لجنة من الجمعية لوضع خطب تلقى على العامة.

٢ـ حث الخطباء في المساجد على إلقاء الخطب الثورية.

٣ـ دخول بعض الأعضاء في الطرق الصوفية وتفهيم مشايخها عن الحالـــة الحاضرة وكيف تأخر الدين وأنتشر الفساد.

٤ـ عمل أدوار وأغاني وأناشيد عن الحالة الحاضرة لتغني في المجتمعـــات، ويحفظها طلبة الكتاتيب والمدارس.

٥ـ وضع روايات تمثيلية لتمثيل في جهات الأرياف لمحاربة الأخلاق الفاسدة والعادات القبيحة.

٦ـ وضع قصص حماسية.

٧ـ عمل جمعيات تعاون للشعب، ونقابات للصناع في أنحاء مصر.

ثانيًا: التجارة

١ــ التعصب للتجارة الوطنية ومقاطعة التجارة الأجنبية تمامًا.

٢ــ عمل مجموعة "دليل" بأسماء التجار الوطنيين وتوزيعها في الجهات.

٣ــ إنشاء شركة مصرية تجارية للقيام بعمل المنسوجات المصرية والصناعات الأخرى

٤ــ إحياء الروح الصناعية والتجارية في نفوس الأهالي.

ثالثًا: التعليم

١ــ فتح مدارس لتعليم الشعب في جميع أنحاء القطر المصري.

٢ــ إنشاء مدارس لتعليم البنين والبنات على حسب النظام الإسلامي.

٣ــ إنشاء مدارس تجارية وصناعية، وبعث إرساليات علمية إلى البلاد الأجنبية.

٤ــ تعليم أبناء الفقراء على حساب الجمعية.

٥ــ السعي في إيجاد نظارة معارف أهلية.

٦ــ وضع وترجمة الكتب العلمية والأخلاقية، ونشر تراجم حياة عظماء الرجال الذين دافعوا عن بلادهم، وبذلوا الحياة في سبيلها.

٧ــ وضع كتب عن حالة مصر وفضائح الإنجليز بها.

٨ــ ترقية اللغة العربية، واحيائها بكل الوسائل الممكنة.

٩ــ عقد مؤتمر علمي.

١٠ــ تخصيص فئة من الجمعية لعمل الروايات التمثيلية عن الحالة الحاضرة وتمثيلها

رابعًا: تكوين الجمعيات

١ــ يجب على كل عضوين أن يكونا جمعية مركبة من عشرة أعضاء جــدد بشرط عدم معرفتهم بأحد غيرهما.

٢ــ تتسمي هذه الجمعيات باسم واحد.

٣ــ لا يبت في القرارات ذات الأهمية إلا بعد أخذ رأي الأغلبية وبعد عرضها على الجمعيات كلها والموافقة عليها.

٤ــ لا رئاسة في الجمعيات.

٥ــ لابد لكل جمعية من لغة مخصوصة " شفرة ".

٦ــ يجب تحليف العضو " اليمين " حتى يصير عضوًا عاملاً ولا يــدخل إلا بعد اختبارات ما.

خامسًا: القوة

١ــ إن القوة لا تدفع إلا بالقوة.

٢ــ إن العدو يستخدم القوة لإخضاع البلاد ولابد للبلاد من قوة مناســبة لدفع الاحتلال.

٣ــ الحرص على التدريب الرياضي والعسكري وشراء السلاح والذخيرة.

٤ــ تمول أنشطة الجمعية من الدعم المالي الذي يقدمه الأعضاء، وهو عبارة عن ٣٠% من دخله الشهري، وكذلك عمل شركات اقتصادية يكــون ربحهــا مصدرًا لتمويل الجمعية، وقد تم عمل هذه الشركة في أول مارس ١٩٠٩.

كان للجمعية لجنة خاصة سميت اللجنة الفدائية، وكــان يترأســها إبــراهيم الورداني أنيط بها القيام بالأعمال الخطيرة، كالاعتداءات وغيرها، وكان كــل

عضو بها يتصل بالآخر فقط ماعدا رئيسها الورداني الذي كان يمكنه وحده الاتصال باللجنة التنفيذية العليا، وبهذه الطريقة كانت اللجنة الرئيسية للجمعية باقية سرًا، ولا يعرف أسمائها ولا مقرها ولا مكان اجتماعاتها، بل كانت تصدر منها الأوامر دون أن يعرف أحد شيئًا عنها مما يعطي الانطباع بأن محمد فريد كان يهيمن على اللجنة التنفيذية العليا للجمعية ويعطي الأوامر والتوجيهات للجمعية عن طريق إبراهيم الوردانى، ويلقي عبد الفتاح عنايت المزيد من الضوء على هذه الحقيقة حينما ذكر أن محمد فريد كان يقود جهازًا سريًا بحكم أنه كان اكبر مؤيد لحركة الفدائيين وكان يمدهم بكل نوع من أنواع المساعدة مادية كانت أو أدبية.

٦ـ استعانت الجمعية بالطلبة المصريين الدارسين في أوربا لشراء الأسلحة على أن يكون شراء تلك الأسلحة من كل الدول ماعدا إنجلترا، حتى لا تكتشف أجهزة المخابرات الإنجليزية هذا الخيط.

ويرى د. عصام ضياء الدين أن اللجنة التنفيذية لجمعية التضامن الأخوي كانت مشكلة من كل من محمد فريد، وعبد العزيز جاويش، وإبراهيم الورداني (٤٥)

وقد لعبت جمعية التضامن الأخوي دورًا خطيرًا في الحياة الوطنية المصرية عمومًا وفي كفاح الحزب الوطني خصوصًا، وقد نفذت عناصر تلك الجمعية عملية اغتيال بطرس غالي سنة ١٩١٠.

ولكن الأمر لم يقتصر على تلك الجمعية، بل شهدت الواقع المصري في تلك الفترة عددًا كبيرًا من الجمعيات سواء تلك التي انبثقت من جمعية التضامن الأخوي أو الجمعيات التي لم تكن على صلة مباشرة بها وإن كانت

على صلة بقيادة الحزب الوطني، وخاصة الشيخ عبد العزيز جاويش، وقد عبر مستشار الداخلية الإنجليزي عن ذلك الأمر قائلاً " إن عدد الجمعيات السرية وشبه السرية كبيرة جدًا " (٤٦).

وعلى كل حال فقد انبثق عن جمعية التضامن الأخوي عدد من الجمعيات السرية مثل " جمعية الفلاحين "، و"جمعية التعاون الأخوي "، وجمعية الرابطة الأخوية " ٠

كما ظهرت جمعيات سرية أخرى، مثل جمعية الحياة التي تكونت سنة ١٩٠٨ برئاسة خليل مدكور، وقد اعتبرت تلك الجمعية من الجمعيات السياسية السرية الهامة، نظرًا لاتساع عدد أعضائها، وانضمام عدد من ضباط الجيش، والشباب إلى هذه الجمعية، وجمعية الاتحاد برئاسة توفيق أنور، جمعية الاتحاد الأزهري برئاسة الشيخ فهيم قنديل، جمعية الإصلاح الأزهري برئاسة الشيخ على أحمد الجرجاوي، جمعية الاتحاد المصرية برئاسة عبد الحميد أحمد، وجمعية إحياء الشعائر الدينية برئاسة عبد الحليم محمود الغمراوي، وجمعية الرقي الإسلامي برئاسة محمد سعد الله، وجمعية المجاهدين برئاسة الدكتور محمد عبد الحي.

وقد لعبت هذه الجمعية دورًا هامًا في محاولة توحيد الجمعيات السرية المختلفة.

ومن الجمعيات شبه السرية نجد " جمعية مصر الفتاة "، " وجمعية أخوان الصفا"، " جمعية اليقظة المصرية " وغيرها.

ويري د٠ عصام ضياء الدين، أن هناك عدد كبير من الجمعيات قد ظهر في تلك الفترة خاصة تلك التي تأسست في الأقاليم، وأن الحزب الوطني وخاصة محمد فريد، وعبد العزيز جاويش كانا لهم تأثيرٌ ونفوذ كبير،

وعلاقات واسعة بتلك الجمعيات، وأن نادي المدارس العليا كان بؤرة لظهور تلك الجمعيات أو مكان لالتقاء أعضائها [٤٧] .

ولم يقتصر أمر الجمعيات على داخل مصر، بل ظهرت عدد من الجمعيات المتأثرة أيضًا بالحزب الوطني في أوروبا، مثل الجمعية المصرية بإنجلترا، جمعية مصر الفتاة، الجمعية الإسلامية بادنبرج، وقد وطد محمد فريد علاقاته بهذه الجمعية بنشر أخبارها، وفي هذا الإطار ظهرت أيضًا جمعية الطلبة المصرين بليون في فرنسا، والجمعية المصرية بباريس، وجمعية لوزان وغيرها، وقد تم توحيد جهود هذه الجمعيات في مؤتمر الشبيبة في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٨ الذي تكون من مندوبي الجمعيات المصرية بأوربا.

وعلى كل حال فإن البعض يقدر عدد الجمعيات السرية في ذلك الوقت بـ ٨٥ جمعية [٤٨]، مما يدل على مدي انتشارها وأهميتها، ومما يؤكد ذلك أيضًا صدور الأوامر من مستشار الداخلية إلى مدير بوليس القاهرة "هارفي" بإنشاء مكتب للبوليس السري يختص بالأعمال السياسية حتى يتمكن بوجه خاص من جمع المعلومات عن الجمعيات السرية ومراقبتها، وبالفعل بدأ المكتب أعماله وأصطدم بحقيقة مؤداها أن عدد هذه الجمعيات كبير جدًا و أن أعضائها مجندون في الغالب من الطلاب.

وعقب حادثة اغتيال بطرس غالي سنة ١٩١٠ على يد جمعية التضامن الأخوي، اكتشفت سلطات الاحتلال أن هناك علاقة مباشرة بين تلك المنظمة وبين محمد فريد وعبد العزيز جاويش، إلا أنها لم تستطيع تقديم الدليل المادي على ذلك، حيث قام محمد فريد بالتخلص من كل الأوراق والأشياء التي تصلح دليلاً على ذلك قبل تفتيش منزله، وكان محمد فريد قد تلقي تحذيرًا من

أحد القضاة الوطنيين وهو القاضي أحمد عبد الرازق، بأن منزله سوف يــتم تفتيشه، إلا أن محمد فريد كان قد تخلص بالفعل من كــل الأوراق والأشــياء التي تثبت صلة الحادث حتى قبل وصول التحذير إليه.

وفي الحقيقة فأن محمد فريد كان يعلم بعملية الاغتيال قبل وقوعها، بــل هو الذي أعطي الموافقة والتوجيه بذلك، حيث رأت قيادة الحزب أنه لا سبيل لوقف مد امتياز قناة السويس إلا بقطع رأس الخيانة بطرس غالي (٤٩).

وكانت علاقة محمد فريد بالورداني من القوة، بحيث أن محمد فريد كان يزور الورداني مرارًا في أجزاخانته وقد أعترف محمــد فريــد بــذلك فــي مذكراته، كما كان الورداني يقوم بزيارات متعددة لمنزل محمد فريد بشــبرا، بل أن محمد فريد اجتمع بالورداني عشية الاغتيــال فــي ١٨ فبرايــر فــي أجزاخانة الورداني التي كان يؤمها أيضًا الشيخ عبد العزيز جاويش، حيث قام بزيارة للورداني في الأسبوع الأخير للحادث مباشرة (٥٠).

وتعد حادثة اغتيال بطرس غالي من الأدلة على كفاءة وقدرة التنظيمات السرية للحزب الوطني، ، فهي تكشف عن استعداد تلك المنظمــات الســرية للقيام بعمليات العنف خدمة لتوجهاتها السياسية، ولعله من المؤكد أنه لم يكــن هناك طريق آخر لمنع توقيع اتفاق مد امتياز قناة السويس سوي هذه الوســيلة فصدرت أوامر قيادة الحزب إلى إحدى الخلايا السرية بتنفيذ العمليــة، وقــام الورداني بدوره بتنفيذها جهارًا نهارًا دون أن يحاول الهرب، بل ســلم نفســه وحدد أسباب العملية بكل وضوح وذلك لتحقيق الأثر السياسي من الحــادث، وحتى يحصر نطاق التحقيق في شخصه، وفي الخلية السرية التي ينتمي إليها دون كشف باقي الجمعية وصلتها بالحزب الوطني، وهذا في حد ذاته يدل على

وعي سياسي وثوري كبير، وظل الورداني متماسكًا من بداية التحقيق حتـى لحظة إعدامه مصرًا على حصر العملية فيه وفي خليته الثورية ومؤكدًا على الدوافع السياسية للحادث.

ومن ناحية أخرى فإن الحزب الوطني الذي اطمأن لصمود الـورداني، والذي أدرك أن سلطات الاحتلال لن تنجح في تقديم دليل مادي على علاقـة الحزب بالحادث، استغل الحادث في التنديد بمحاولة مد امتياز قناة السـويس وبالاحتلال بأسرة، ووكل المحامين للدفاع عن الورداني، بل وحضر محمـد فريد جلسات المحاكمة، ودافعت صحف الحزب عن الورداني ،اعتبرته بطلاً وطنيًا يحمل دوافع نبيلة للاغتيال، وظهرت الأشـعار التـي تشـيد بوطنيـة الورداني، كما تم طبع صوره بالآلاف وتوزيعها تحت عنوان بطل الوطنيـة، كما أصبحت مقبرة الورداني مزارًا للوطنيين من شباب الحزب الوطني.

وجملة القول أن الحزب الوطني نفذ عملية الاغتيـال، وحقـق الأثـر السياسي منها وحصر خسائرها في التضحية بالورداني كشهيد قدم نفسه فداء لمصر والإسلام ، بل قام الحزب الوطني باستخدام الحادث في دفع الشـعور الوطني خطوات إلى الأمام، وتحول الورداني إلى رمز ملهم للوطنية والفداء.

وفي محاولة من الحزب الوطني للتغطية على الجمعيات السـرية، قـام الشيخ عبد العزيز جاويش بإنشاء عدد من الجمعيات العلنية، ليستقطب إليهـا اهتمام البوليس السياسي الذي تم إنشاؤه خصيصًا لمتابعة الجمعيات السـرية، ولتكون غطاء للعمل السري في نفس الوقت، فأسس الشيخ عبد العزيز جاويش جمعية التشجيع على التعليم الحر " وجمعية " حصن اليتـامى " وجمعيـة "

الإخلاص الوطنية "، كما قام الشيخ عبد العزيز جاويش أيضًا بتأليف كتبًا عن النظام الإيطالي للفوضويين ونظامًا للشفرة للتراسل السري في سبتمبر ١٩١٠.

وكانت سلطات الاحتلال تعتبر الشيخ عبد العزيز جاويش " أكثر الجماعة خطرًا وتعصبًا، ووصفته سلطات الاحتلال بأنه داعية سيئ الشهرة، وأن حبسه من قبل لم يقلم أظافره، وأنه يشكل تهديدًا مستمرًا للنظام العام والأمن العام، وأنه يدبر المؤامرات لتحريض الطلبة والعمال والفلاحين، وأنه يتمتع بجملة من الميزات تجعل منه ثوريا خطيرًا بسبب تعليمه وذكائه وموهبته ككاتب وكخطيب، وأنه ليس من الصعب على داهية مثله أن يقوم بأية أعمال ضارة، ويظل بمنأى عن طائلة القانون "[٥١]، وفي الحقيقة فإن الشيخ عبد العزيز جاويش كان من أهم قيادات الحزب الوطني على المستوي السياسي، وكان يدير بكفاءة عددًا من المنظمات السرية، بل إن نشاطه أمتد في كل شئ، لدرجة أنه بالإضافة إلى نشاطه الوطني أسس مجلة " الهداية " للدفاع عن الدين الإسلامي في مواجهة بعثات التبشير، وقد شارك الورداني معه في إنشاء تلك المجلة وتحريرها "[٥٢].

هوامش

١- الرافعي، محمد فريد، دار المعارف ن الطبعة الرابعة ، ١٩٨٤.

٢- الرافعي، نفس المرجع السابق.

٣- الرافعي، نفس المرجع السابق .

٤- الرافعي، نفس المرجع السابق .

٥- الرافعي، نفس المرجع السابق .

٦- محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مرجع سابق.

٧- الرافعي، مرجع سابق.

٨- نقلاً عن الرافعي، مرجع سابق.

٩- الرافعي، مصطفي كامل ص ١٢٢، الطبعة الرابعة، طبعة دار المعارف، خطبة الزعيم مصطفي كامل بالقاهرة في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩.

١٠-الرافعي، محمد فريد، مرجع سابق.

١١-الرافعي، محمد فريد، مرجع سابق.

١٢-الرافعي، محمد فريد، مرجع سابق.

١٣-الرافعي، محمد فريد، مرجع سابق.

١٤-من خطبة عمر بك لطفي في نادي المدارس العليا، الأول من نوفمبر ١٩٠٨.

١٥-الرافعي مرجع سابق.

١٦-من خطبة عمر بك لطفي في نادي المدارس العليا، الأول من نوفمبر ١٩٠٨.

١٧-من خطبة عمر بك لطفي في ٢٤ مايو ١٩١٠.

١٨-من خطبة عمر بك لطفي في ٢٤ مايو ١٩١٠.

١٩-من خطبة عمر بك لطفي في ٢٤ مايو ١٩١٠.

٢٠-جريدة اللواء ٢٣ مايو ١٩٠٨.

٢١-أحمد بيلي، نقلا عن د. عصام ضياء الدين السيد، الحزب الوطني والنضال السري ١٩٠٧ ــ ١٩١٥، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٧.

٢٢-على فهمي كامل، مصطفي كامل في ٣٤ ربيعا.

٢٣-مذكرات الخديوي عباس، جريدة المصري، ٢ سبتمبر ١٩٥١.

٢٤-وثائق الثورة العرابية، دار الوثائق القومية ، محفظة ٢٣ .

٢٥-وثائق الثورة العرابية، دار الوثائق القومية ، محفظة ٢٣.

٢٦-وثائق الثورة العرابية، دار الوثائق القومية ، محفظة ٢٣.

٢٧-د. عصام ضياء الدين، مرجع سابق.

٢٨-د. عصام ضياء الدين، مرجع سابق.

٢٩-د. عصام ضياء الدين، مرجع سابق.

٣٠-محمد فريد، مذكرات، كراسي ١ ص ١-٢.

٣١-د. عصام ضياء الدين، مرجع سابق.

٣٢-د. عصام ضياء الدين، مرجع سابق.

٣٣-وثائق اغتيال بطرس غالي ملف ٣٥ وثيقة رقم ٨.

٣٤-جريدة اللواء، في نوفمبر ١٩٠٧، الحزب الوطني والجلاء، بقلم مصطفي كامل.

٣٥-جريدة اللواء، في١١ نوفمبر ١٩٠٨.

٣٦-جريدة اللواء، في ٢٣ يناير ١٩٠٨، الشعور الوطني المصري، بدون توقيع

٣٧-جريدة اللواء، في١٠ فبراير ١٩٠٧

٣٨-د. عصام ضياء الدين، مرجع سابق.

٣٩-اللواء في أعداد ٣مايو ن٧ مايو، ٢٥ مايو، ٣٠ يونيو، ١٩٠٨، وعدد ٦ يناير ١٩٠٩، ووصل الأمر بالصحيفة إلى الكتابة عن تجارب الطلاب في الهند في صناعة القنابل وتركيبها.

٤٠-جريدة اللواء، في ٢ نوفمبر ١٩٠٨، حاجتنا إلى التكتم في جهادنا.

٤١-د. عصام ضياء الدين، مرجع سابق.

٤٢-وثائق اغتيال بطرس غالي دار المحفوظات القومية، ملف ٣٥.

٤٣-وثائق اغتيال بطرس غالي دار المحفوظات القومية، ملف ٣٥.

٤٤-عبد الفتاح عنايت، قصة كفاح ص ١٠.

٤٥-د٠ عصام ضياء الدين، مرجع سابق.

٤٦-نقلا عن د٠ عصام ضياء الدين، مرجع سابق.

٤٧-د٠ عصام ضياء الدين، مرجع سابق.

٤٨-محمود كامل، أشهر القضايا المصرية ص ١٣٠.

٤٩-د٠ عصام ضياء الدين، مرجع سابق.

٥٠-د٠ عصام ضياء الدين، مرجع سابق.

٥١-تقرير لسلطات الاحتلال، نقلا عن د٠ عصام ضياء الدين، مرجع سابق.

٥٢- د٠ عصام ضياء الدين، مرجع سابق.

كفاح الحزب الوطني

١٩٠٨ ـــ ١٩١٩م

بوفاة الزعيم مصطفي كامل، سنة ١٩٠٨ ظـن الـبعض أن الحـزب الوطني أو الكفاح الوطني سيضعف أو يخنع، وقد خاب ظـن هـؤلاء، لأن الحركة الإسلامية الوطنية في مصر غير قابلة للانتهاء، لأنها تمتد في التاريخ والجغرافيا والوجدان، وهكذا استمرت الحركة، بل دخلت العديد من المعـارك وزاد لهبها وانتشارها٠

كانت الظروف في ذلك الوقت شديدة الصعوبة، فالحركة الوطنية، قـد فقدت زعيمها الفذ مصطفي كامل الذي كان يتمتع بوعي وخبـرة سياسـية، ويتمتع في نفس الوقت بقدرة خطابية وكتابية بالغة، استخدمها في تحقيق اكبر قدر من الحشد الجماهيري والتعبئة، كما أن التعاون بين إنجلترا وفرنسا على حساب مصر وغيرها قد سار خطوات إلى الأمام، وأخيرًا فإن الخديوي عباس قد انحاز إلى الاحتلال بالكامل وأصبح هو نفسه يترصد الحركـة الوطنيـة، ويتربص بها الدوائر ويريد الإيقاع بهـا٠

وعلى مستوي الواقع الحزبي، كانت هناك محـاولات لـزرع أحـزاب عملية، مثل حزب الأمة، الذي يعمل لخدمة الاحتلال، وحزب الإصلاح الذي يعمل لخدمة الخديوي

وفي مواجهة ذلك، كان الحزب الوطني قد استطاع أن يصمد، وأن يقوم بانتخاب محمد فريد، زعيمًا له خلفًا لمصـطفي كامـل، متمسـكًا بخطوطـه السياسية والمبدئية وهي الجامعة الإسلامية، الجـلاء، وحـدة وادي النيـل،

الدستور، نشر التعليم، الدفاع عن العمال والفلاحين والفقراء عمومًا، فعلى مستوي الجلاء تمسك الحزب الوطني بعد موت مصطفي كامل بهذه المسألة تمسكًا شديد وجعلها محور حياته ونضاله، في مواجهة هؤلاء الذين يدعون إلى البدء بالإصلاح من خلال الإنجليز أو غيرها من الترهات التي حاولت عناصر حزب الأمة نشرها في الواقع المصري.

يقول محمد فريد :" إن الشعب لا يمكن أن يصدق بأن أمة أجنبية محتلة بلاد أمة أخرى تساعدها بإخلاص على ترقيتها وتحديثها ".

وفي خطبته بالإسكندرية في أغسطس ١٩٠٨، قال محمد فريد:" ترك بعضهم المطالبة بالجلاء وسموا هذا التحول اعتدلا في المبدأ وما هو إلا خيانة كبرى للوطن.

وكان من أولي الأعمال التي قامت بها اللجنة الإدارية للحزب الوطني بعد وفاة مصطفي كامل هو طلب إلغاء المحكمة المخصوصة التي ألفت لمحاكمة من يتهم من الأهالي بالتعدي على ضباط وجنود جيش الاحتلال، وقد تقدمت "اللجنة الإدارية للحزب الوطني بهذا في ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٨، وذلك في مناسبة ذكري تأسيس تلك المحكمة في ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥.

وفي يوم ٢١ مارس ١٩٠٨ تقدم محمد فريد باحتجاج على تصريحات وزير الحربية الإنجليزي التي قال فيها بضرورة بقاء جيش الاحتلال الإنجليزي بمصر.

وعندما صرح السير جورست المعتمد البريطاني في مصر "أبريل ١٩٠٨" بأن سلطة المستشارين الإنجليز بمصر تعلو فوق سلطة الوزراء، كتب محمد فريد مقالا شديدًا في جريدة اللواء طالب فيها الوزراء بالاستقالة

حفاظا على كرامتهم التي أهدرها الإنجليز وحذرهم من أن عدم استقالتهم تعني عدم احترامهم لكرامتهم وأنهم يستحقون ازدراء الأمة وقتها٠

ولم يقتصر الأمر على كتابة المقالات وتقديم الاحتجاجات بل أنه نتيجة لجهود الحزب الوطني اندلعت المظاهرات للمطالبة بالاستقلال ففـــي يـــوم ٩ نوفمبر ١٩٠٨ تظاهر طلبة الحقوق احتجاجا على عرض الجيش الإنجليـــزي بميدان عابدين وقد تجاوب معهم الجمهور، وردد الجميع " ليحيي الاستقلال " " لتحيي الحرية "، وقد تكررت تلك المظاهرة أيضًا في ٩ نوفمبر ١٩٠٩.

وقد ظلت قضية الجلاء دائمًا هي القضية المحورية للحـــزب الـــوطني سواء في جهاده الصحفي أو الخطابي، أوفي إطار المطالبة بالدستور أو إلغاء القوانين المقيدة للحريات لتحسين ظروف النضال الوطني من أجل الاستقلال، أو إطار نشر التعليم أو الاهتمام بالعمل النقابي والتعاون٠

وارتبطت قضية وحدة وادي النيل بقضية الجلاء، فقد اعتبـــر الحـــزب الوطني أن وحدة وادي النيل أمر ضروري وحتمي وحيوي لمصر والسودان معًا، وكان الحزب الوطني لا يفتأ يكرر احتجاجـــه علـــى اتفاقيـــة الســـودان المعقودة سنة ١٨٩٩، في كل مناسبة، كما اهتمت صحف الحزب الوطني بهذا الأمر أيما اهتمام، بل كانت تهتم بالدفاع عن حقوق شعب السودان وتفضـــح الممارسات القمعية والتعسفية الإنجليزية في السودان، وتأتي قضية " الكاملين " كمثال هام في هذا الإطار، فقد دافعت اللواء عن أهالي تلك البلـــدة الـــذين تعرضوا للقتل على يد سلطات الاحتلال الإنجليزي، ووصفت الحادثة بأنهـــا دنشواي أخرى، بل إن رئيس تحرير اللواء " الشيخ عبد العزيز جاويش " قـــد تعرض للمحاكمة بسبب نشره أخبار تلك الحادثة " يوليو ــ أغسطس ١٩٠٨ "٠

يقول محمد فريد في هذا الصدد :" وانه لبديهي حين أتكلم عن مصر أريد كل وادي النيل من أقاصي السودان إلى البحر الأبيض المتوسط، ثم البحر الأحمر بما يشمل كردفان ودار نور، فأنه لا يجهل إنسان أن من يملك أعالي النيل إنما يملك رقبة مصر، ويستطيع بكل سهولة أن يحتكر جزءًا عظيمًا من مياه النيل ومن أجل ذلك أوجدت إنجلترا حكومة منفصلة في السودان المصري، متخذة من سواكن وغيرها مرفأ للملاحة في البحر الأحمر، وكذلك تعارض إنجلترا دائمًا في اتصال السكك الحديدية المصرية بأخواتها في السودان، بل وتترك تمهيد الطريق بين أسوان ووادي حلفا؛ حتى تستطيع حينما تجبر على الخروج من مصر أن تسيطر على حوض النيل الأعلى، وعلى فروعه التي تمده، ثم تبيع الماء لمصر بوزنه ذهبًا، فيجب أن يكون وادي النيل لنا وحدنا غير مقسم ولا مجزأ، كما كان كذلك منذ وجد الأب البار لهذا الوادي إلا وهو النيل " [1].

وفي إطار المطالبة بالدستور وإلغاء القوانين الاستثنائية والمقيدة للحريات نجد أن الحزب الوطني قد بذل في هذا الإطار جهدًا كبيرًا، وقد كان الدستور مطلبًا ثابتا لمحمد فريد ولكل خطباء وكتبة الحزب الوطني، وفي كل اجتماعات الحزب أو مظاهراته، كان الدستور يأتي كطلب تالي لمطلب الجلاء ولكن دون التعارض معه أو الاهتمام به على حساب الجلاء، بل إن الحزب الوطني كان ينظر إلى المسألة باعتبار أن الدستور والحرية مطلب شرعي وطبيعي لكل الأمم، ومن ناحية أخرى فهو يحسن ظروف العمل الوطني في سبيل الجلاء، وقد عبر د. عصام ضياء الدين عن رؤية الحزب الوطني لهذه المسألة بقوله: " إننا نميل إلى الاعتقاد بأن حرص فريد على منح مصر

الدستور، على الرغم من وجود الاحتلال لم يكن إلا للاستفادة من الضمانات التي تكفلها الدستور للمواطن بصفة خاصة حتى يمكن في ظله تأمين القوى الثورية من أية محاولة للتنكيل بها، وبالتالي العمل في مقاومة الاحتلال، وقد طرح أحد أصدقاء فريد فكرة عقد مؤتمر كبير في ميدان عابدين أثناء وجود الخديوي لإجباره على إعلان الدستور [٢].

على كل حال، فبمجرد تولي محمد فريد مسئولية رئاسة الحزب الوطني قام بتوجيه الأمة إلى المطالبة بالدستور، واعد الحزب الوطني عددًا من العرائض لهذا الغرض وجمع عليها توقيعات الأهالي، بلغت ٧٥ ألف توقيع، وقد نظم هذا العمل كل اللجان الإدارية والفرعية للحزب الوطني في القاهرة والأقاليم.

وعندما رفض الخديوي بإيعاز من سلطات الاحتلال الموافقة على منح الأمة دستورًا لجأ الحزب الوطني إلى محاولة تخويف الخديوي لإجباره على إصدار الدستور ففي بداية مارس ١٩٠٨ مرَّ قطار الخديوي الخاص القادم من مريوط إلى الإسكندرية، وبعد ذلك وجدت قنبلة ملقاة على خط السكك الحديدية، واكتشف أمرها قبيل مرور قطار الخديوي الخاص، ثم مرة ثالثة أجبر قطار الخديوي على التحول إلى المخزن عندما ظهر قطار للبضاعة أمامه فجأة [٣].

ولا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نعزو تلك الأمور إلى الأهالي، فظهور عائق مفاجئ مرتين ليس أمر يأتي في إطار المصادفة أو الإهمال، وحتى لو سلمنا بمنطق المصادفة أو الإهمال في ظهور العائق مرتين، فلن

نستطيع ألا نسلم بوجود عمل متعمد وراء وجود قنبلة على الخط الحديدي قبيل مرور قطار الخديوي.

ويمكننا أن نفهم علاقة ذلك كله إذا ما ربطنا بين تلك الحوادث في مارس ١٩٠٨، وحركة المطالبة بالدستور في نفس الوقت مع إدراك وجود العديد من المنظمات السرية للحزب الوطني في ذلك الوقت.

وإذا كان اهتمام الحزب الوطني بانتزاع دستور الأمة يصل إلى حد تهديد حياة الخديوي، فضلا عن جمع التوقيعات والعرائض والمظاهرات، فإن من المؤكد أن الحزب الوطني كان لا يقبل ذلك على حساب قضية الجلاء أو يهملها في سبيل الدستور، ومما يؤكد ذلك أن محمد فريد نفسه قد رفض واستنكر قيام بعض المصريين بتقديم طلب إلى اللورد كرومر المعتمد في ٢١ أكتوبر ١٩٠٦، منددًا بذلك التصرف ومؤكدًا بأنه إذا كان الدستور حقًا طبيعيًا للأمة، فإن طلبه لا يكون من ممثل الاحتلال لأن الاحتلال غير شرعي، ولا يجوز لمصري الاعتراف به حتى ولو في مقابل الدستور.

ويقول محمد فريد في هذا الصدد أيضًا :" لو كان نيلنا الدستور معلقًا على طلب من الإنجليز فخير لنا أن نبقي بلاد بلا دستور من أن ننال بالاعتراف بأن للإنجليز حقًا أو شبه حق في بلادنا مهما رمونا بالتطرف والتهور، فلهم دينهم ولنا دين " [٤].

وعندما أجاب وزير خارجية بريطانيا على سؤال لأحد البرلمانيين الإنجليز قائلا " أنه لا يمكن لخديوي مصر منحها دستورًا إلا بعد استشارة الحكومة البريطانية " سارع الحزب الوطني وأرسل احتجاجًا على هذا الأمر

جاء فيه" يحتج الحزب الوطني بشدة على ما تخوله إنجلترا لنفسها من الحق في التدخل بين الأمة وأميرها في منح الدستور الذي تكرر طلبه " (٥).

وإلى جانب اهتمام الحزب الوطني بقضايا الجلاء ووحدة وادي النيل والدستور، أهتم أيضًا بنشر الفكر الثوري والرد على الإصلاحي والمهادن، وفي هذا الإطار نجد محمد فريد يهاجم هؤلاء القائلين بالفصل بين الطلبة والسياسة، وبين طالبي العلم عموما والسياسة، يقول محمد فريد :" يقولون دائمًا أن السياسة والعلم لا يجتمعان وأن السياسة يجب أن تحرم على رجال العلم وكان العلماء أو المنشغلين بالعلم يلزم أن يكونوا على الرأي القائل " بان لا وطن ولا وطنية "، فلا يهتمون بشئون بلادهم ويكون سواء لديهم إن كانت مستقلة أو خاضعة لسلطة أجنبية، وهو قول لا يصدر عن عاقل يعرف للوطن اسما " .

ويضيف محمد فريد :" تعرفون كلكم من هو "باستور" ذلك العالم الفرنسي الذي أكتشف ميكروب الكلب، وأكتشف علاجه وقضي حياته في خدمة علم الميكروب حتى أوصله إلى هذه الدرجة، وعندما أهداه إمبراطور ألمانيا نيشانًا رفض نيشان هذا الإمبراطور لأنه عدو بلاده وقاهر أمته، والمحتلة جنوده للالزاس وقسم عظيم من اللورين، فكتب إليه الإمبراطور أنه أهداه نيشانه بصفته عالمًا، والعلم لا وطن له، فأجابه هذا العالم الكبير بهذه العبارة " نعم إن العلم لا وطن له، ولكن للعالم وطنًا" وأصر على الرفض والإباء " (٦).

وكان رجال الاحتلال ودعاته والمرتبطين به ينادون دائمًا بـأن علـى الطلبة ألا ينشغلوا بالسياسة، وأن يكتفوا بتحصيل العلم، وهي حجة كل بنـي الاستعمار والاستبداد دائمًا، وأحيانًا تصل هذه المسألة إلى حد اتهـام الطلبـة بعدم طاعة والديهم ومدرسيهم، وقد ردت صحافة الحزب الوطني على ذلـك كله، بل اعتبرت الطلبة أنصارا طبيعيين للحزب الوطني، ودعتهم إلى نشـر المبادئ الوطنية الصحيحة في كل مكان في مصر.

وفي الحقيقة فإن قوي الاستبداد تعزف دائمًا على نغمة أن على الطلبة أن ينشغلوا بالعلم وأن على العمال أن ينشغلوا بالعمل، وكذلك الفلاحين وهكذا، ولكن سلوك الحزب الوطني ودعوته استطاعت أن تجعل الطلبة والعمال فـي طليعة القوى الوطنية والثورية، وأن تهتم بالفلاحين، وقد لعب الطـلاب دورًا هامًا في نشر مبادئ الحزب الوطني في كل مكان، كما لعبوا دورًا هامّ فـي التظاهر والإضراب والاعتصام، كما لعبوا أيضـًا دورًا أساسـيًا فـي بنـاء المنظمات السرية في ذلك الوقت، ولعب العمال أيضًا دورًا هامًا في الحركـة الوطنية وكذلك الفلاحين.

وفي إطار نشر الفكر والسلوك الثوريين نجد محمد فريد يدعو إلى النقد، والنقد الذاتي داخل الحركة الوطنية وعدم تأليه الزعماء الوطنيين وطـاعتهم طاعة عمياء، بل لابد من محاسبتهم إذا ما أخطئوا لأنهم بشر، غير معصومين من الخطأ يقول محمد فريد :" أطلب من حضراتكم إظهار نفوركم منـي لـو أتيت ما يخالف مبادئ حزبنا، ثم يقول يا قوم إياكم والمحاباة في الحق، يا قوم إياكم والمجاملة في الوطنية فهذه علامات على ضعف الأخلاق، ذلك الضعف بل ذلك الداء الدفين الذي يجب علينا محاربته بكل قوانا " [٧].

ومحمد فريد هنا يعتبر غياب النقد، والنقد الذاتي داء دفين يجب محاربته، وهو هنا يمثل امتدادا وتمثلا لروح الإسلام التي تدعوا إلى هذا الأمر تمامًا، ألم يقبل عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– النقد من امرأة على مرأى ومسمع من جميع المسلمين قائلا (أصابت امرأة وأخطأ عمر)، أليست هذه هي نفسها الدعوة التي وجهها أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما– إلى المسلمين (إذا رأيتموني على حق فأعينوني، وإذا وجدتموني على باطل فقوموني) بل عندما قام أحد المسلمين قائلا لعمر – رضي الله عنه– " والله لو وجدنا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا " رد عمر قائلا (الحمد لله الذي جعل في أمة الإسلام من يقوم اعوجاج عمر بسفيه)٠

وفي إطار ترسيخ الفكر الثوري والقضاء على الفكر الإصلاحي والتهادني نجد محمد فريد يقول :" يقول البعض أن من الهوس والتطرف أن نطلب الجلاء قبل أن تصبح الأمة كلها علماء، وأنه مادامت الأمة غير متعلمة فلابد من وجود مشرف علينا، وهذا قول يؤدي إلى استمرار الاحتلال إلى ما شاء الله، فهل يرجى إصلاح أو تعليم من الإنجليز وهم الذين أفسدوا كل شيء، كيف نرجو إصلاح من سالب استقلالنا؟! كيف ترجى مساعدة غاصب أبتلع بلادنا؟

لقد ترك بعضهم المطالبة بالجلاء وسموا هذا التحول اعتدالا في المبدأ، وما هو ألا خيانة كبرى للوطن، أنهم يوجهون شطر الإنجليز لطلب بعض الإصلاحات البسيطة تعمية على الرأي العام، وتضليلا له واغترارًا بوعود بعض الإنجليز الذين ألفوا ما سموه باللجنة البرلمانية المصرية لمساعدة هؤلاء المعتدلين على الإصلاح الداخلي بشرط عدم التعرض للاحتلال بكلمة،

وأستبشر بعض البسطاء خيرًا بهذا الاهتمام الظاهري الذي من ظاهره الرحمة، ومن باطنه العذاب، ونسوا الأمر الأساسي الذي لا يجوز أن يكون لنا مطلب غيره من الإنجليز ألا وهو الجلاء العاجل " (٨).

وكان بعض البرلمانيين الإنجليز قد استقبلوا وفدًا مصريًا أرسله الخديوي للمطالبة ببعض الإصلاحات في مصر، كما أن هناك بعض الأحزاب مثل حزب الأمة وحزب الإصلاح، كانت تنادي بالإصلاح أو التدرج في طلب الاستقلال، وفي الحقيقة فإن هذه المدرسة بدأت بشريف باشا، وقد رأينا كيف أنتهي به الأمر إلى لا شيء، ثم ظهرت مرة أخرى على يد رجال الخديوي أو الموالون للاحتلال مثل حزب الإصلاح وحزب الأمة، وقد استمرت هذه المدرسة في الوفد منذ ١٩١٩، وفي مقابل هذه المدرسة الإصلاحية كانت هناك المدرسة الثورية المتمثلة في الأفغاني والنديم وعرابي ثم مصطفي كامل ومحمد فريد، ثم الأخوان المسلمين ومصر الفتاة وهكذا.

وبالطبع هناك اختلاف في الدرجة بين القوى والأحزاب الإصلاحية على حسب المشارب والظروف، ألا أنها لا تخرج في النهاية عن إطار الإصلاح، ولا تصل أبدًا إلى حالة الثورة، بل هي تؤدي دورًا في تهدئة الأوضاع وتضييع الوقت، وفي لحظات المد الثوري تستدعيها قوي الاستعمار والاستبداد لتطويق الحالة الثورية وفض الجماهير وقد نجح الاستعمار في استخدام عناصر هذه المدرسة بنجاح باهر في تطويق ثورة ١٩١٩ على يد سعد زغلول، وتضييع نتائجها، وتضحيات أبناء الشعب فيها، وكان النجاح الاستعماري في تطويق ثورة ١٩١٩، بسعد زغلول ورفاقه كبيرًا لدرجة أن ثورة كبيرة مثل ثورة ١٩١٩ لم تظهر ثانية إلى الآن (١٩٩٠) برغم وجود

ظروف التبعية والاستبداد كما هي " كانت إنجليزية وأصبحت الآن أمريكية "، في حين أن مصر مثلا شهدت ثورة ١٨٨١ ثم ثورة ١٩١٩، أي أقل من ٣٨ عاما، بل أخطر من هذا أنه ما وصلت حالة المد الثوري إلى أفاق علية في نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات، نجحت القوى الاستعمارية في استخدام أسلوب جديد لإجهاض المد الثوري عن طريق الانقلاب العسكري الذي نفذه عملاء الأمريكان بقيادة عبد الناصر.

على كل حال، فإن محمد فريد كان حاسما في فهمة لتلك المسألة وحدد بطريقة رائعة أبعادها، وتطويق الحركة الوطنية.

وعلى مستوي التعليم اهتم الحزب الوطني أيما اهتمام بهذه المسألة على أساس أن التعليم أول فريضة إسلامية، وثانيًا ضروري لزيادة قوي حركة الكفاح الشعبي ضد الاحتلال، وفي هذا الصدد استمر الحزب الوطني يدعم ويشجع عملية إنشاء جامعة مصرية، وإتمام الجهود التي بذلها مصطفي كامل في هذا الصدد إلى أن تم وضع حجر الأساس لتلك الجامعة في ٣٠ مارس سنة ١٩١٤

وعلى مستوي التعليم الثانوي والعالي بذل الحزب الوطني جهدًا كبيرًا، وشجع الأغنياء على افتتاح المدارس في كل مكان، ودعا إلى وجود مدارس ثانوية وصناعية وتجارية في كل محافظة، أما على مستوي التعليم الابتدائي فقد دعا الحزب الوطني إلى وجوب جعله إلزاميًا ومجانيًا وفي هذا الصدد طالب محمد فريد :" بأن المساواة الحقيقية تقتضي بأن يكون التعليم الابتدائي مجانيًا لجميع طبقات الأمة فقيرها وغنيها بلا تمييز حتى يشب التلاميذ على

حب المساواة، ويعرفون منذ نعومة أظافرهم أنه لا تفـاوت بـين النـاس ألا بخدمة الأمة، وأن أقربهم إلى الله أتقاهم لا أغناهم " [٩].

ولم يقتصر الأمر على هذا بل دعا الحزب الوطني دائمًا إلى محو الأمية وتعليم العمال والفلاحين، وافتتاح مدارس الشعب الليلية لهذا الغـرض، وقـد وجه محمد فريد نداء بهذا المعني في خطبته في ٧ يناير ١٩١٠، قـائلا :" وعليكم أخواني بنشر مبادئ التعليم بين العمال والفلاحـين وتأسـيس المكاتب الليلية "۰

وكان الحزب الوطني قد بدا منذ أواخر ١٩٠٨ في إنشـاء عـدد مـن المدارس الليلية لتعليم الفقراء والعمال مجانًا فأنشأ في بولاق مدرسة من هـذا النوع وبدأت الدراسة فيها في نوفمبر سنة ١٩٠٨، ثـم وصـل عـدد تلـك المدارس أربعة مدارس سنة ١٩٠٩، في الخليفة وبولاق وشبرا والعباسـية، تحوي كل منها مائة وعشرين تلميذًا من مختلف الحرف، كما انتشرت هـذه المدارس في مختلف المحافظات، وقد ساهم نادي المدارس العليا فـي هـذه الحركة مساهمة كبيرة، وتألفت من خلال النادي لجنة لنشر تلـك المـدارس وتولي أعضاؤه التدريس فيها۰

وكان برنامج هذه المدارس يتناول المواد الآتية " القـراءة والكتابـة ــ دروس الدين ــ قانون الصحة والاحتياطات الصحية ــ العناية بتربية الأطفال ــ القوانين الخاصة بالمعاملات اليوميـة ــ الشـئون الاجتماعيـة ــ دروس العلوم ــ الحساب ــ تاريخ مصر ــ التاريخ الإسلامي ــ جغرافية مصر ــ أخلاق وآداب " [١٠].

وفي مواجهة الغزو الثقافي الذي كانت مدارس وإرساليات التبشير تقوم به، قام الحزب الوطني بجهد كبير في مواجهة ذلك الغزو، بل قام الورداني زعيم منظمة التضامن الأخوي السرية بالمشاركة مع الشيخ عبد العزيز جاويش رئيس تحرير اللواء، بإصدار صحيفة الهداية للرد على طعنات المستشرقين وشبيهاتهم حول الإسلام.

وفي إطار تحقيق التميز الفكري والثقافي والسياسي وزرع القيم الإسلامية في مواجهة الاحتلال والغزو الفكري، أهتم الحزب الوطني بالاحتفال بذكري هجرة الرسول ﷺ، وقد بدأت هذه السنة الحسنة لأول مرة سنة ١٩٠٨ م عام ١٣٢٦ هـ قبيل وفاة مصطفي كامل، وكثمرة من ثمرات الحركة الوطنية والشعور بالاعتزاز القومي، وقد أقام طلبة المدارس الثانوية حفلة بهذه المناسبة بدار التمثيل العربي ليلة الاثنين أول المحرم سنة ١٣٢٦ هـ "٣ فبراير سنة ١٩٠٨ م"، كما أقيمت حفلات بهذه المناسبة في حلوان و طنطا والإسكندرية، وميت غمر و دكرنس وغيرها.

وفي سنة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م كان الاحتفال بهذه الذكري أعظم وأفخم تبعًا لنمو الحركة الوطنية، واتساع مداها، وتولي طلبة المدارس تنظيم الاحتفال برعاية نادي المدارس العليا، وأقيمت حفلة بهذه المناسبة بدار التمثيل العربي، ألقيت فيها الخطب والقصائد الشعرية وتم فيها تحليل أوضاع العالم الإسلامي في العام المنصرم وأحلام هذا العالم وآماله وطموحاته في العام القادم .

وقد تكررت تلك الحفلات في كل مدن البلاد وقراها. [11]

وكنتيجة للضغط الشعبي واهتمام الحزب الوطني بهذه المسألة صدر قرار حكومي باعتبار هذا اليوم أجازة رسمية تعطل فيها الدواوين .

الدفاع عن المستضعفين فريضة إسلامية:

وقد ارتبطت الحركة الإسلامية الوطنية في مصر بقضية الدفاع عن المستضعفين أيما ارتباط، بل أصبح الدفاع عن المستضعفين والانحياز إلى الفقراء علما على تلك الحركة وإحدى تقاليدها الثابتة، وفي هذا الإطار اهتم الحزب الوطني اهتمامًا ضخمًا بقضايا العمال والفلاحين، فمن ناحية اهتم الحزب بنشر التعليم ومحو الأمية بين صفوف هذه الفئات عن طريق مدارس الشعب الليلية كما اهتم بأحوال العمال وتشكيل النقابات للدفاع عن حقوقهم وكوسيلة من وسائل الحشد والتعبئة في سبيل القضية الوطنية.

كان محمد فريد لا يفتأ يدعو إلى وضع التشريعات لحماية العمال والعناية بشئونهم يقول محمد فريد :" إلى الآن لا يوجد بمصر قوانين خاصة بحماية العمال ولا قوانين بتحديد سنهم ولا عدد الساعات التي يجب أن يقضونها في العمل، فنجد العمال متقلي الكواهل بلا رحمة، بل هناك من المعامل ما يشغل الأطفال ذكورًا وإناثًا مثل معامل حلج القطن، وذلك في وسط أردأ الأوساط من الوجهة الصحية "(١٢).

وطالبت صحف الحزب الوطني تحديد ساعات العمل، ووضع حد أدني للعمر فيمن يعملون بحيث لا يتم تشغيل الأطفال، وتحسين ظروف العمل وزيادة الأجور ووضع نظام للتأمينات الاجتماعية.

كما عني الحزب الوطني بتأسيس نقابات العمال والصناع لترقية حالتهم المادية والمعنوية، فأنشئت ببولاق سنة ١٩٠٩ أول نقابة للعمال في مصر

باسم " نقابة عمال الصنائع اليدوية " ووضع الحــزب الــوطني لهــا لائحــة وقانونًا، وقد ازدهرت تلك النقابة، وبلغ عدد أعضائها في ختام ســنة ١٩٠٩ نحو ثمانمائة عضو، عدا الأعضاء المساعدين من غير العمال، وحفل ناديهــا بالمحاضرات القيمة، فالقي فيها المرحوم عمر بك لطفي محاضرة مســاء ١٥ يناير ١٩١٠، عن أسباب ارتقاء العمال وكيف يرقي العامل في مصر ، وقــد سرت فكرة تأسيس النقابات في العواصم المختلفة والمدن الكبرى في مصــر فأنشئت نقابات لعمال الصنائع اليدوية في الإسكندرية والمنصــورة و طنطــا وغيرها على مثال نقابة القاهرة " (١٣)

ولم ينقطع جهاد الحزب الوطني ومحمد فريد في هذا الصدد، ففي خطبة محمد فريد في الجمعية العمومية السنوية للحزب الوطني في يناير ١٩١٠ قال محمد فريد :" العمال والفلاحون في بلادنا مهملون، فلا قانون يلزم المقــاول بدفع تعويض عن يموت شهيد عمله، أو يفقد أحد أعضــائه فيصــبح عــديم الكسب، ولا الحكومة تفكر في الدفاع عنه " وأضاف محمد فريد :" إن نقابات العمال قوة هائلة تخضع لها الحكومات وتطأطئ رأسها أمامها، وأنه بفضــل النقابات توضع القوانين التي تضمن منح عامل في الصناعة أو الفلاحة معاشا سنويا متى بلغ سنا معلومة ".

وفي الجمعية العمومية للحزب الوطني سنة ١٩١٢، قال محمد فريد :" ولابد لكم من العناية بنقابات العمال وبث مبدأ التضامن بينهم والــدفاع عــن حقوقهم، واستصدار القوانين الضامنة لهم بعدم التكفف عنــد الشــيخوخة أو عقب الإصابة مما يمنعهم عن الكسب، نري الآن العامل إذا سقط من شــاهق أو إذا قطعت يده مثلا لا يجد من مستخدمه أو من الحكومة عقدًا أو نصيرًا بل

ولا يجد نقابة تساعده، ولا راحم ولامعين ولا مخلص للعامل من هذا الجحيم ألا النقابات، فتعالجه إذا مرض وتصرف له الأدوية إما مجانًا أم بثمن قليـــل، وإذا مات ساعدت على تربية أولاده وإذا أصيب بما يمنعه عن الكسب رتبت له ما يقيه ذل السؤال مقابل قليل من المال يدفعه لها شهريا "٠

وأضاف محمد فريد في نفس الخطبة :" أرجعوا البصر إلى حال العمال في مصر سواء عمال الزراعة، وأقصد بهم جماعة الفلاحين الذين لا يملكون أرضا يعيشون من العمل باليومية أو من استئجار الأراضي، وانظـــروا إلـــى تحكم الشركات الأجنبية، مثل الترامو ي والسكك الحديديـــة ومشـــاكلها فـــي العمال، وانظروا إلى الفلاح المستأجر وإلى ما يفرضه عليه مالك الأرض من الإيجار الباهظ تجدوا أنهم في أشد دركات الفقر فالعامل لا يحصل على قوت يومه ألا بعد أن يشتغل أثني عشر ساعة كل يوم على الأقل، والفلاح لا يصل إلى ما يسد الرمق من أردأ أنواع الخبز بلا إدام إلا بشق الأنفس، كـــل ذلـــك ناشئ من فقدان مبدأ الاجتماع والتضامن بينهم، وإهمال سراة البلد كـــل مـــا يتعلق بأمورهم الخاصة وعدم التفات الحكومة إلى ترقية شأن العامل والفلاح، والاحتلال يريد أن تبقي هذه الطبقة كقطيع الغنم يؤمرون فيطيعون، عائشـــين عيشة السائمة، جاهلين حقوقهم وحقوق بلادهم "٠

وإذا كان محمد فريد هنا قد دافع عن الفلاح مع العامل، فأنه كان يـــدافع عن الفلاح دائما باعتباره أكثر الطبقات المظلومة وأوسعها انتشارًا فهو يقـــول :" كلنا يعلم أن الفلاح لا يملك قوت غده، ويجب تخليص الفلاحين من أيـــدي المرابين "٠

وربط محمد فريد إصلاح حال الفلاح بالاهتمام بمسألة التعاون الزراعي خصوصًا وكيف أن الحكومة تحاربها يقول محمد فريد في خطبة سنة ۱۹۱۰ أمام الجمعية العمومية للحزب الوطني :" كلنا يعلم كيف حاربت الحكومة الحركة التعاونية وخاصة في مشروع النقابات الزراعية الذي قام به المرحوم عمر بك لطفي، واستطاع أن ينشره، وأسس بعض النقابات ثم وضع مشروع النقابة العامة، لكن الحكومة التي عرقلت المشروع لم تنجح في القضاء عليه، فنجحت الفكرة وتم تأسيس خمسة عشر نقابة زراعية وسبع شركات تعاون منزلي، وشركة تعاون مالى واحدة والأمل معقود بازديادها بعد أن ظهرت نتائجها وأصبحت ملموسة باليد "۰

ثم يتطرق محمد فريد إلى محاربة السلطة الإنجليزية لهذه المسألة قائلا :" لم يرض الاحتلال بهذه الحركة المباركة شأنه مع كل حركة تعلم المصريين التضامن على جلب المنفعة أو منع الضرر، فلم تقبل الحكومة إلى الآن، أنظر في مشروع تعديل بعض مواد القانون التجاري تسهيلا لتشكيل النقابات مع أنه قد مضي ثلاث سنوات على تقديمه لها بل أهملته كما تهمل كل مشروع يقول به الوطنيون مهما كان نفعه "۰

وفي إطار دفاع محمد فريد عن الفلاح قال في خطبته أمام الجمعية العمومية للحزب الوطني سنة ۱۹۱۰ :" يتحمل الفلاح المصري اكبر جزء من عبء الضرائب والميزانية "، ودعا إلى تخفيف تلك الضرائب قائلا :" يجب على الكتاب والخطباء أن يطرقوا هذا الباب ويشرحوه شرحًا وافيًا حتى يقف الرأي العام على ما يصيب الفلاح من الظلم الفادح لتحمله ما يقصم ظهره من الضرائب، ويجب على المشتغلين بتشكيل النقابات الزراعية أن

يهتموا بسرعة إنجازها حتى تشتغل بتخفيف الضرائب على الفلاح وتحسين حالته المسكينة، فهو يكد طول سنينه هو وزوجته وأولاده، ولا يحصل إلا على القوت الضروري "٠

ويضيف محمد فريد :" الفلاح المصري أتعس فلاح في العالم، ولا خلاص من هذه الحالة ألا بنشر التعليم الابتدائي، وجعله إجباريًا، وبتشكيل نقابات زراعية للدفاع عن حقوقه أمام الحكومة، وأمام الملاك الذين يزيدون عليه الإيجارات بمناسبة وبدون مناسبة، وأمام المرابين الذين يأخذون منه ما يبقي لهم بين جشع الحكام وظلم الحكومة "

وبالإضافة إلى ذلك كله نجد أن الحزب الوطني قد أهتم أيضًا بالدعوة إلى الاهتمام بالأحياء الشعبية، والشئون الصحية عامة، ودعا إلى إنشاء مجلس بلدي بالعاصمة.

ففي بيان محمد فريد أمام الجمعية العمومية للحزب الوطني سنة ١٩١٠، قال محمد فريد :" إن هناك إهمال للأحياء الوطنية وعدم الاعتناء بصحة الأهالي لدرجة مروعة إذ ثبت بالإحصاء أن متوسط الوفيات في السنة يتراوح بين ٦٠، ٨٠ في الألف مع أنها في لندن ١٨ في الألف، وفي باريس ٢٠، وفي باقي مدن أوروبا لا تزيد عن ٢٥ في الألف مطلقًا، وليس هذا لفقر الميزانية المصرية، ولكن من إهمال الحكومة وصرفها المبالغ المخصصة لذلك في الإحياء التي يقطنها الإفرنج، وإهمال باقي الأحياء، فبينما تجد شوارع جاردن سيتي والقصر العيني مرصوفة وبها الأنوار تتلألأ، حيث لا سكان ولا أنيس، تجد أحياء برمتها لا ينفذ إليها نور الشمس نهارًا ولا يوقد

فيها مصباح ليلا، ولا تعرف للكنس والرش اسما، مما يؤدي إلى وفيات الأطفال بسبب هذا الإهمال وتراكم الأوساخ في الحارات "٠

وفي خطبة محمد فريد في الجمعية العمومية للحزب الوطني سنة ١٩١٢، دعا إلى إنشاء طرق وسكك حديدية في المناطق السكانية لخدمة الأهالي بدلا من إنشائها بالقفار لخدمة الاحتلال ومشروعاته :" بينما تؤجل الحكومة خط السكك الحديدية بين الصالحية والقنطرة، وبين أسوان ووادي حلفا، تقوم بمد تلك السكك في القفار "٠

وهكذا نجد الحزب الوطني كان منحازًا انحيازًا شاملا إلى الفقراء والعمال والفلاحين، وقدم في هذا الصدد إسهامًا عظيمًا ورائدًا، فهو أولا يوضح الحالة التي عليها الفلاح والعمال والأحياء الفقيرة، وهو يعمل لنشر الوعي بين تلك الفئات عن طريق محو الأمية ونشر التعليم حتى يعرف هؤلاء حقوقهم ويطالبون بها، وهو أيضًا يحدد أعداد هذه الفئات بدقة مثل الاحتلال والحكومة والمرابين وكبار الملاك، ثم هو يرسم الطريق الصحيح لانتزاع تلك الحقوق عن طريق عمل نقابات وتجمعات تدافع عن حقوق هذه الفئات المسحوقة٠

وهنا يبرز سؤال هام جدًا، هل كان الحزب الوطني اشتراكيًا ؟

وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن نحدد أولا المقصود بالاشتراكية هنا، فإن كانت تعني الاشتراكية التي تنطلق من الفكر الفلسفي الأوروبي الماركسي أو غير الماركسي، فالحزب الوطني كان أبعد ما يكون عن هذا وإن كانت

تعني الاشتراكية " العدالة الاجتماعية " فهو هنا أكثر اشتراكية من كل الأحزاب والمنظمات والاتجاهات التي ظهرت في ذلك الوقت.

نعم كان الحزب الوطني حزبًا اشتراكيًا بمعني انحيازه إلى الفقراء والمستضعفين انطلاقا من العقيدة الإسلامية، ووفقا للبرنامج الإسلامي الذي خرج الحزب من خلاله، وفي الحقيقة فإن الإسلام يحمل رؤية متميزة في هذا الإطار من خلال الكتاب والسنة وسلوك الرسول ﷺ والصحابة، وفي الحقيقة فإن هذه الرؤية كانت القاعدة التي انطلقت منها مبادئ ورؤية الأفغاني والنديم والحزب الوطني(مصطفي كامل، ومحمد فريد) في هذا الإطار.

وفي الحقيقة أيضًا أنه لو قدر لتلك المبادئ أن تري النور في هذا العصر لتغير وجه التاريخ، وفي الحقيقة أيضًا أن البشرية قد خسرت خسارة كبيرة حينما ربطت :بين الاشتراكية والفكر المادي الماركسي في هذا العصر ، فأساءت إلى نفسها وإساءات إلى الاشتراكية وانتهي الأمر إلى إفلاس مروع للاشتراكية، وضياع الأمل في انتصار المستضعفين، وكسر شوكة الاستكبار.

وعلى أي حال فإن على المؤمنين حقًا بالعدالة الاجتماعية، والمنحازين حقًا للفقراء والمستضعفين، والذين يريدون النضال ضد المستكبرين و الرأسماليين أن يدركوا الآن خطأهم التاريخي، ويتوبوا عنه وأن يعتمدوا على الأيدلوجية الإسلامية لحشد الفقراء والمستضعفين في العالم اليوم، باعتبار الأيدلوجية الإسلامية هي القادرة نظريًا وعمليًا على مواجهة الحضارة الاستكبارية ودوائر الرأسمالية بعد الفشل المدوي والسقوط الذريع للماركسية.

وعلى كل حال فإن واجب الإسلاميين المعاصرين، وواجب المؤمنين بالعدالة الاجتماعية أن يتعاونوا في هذا الإطار من أجل إنقاذ العالم من الاستكبار والرأسمالية، ومن أجل الفقراء والمستضعفين، وفي الحقيقة فإن الحزب الوطني حاول أن يلعب هذا الدور فشارك في كل المؤتمرات الاشتراكية التي عقدت في أوروبا وغيرها، وحاول أن يقدم أيدلوجية الإسلامية في هذا الإطار، ولكن لم يكن هناك أحد يسمع هذا الصوت بعد أن غطي دعاة المادية بأصواتهم المرتفعة على الأسماع، وفي هذا الصدد أيضًا نجد أن حزب مصر الفتاة بقيادة أحمد حسين قد حاول أن يؤدي هذه المهمة مرة أخرى ألا أن صوته أيضًا ضاع في الزحام، " اشترك حزب مصر الفتاة في المؤتمرات الاشتراكية، وقدم برنامجًا إسلاميًا للعدالة الاجتماعية في الأربعينات ".

نعم كان الحزب الوطني يحرص على الانحياز للفقراء انطلاقًا من الإسلام والحزب الوطني برمته في كل شيء برنامجًا أو سلوكًا أو ظرفًا تاريخيًا، كان حزبًا إسلاميًا، وكان أيضًا إسلاميًا في جماهيره وقياداته على السواء، وكان الحزب صريحًا في فهمه للاشتراكية التي يؤمن بها بأنها اشتراكية الإسلام، وتعبر صحيفة الشعب الناطقة بلسان الحزب الوطني عن هذا الأمر في عدد ٢٢ مايو ١٩١٠، بقولها " نعم نحن ندعو إلى عودة مصر إلى الإسلام، وندرك أن الدين الإسلامي جاء بأكثر مما جاءت به الحركة الاشتراكية في أوروبا ".

على أن المسألة لا يكتمل فهمها ألا إذا أدركنا أن الحزب الوطني كـــان أيضًا يعمل على تنظيم وحشد العمال والفلاحين والفقراء، في تنظيمات مستقلة ونقابية، ويعمل على تبصيرهم بحقوقهم، ومحاولة انتزاعها في إطار استخدام تلك الفئات في العمل الوطني أيضًا إلى جانب جانبها الاجتماعي، ولا تعارض بالطبع هنا فتحرير العمال والفلاحين من الظلم هو حشد لهـذا القـوى ضـد الاحتلال، والنضال ضد الاحتلال يحمل بدوره نضالا ضد علاقـات التبعيـة والاستغلال، وضد الخديوي وكبار الملاك والمرابين والشـركات الأجنبيـة، وكلهم كان يسهم في مص عرق العامل والفلاح.

على أن هذا الأمر يطرح ضرورة فهم رؤية الحزب الـوطني لمسـألة الاستقلال، فهل هو مجرد استقلال سياسي برحيل جيش الاحـتلال ؟ أم أنـه استقلال شامل ؟، وفي هذا الصدد نجد أن عمر لطفي قد عبر عـن المسـألة حينما أكد على أهمية الاستقلال الاقتصادي، وقطع خيوط التبعية [١٤].

ومحمد فريد لا يفتأ يدعو أنصاره لإحياء الحركة التعاونية والمشروعات الاقتصادية [١٥]، بل يقول باللفظ :" إن استقلال مصـر الاقتصـادي مـرتبط باستقلالها السياسي " [١٦] .

بل ويدعو الحزب الوطني إلى إنشاء المدارس الصـناعية، والمعاهـد العلمية، ويدعو إلى إرسال البعثـات العلمية إلى أوروبا في هذا الإطار، بـل يرسل بعض الطلبة على نفقته.

وفي البرنامج الذي قدمه محمد فريد إلى الجمعيـة العموميـة للحـزب الوطني سنة ١٩١٠، يدعو محمد فريد إلى فرض الجمارك على السلع التـي يوجد مثلها في البلاد حماية للصناعة الوطنية وتشجيعًا لها، وعدم فرض تلك

الجمارك على الحبوب والغلال وحاجات الفقراء، ويتعجب محمد فريد من فرض رسوم جمركية على الفحم الحجري اللازم للصناعة، وعدم فرض تلك الرسوم على الحرير والخمور مثلا، ويهاجم محمد فريد سياسة فرض الضرائب على غزل القطن في مصر قائلا :" من العجب أن الحكومة فرضت ضرائب على ما يغزل من القطن في مصر، فأماتت مصانع الغزل والنسيج في مصر لصالح المصانع الإنجليزية، في حين أنها لم تفرض شيئًا من ذلك على مصانع الخمور التي تصنع في مصر ولا على مصانع البيرة في القاهرة والإسكندرية، فضلا عن أن الإسلام يحرم الخمور " :" إن هذه الأمور مخالفة للعقل والعلم والدين ولا توجد إلا بمصر حيث الاحتلال يدبر الأمور لغاية واحدة هي النهب " (١٧).

وهكذا عكس الحزب الوطني فهمًا رائعًا لقضية الاستقلال، وقطع خيوط التبعية وحماية المنتجات، وفضح السلوك الاستعماري في هذا الإطار وأبان أهدافه وغاياته.

يري د. عصام ضياء الدين أن كل من الورداني وجاويش كانا وراء تأسيس أول نقابة عمالية في مصر، وهي نقابة عمال الصنائع اليدوية، وهكذا يؤكد خروج الحركة النقابية من رحم المنظمات السرية للحزب الوطني، أي أن الهدف منها كان وطنيًا بالإضافة إلى بعدها الاجتماعي الطبيعي.

يقول د. عصام ضياء الدين " وما يلفت النظر في تأسيس نقابة عمالية وطنية بمعني الكلمة وهي نقابة الصنائع اليدوية أنها ولدت على يد الورداني وجاويش بما بذلاه معًا من جهود في تأسيسها ووضع قانونها"[١٩]

وفي الحقيقة فإن مذكرات محمد فريد تؤكد هذا الرأي، حيث أن محمد فريد يقول : " إن الورداني كان مولعًا بالاشتغال بنقابات العمال(٢٠)

ويلخص أيضًا د. عصام ضياء الدين إلى أن مدارس الشعب التي أسسها الحزب الوطني كانت بدورها من أجل النقابات الوطنية أساسًا، وأن الشيخ عبد العزيز جاويش وتلميذه النجيب إبراهيم الورداني قد لعبوا دورًا في إنشائها مما يؤكد صلتها بالمنظمات السرية للحزب الوطني، يقول د. عصام ضياء الدين في هذا الصدد " وإذا كان الهدف الاسمي لهذه المدارس هو رفع مستوي تعليم الطبقات العاملة إلا أن المقصود منها في الواقع كان نشر المبادئ الوطنية، والثورة بين الطبقات الدنيا، حيث كان يدرس بها النظريات الثورية، وكراهيته للاحتلال وقوة الإسلام، وفوائد الاتحاد وواجبات المسلم لبلده وعقيدته، وخبث الأجانب ومستقبل مصر المسلمة، ونزاهة الحزب الوطني وفضائل مصطفي كامل "، وأن كل ذلك كان لغايات ثورية.

ويضيف د. عصام ضياء الدين: " كانت هذه وسيلة من الوسائل التي لجأ إليها الحزب حتى يضم الحركات العاملة إلى حركته، وقد لعبت هذه المؤسسات بل وامتد نشاط الحزب إلى القري، حيث عمل على إنشاء النوادي الريفية لنشر الاضطرابات والإثارة بين صفوف الفلاحين مما أدي بالفعل إلى حدوث نتائج خطيرة ".

ويكمل د. عصام ضياء الدين " وهكذا لجأ الحزب إلى القواعد في المدن والريف لتحريرها أولا والعمل على تجنيدها ثانيًا، وكانت وسيلته في ذلك الجمعيات السرية، ومدارس الشعب السياسية والنقابات بكافة أشكالها والأندية التي سعي في تأسيسها فأصبح لدي تلك القواعد رصيد كبير من الوعي السياسي والاجتماعي".

وهكذا أثبتت الحركة الإسلامية في مصر إيمانها بالنضال الاجتماعي إلى جانب النضال الوطني، بل ونشأ النضال الاجتماعي أصلا من رحم الحركة الإسلامية الوطنية، ولم يكن هناك فصلا بين النضال الوطني والنضال الاجتماعي، فالنضال الوطني يقود إلى النضال الاجتماعي ويفجره، والنضال الاجتماعي يقود إلى النضال الوطني ويزيد قاعدته.

معسكر الشعب في مواجهة الاحتلال والخديوي والعملاء

كان الحزب الوطني بفضل جهود مصطفي كامل،ومحمد فريد، وعبد العزيز جاويش، وإبراهيم الورداني، وعمر لطفي وغيرهم كثير، قد استطاع أن يصل إلى درجة كبيرة من القوة والاتساع على مستوي النضوج الفكري والتنظيمي والجماهيري، وكان الحزب قد استطاع أن يعيد تنظيم نفسه، وأن يشكل العديد من المنظمات السرية ، ولعل حالة القوة هذه التي وصل إليها الحزب الوطني عقب وفاة مصطفي كامل سنة ١٩٠٨، قد أدت إلى تحالف كل القوى المضادة للشعب فتناسست تناقضاتها الثانوية، مثل الاحتلال والخديوي والعناصر المرتبطة بالاحتلال، مثل حزب الأمة والمرتبطة بالخديوي، مثل حزب الإصلاح، وشهدت مصر معسكران متصارعان هما الشعب بقيادة الحزب الوطني في مواجهة الاحتلال والخديوي والأحزاب العميلة.

وكان من الطبيعي أن يندلع صراع يومي وسافر بين المعسكرين، وشهد عام ١٩٠٨ مظاهرة طلبة الحقوق احتجاجًا على عرض الجيش الإنجليزي بميدان عابدين في ٩ نوفمبر ١٩٠٨، وفي ٢٣ نوفمبر أعتصم طلبة كلية الهندسة وتضامن معهم طلبة الحقوق، وطلبة مدرسة الصناعة، وعقد الطلاب مؤتمرًا حاشدًا في الأزبكية في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٨، في يوم عقد المؤتمر

العام للحزب الوطني والقوا الخطب النارية ضد الاحتلال والخديوي، وسار هؤلاء في مظاهرات أنضمت إليها جموع الشعب بحيث أصبحت القاهرة بأكملها ميدانًا للمظاهرات التي تهتف للحزب الوطني، وتندد بالاحتلال والخديوي والأحزاب والصحف العميلة، وانهمرت أيضًا خطابات التهديد على الخديوي، ووزير المعارف " سعد زغلول " وغيره من الوزراء والوجهاء الموالين للخديوي أو الاحتلال، وتعرض الخديوي لأكثر من محاولة للتخويف عن طريق وضع قنابل أمام قطاره الخاص أو ظهور عوائق أكثر من مرة على خط السكك الحديدية أثناء مرور قطار الخديوي.

وبالإضافة إلى ذلك دخلت الحركة العمالية في المعركة فاضرب الحنطورجية في القاهرة، وعمال الشحن في بور سعيد، واعتصم عمال شركة الترام، وقد أيدت اللواء كل هذه الأعمال وباركتها ودافعت عنها وأعلنت " أن أسلوب الإضرابات هو الملجأ الوحيد للعمال في طلب حقوقهم بصورة جماعية فهو حق من حقوق الأفراد والجماعات، واستعماله استعمال للحرية الشخصية وتعطيله تعطيلا لها " [٢١].

وفي نفس العام ١٩٠٨ تصاعدت الإضرابات العمالية، واحتل العمال مخازن هيئة السكك الحديدية في بولاق وشبرا والجيزة، وحجزوا القطارات في المخازن، وطالبوا بحقوقهم العادلة في تحديد أوقات العمل، وتحديد الأجور بالنسبة لطبيعة العمل بعد أن حاف بهم الجور، وطالبت صحيفة الحزب الوطني الرسمية " اللواء" الشركة الاستجابة إلى مطالبهم، وألقت اللوم على الحكومة لموقفها السلبي، وأكدت على أن العمال المصريين يصيرون إلى الحياة الحية على جسر من التضامن الأخوي[٢٢]

وكانت تلك الإضرابات العمالية – في مجموعها – توكيدًا على التحـام الطبقة العاملة بالنضال الوطني، فبالرغم من الإطار الاجتماعي الذي أتسم به الإضراب إلا أنه كان يخفي في جوهره مضمونا سياسيا ووطنيا (٢٣).

وفي الحقيقة فإن مصر سنة ١٩٠٨ كانت تعيش حالـة مـن النضـال والثورة لم تشهدها منذ أيام عرابي، ويعلق سعد زغلول على هذا الأمر بقوله :" يظهر من هذه الحوادث ا أن هناك حركة ضد الهيئة الحاضـرة عمومًـا والخديوي خصوصا، فتظهر هذه الحركة تارة بمظهر الطعن عليه في الجرائد المختصة بالحزب الوطني والمشايعة له، وتارة بخطابات التهديـد والإدانـة برسائل القذف التلغرافية، وحينًا بالمظاهرات في الطرق والشوارع، وزمانًـا بالفرقعة، ولا يدري إلا الله عاقبة هذه الحركة التي يمكن اعتبارها إرهاصًـا لحدوث انقلاب عظيم " (٢٤).

وفي عام ١٩٠٩ شهدت مصر تصاعدًا رائعًا في النضال الجمـاهيري ضد الاحتلال والخديوي، ففي ٢٤ يناير أضرب الطلاب عن الدراسة وعقدوا اجتماعات حاشدة للتنديد بالاحتلال والخديوي، وقد بدأت تلـك الحركـة فـي الأزهر، وسرعان ما تضامن معها باقي طلبة المدارس والمعاهد في القـاهرة والمحافظات الأخرى.

وفي ٢٧ يناير نظم طلاب الأزهر مظاهرة سارت إلى قصـر عابـدين حيث هتفوا هتافات شديدة ثم عرجوا على مقر جريدة اللواء ونـادوا بحيـاة الحزب الوطني، وفي اليوم التالي عقد طلاب الأزهر اجتماعـا فـي حديقـة الجزيرة وأنضم إليهم جماعات من الطلبة من المدارس العليا ونظموا مظاهرة ضخمة وصفتها اللواء بأنها كالجيش المنتظم فقصـدوا دار اللـواء وهتفـوا

للحزب الوطني ثم قصدوا جريدة المؤيد الموالية للخديوي فهتفوا بسـقوطها، وفي النهاية اصطدم الطلاب بالبوليس واستعملوا الحجارة في مواجهته، وتـم إلقاء القبض على عدد من الطلبة الثائرين "، وفي الأيام التالية استمر طـلاب الأزهر في الإضراب عن الدراسة، واعتصموا داخـل الأزهـر وفـي الشـوارع المجاورة له وتدخل البوليس بقوة كبيرة لفض هذه الحالة التي فرضتها الطلبة (٢٥).

ويري د. عصام ضياء الدين أن الشيخ عبد العزيز جاويش كانت له اليد العليا وراء هذا الاعتصام، وأن الطلبة الأزهريين كانوا يتلقون التعليمات منه، وأن جمعية الإصلاح الأزهري كانت وراء هذا الإضـراب الكبيـر، وهـي الجمعية التي كانت يتزعمها الشيخ علي أحمد الجرجاوي الذي عـرف بأنـه داعية لأفكار الحزب الوطني (٢٦) .

وفي ١١ فبراير ١٩٠٩ سير الحزب الوطني موكبا وطنيا كبيـرا فـي ذكري وفاة مؤسس الحزب مصطفي كامل، كنوع من إعلان التمسـك بمبـدأ الجلاء، وإظهار قوة الجماهير ومدي إيمانها بالحزب الوطني ومبادئه.

وبإزاء تصاعد العمل الوطني والجماهيري، لجأت سـلطات الاحـتلال والخديوي إلى إعادة العمل بقانون المطبوعات بهدف تقييد حرية الصـحافة، وأصدر مجلس الوزراء قرارًا بهذا الشأن في ٢٥ مارس ١٩٠٩، وقد اجتمعت اللجنة الإدارية للحزب الوطني في يوم صدور هذا القرار وقررت الاحتجـاج عليه، كما نشطت صحافة الحزب في مهاجمة القـرار الـذي يخـول وزارة الداخلية حق إنذار الصحف وتعطيلها مؤقتًا أو نهائيًا دون محاكمة أو دفاع، إلا أن الاحتجاج الأساسي على هذا القرار كان تنظيم الحزب الوطني لمظاهرات ضخمة للتنديد بهذا القرار وسلطات الاحتلال والخديوي.

ففي يوم الجمعة ٢٦ مارس ١٩٠٩ ن أي في اليوم التالي لصدور القرار الوزاري لتقييد حرية الصحافة، تجمع أكثر من عشرة آلاف متظاهر من طلبة المدارس العليا والأزهر والعمال والصناع والتجار، وعقدوا مؤتمرًا في حديقة الجزيرة، ثم ساروا في مظاهرة ضخمة اخترقت شوارع القـاهرة حتـى ميدان الأوبرا.

وتجددت المظاهرات في يوم الأربعـاء ٣١ مـارس، وزادت الأعـداد المشاركة فيها، وسارت المظاهرات إلى عابدين، حيث أصطدم البوليس بهـا، وتكررت المظاهرات في أول أبريل وبلغ عدد المتظاهرين ١٢ ألف متظاهر، وخطب فيهم الخطباء واتجهوا إلى ميدان الأوبرا، وهناك نشبت معركة حقيقية بين المتظاهرين والبوليس الذي كان يقوده هذه المرة هارفي باشـا حكمـدار القاهرة الإنجليزي، وقد تم اعتقال عدد من المتظاهرين، كما تمت محاكمة عدد من قيادات الحزب الوطني بتهمة التحريض وإهانة الحكومة، وقـد صـدرت أحكام ضد بعضهم مثل احمد أفندي حلمي "ستة أشهر" وعددًا آخـر بثلاثـة اشهر مع إيقاف التنفيذ.

وإذا كان القرار الوزاري بتقييد حرية الصحافة قـد وجـد معارضـة واسعة، فإن الحكومة لم تتراجع بشأنه، بل تمادت في نهجها على أسـاس أن أحداث ١٩٠٨ ــ ١٩٠٩ كانت توحي بزيادة قوة وانتشار الحـزب الـوطني بحيث أنه أصبح خطرًا على الاحتلال والخديوي، وهكـذا وضـع الاحـتلال والخديوي خطة لتطويق وإضعاف الحزب الوطني، وقد بدأت هـذه الخطـة بصدور قانون تقييد حرية الصحافة ثم تلي ذلك اعتقال الشيخ عبـد العزيـز

جاويش ومحاكمته عن مقال له في اللواء في ذكرى دنشواي وقد صدر الحكم بحبسه ثلاثة اشهر مع النفاذ، وبالفعل دخل الشيخ جاويش رئيس تحرير اللواء السجن، وقضى مدة العقوبة مرفوع الرأس دون أن تلين له قناة.

واستمرت الحكومة في خطتها التقليدية في تطويق وإضعاف واضطهاد الحزب الوطني، فأنذرت جريدة اللواء في ٢٥ أغسطس ١٩٠٩، ثم سارت الحكومة خطوة أخرى كبيرة في هذا المجال فأصدرت قانون النفي الإداري في ٤ يوليو ١٩٠٩، ثم أصدرت قرارات لفرض الرقابة على التمثيليات والمسرحيات، وأسست ما يسمي " بمراقبة التمثيليات " وذلك أيضًا للتضييق على استخدام هذا الإطار الفني في الحشد الوطني، وكان أعضاء الجمعيات السرية يستخدمون أسلوب التمثيليات كوسيلة من وسائل التعبئة الوطنية.

وبرغم كل هذا التعسف الحكومي وإصدار القوانين المقيدة للحريات، وسجن واعتقال الوطنيين، فإن الحركة الوطنية المصرية لم تتأثر بل ازدادت قوة، وظهرت هذه القوة جلية في قيام طلبة الحقوق بالتظاهر احتجاجًا على عرض الجيش الإنجليزي في عابدين كعادتهم السنوية في ٩ نوفمبر ١٩٠٩، وكان طلبة الحقوق قد بدأوا هذا التقليد في ٩ نوفمبر ١٩٠٨.

ومما يؤكد أن تلك الاجراءات لم تؤثر في الحزب الوطني، أن أحداث ١٩١٠ ــ ١٩١٢ قد أثبتت استمرار صلابة الحزب الوطني وزيادة قدراته لدرجة أنه استطاع أن يسقط إمكانية مد امتياز قناة السويس التي حاول الإنجليز الحصول عليها بموافقة الخديوي والوزراء، بل وبدفع رشوة للخديوي ولبطرس غالي.

على أن د. عصام ضياء الدين، يري أنه بنهاية عام ١٩٠٩ كان محمد فريد يعد العدة لتفجير ثورة شاملة، فقام بعمل الاستعدادات المطلوبة لتطوير الحزب الوطني إلى منظمة سياسية وسرية كبرى، وتنظيم الحزب لأداء إعماله السياسية الخطيرة المنتظر حدوثها، والسيطرة الكاملة للجهاز السري للثورة على لجان الحزب وفروعه، وقد أعتمد محمد فريد في هذا الصدد على الورداني ومحمود حسيب [٢٧].

ومع بداية ١٩١٠ كان على الحزب أن يخوض معركة كبرى ضد المشروع الإنجليزي بمد امتياز شركة قناة السويس، خاصة وأن الإنجليز كانوا قد نجحوا في الحصول على تأييد الخديوي وبطرس غالي لهذا المشروع عن طريق دفع الرشوة لهما.

وقد لعبت صحافة الحزب الوطني دورًا هامًا في كشف المشروع مبكرًا، والتنبيه على خطورته وخسارة مصر فيه من الناحية السياسية والناحية المالية، وقد دخل محمد فريد بنفسه المعركة، وكتب عددًا من المقالات تحمل نفس المعني، كما أنتقد محمد فريد هذا المشروع في بيانه أمام الجمعية العمومية للحزب الوطني، واحتجت اللجنة الإدارية للحزب الوطني على هذا المشروع احتجاجًا شديدًا، ولكن الحكومة صممت على المضي قدمًا في تنفيذ هذا المشروع الذي يقضي بمد امتياز قناة السويس ٤٠ عامًا أخرى، وهو الأمر الذي يشكل خطرًا على مستقبل مصر السياسي، ويعد تفريطًا في حقوقها وخيانة لحاضرها ومستقبلها.

ولم يجد الحزب الوطني أمامه طريقة لواد هذا المشروع الخطير على مستقبل مصر إلا استعمال لغة القوة ة والاغتيال، فقامت قيادة الحركة السرية

المكونة من محمد فريد، وعبد العزيز جاويش، وإبراهيم الورداني باتخاذ قرار باغتيال بطرس غالي رئيس الوزراء، وبالفعل قام إبراهيم الورداني بتنفيذ العملية يوم ٢٠ فبراير ١٩١٠، وسلم نفسه للبوليس وأعلن بصراحة أنه قتل بطرس غالي ليمنعه من مد امتياز قناة السويس، ولأنه خائن فهو المسئول عن توقيع اتفاقية ١٨٩٩ المشئومة بشأن السودان والتي أطلقت يد الإنجليز في السودان على حساب مصر، وأنه أعاد العمل بقانون المطبوعات وقيد الصحافة، ولأنه ترأس محكمة دنشواي، وبهذه الطريقة حقق إبراهيم الورداني الأثر السياسي المرجو من الحادثة، وفي نفس الوقت ظل متماسكًا طوال المحاكمة، وحتى بعد صدور حكم الإعدام عليه، الأمر الذي جعل من الصعب على سلطات الاحتلال والخديوي اكتشاف دليل مادي على علاقة الحزب الوطني بالحادثة، وعلى طبيعة المنظمات السرية التابعة للحزب الوطني.

وفي الحقيقة فإن عملية الاغتيال قد نجحت في وأد المشروع وجعلت جميع الأطراف المتحمسة له من الاحتلال والخديوي والوزراء تراجع حساباتها، وتدرك أن الأوضاع السياسية في مصر في ذلك الوقت لا تسمح بتمرير هذا المشروع بسهولة، إلا أن تلك القوى أدركت أن الحزب الوطني أصبح يمتلك جهازًا سريًا كبيرًا، وأن عليها أن تسعي لتصفيته سريعًا، وتم بالفعل تشكيل مكتب للبوليس لهذا الغرض، كما قررت تلك القوى التربص بالحزب الوطني وقياداته، وانتهاز أي فرصة لتصفية هذا الحزب الذي أصبح خطرًا علي النظام برمته.

على كل حال استغلت أوساط الحزب الوطني موضوع محاكمة الورداني وحولته إلى مهرجان وطني، وتتابعت المقالات التي تشيد بوطنية

الوردّاني في صحف الحزب الوطني، وتلك التي تعدد خيانات بطرس غـالي وتهدد غيره ممن يفكر في التفريط في حقوق مصر، وقام شباب مصر بطبع الآلاف من صور الورداني وقاموا بتوزيعها تحت عنوان بطل الوطنية، كما أرسلت الكثير من خطابات التهديد إلى رموز الاحتلال والخديوي والـوزراء، ونظمت الأشعار والأغاني الوطنية التي تشيد بذكر الورداني.

كما استغلت قيادة الحزب نجاحها في إجهاض مشروع مد امتياز قناة السويس واعتبرته نصرا للحركة الوطنية، وتم عمل المظاهرات والمهرجانات احتفالا بهذه المناسبة وكفرصة للتنديد بالاحتلال والخديوي، ودفع الجماهير إلى ممارسة التظاهر كنوع من الإعداد والتدريب على تفجير الثورة المرتقبة، وكانت جماهيرية الحزب الوطني وانتشاره قد وصلت في ذلك الوقت إلى الذروة، لدرجة أن جرائد الحزب الوطني وصحفه كانت تصل إلى أعماق الريف، حيث يقوم مأذون القرية بقراءتها بصوت عال كل ليلة على مجموعات الفلاحين بعد انتهاء عملهم اليومي.

كانت سلطات الاحتلال والخديوي ترصد ذلك كله وتدرك أن الثورة كانت وشيكة، خاصة وأن الحزب الوطني يمتلك قيادة واعية وذكية وخبيرة، مثل محمد فريد ويمتلك عناصر ثورية ومهيجة مثل عبد العزيز جاويش، وتمتلك جهازًا سريًا ضخما ظهرت قوته في حادث اغتيال بطرس غالي، وأن الحزب الوطني استطاع أن يحشد خلفه الطلاب والعمال والفلاحين.

وحرصت قوات الاحتلال في ذلك الوقت على تطويق وتصفية الحزب الوطني لمنع نشوب الثورة واعتمدت على خطة شديدة الخبث والذكاء تقوم على تهدئة الأحوال أولا التقاطا للأنفاس ومحاولة خداع القوى الوطنية

وتخديرها عن طريق اختيار محمد سعيد رئيسًا للوزراء خلفًا لبطرس غـالي، وهو المتعاطف مع الحركة الوطنية، وفي الحقيقة فإن هـذه خطـة تقليديـة تستخدمها قوي الاستعمار والاستبداد في حالة المد الجماهيري، وكنـوع مـن التخدير والتطويق، وفي الحقيقة أيضًا أنه مهما كانت وطنية هـؤلاء الـذين يقبلون العمل مع الاحتلال أو الاستبداد فإن النظام وبرامج النظـام وأهدافـه تستوعبهم ويصبحون في النهاية نكاية على الحركة الوطنيـة مـن أعـدائها المكشوفين، وهم أيضا يخدمون أعداء الشعب في لحظات المد الجماهيري بما يملكونه من رصيد وطنـي يسـتخدمونه فـي تطويـق حركـة الجمـاهير، ويستخدمونها في ضرب تلك الحركة بلا هوادة إذا طلبـت مـنهم سـلطات الاستبداد ذلك، وعلى كل حال فالمسألة ليست مسألة أشخاص ولكنها مسـألة نظام وسياسة نظام. ولم يحدث في التاريخ أن استطاع شخص مهمـا كانـت مبادئه أن يطوع سياسة النظام وفقًا لرؤيته الشخصية، بل العكس كان دائمًـا يحدث، وعلى كل حال فقد عانت الحركة الوطنية في مصر على يـد محمـد سعيد أكثر مما عانته على يد مصطفي فهمي أو بطرس غالي، ويعبر محمـد فريد عن تلك المسألة في مذكراته بقوله :" استطاع الاحتلال أن يطوي محمد سعيد أيضًا ليصبح أحد خدامه، وقد أيقنا فيما بعد أن محمد سعيد كان يظهـر لي وللحزب الوطني الإخلاص نفاقًا حتى يأخذ الأهبة لكفاحه " (٢٨) .

وكانت النقطة الثانية في خطة سلطات الاحتلال والخديوي هي محاولـة افتعال قضايا جانبية تغل الحزب الـوطني وتضـعه فـي موقـف الـدفاع، واستطاعت سلطات الاحتلال أن تجند نفرًا من الأقباط لهذه الغاية، واسـتغلت في ذلك صحيفتي الوطن ومصر القبطيتين، وبدأت تلك المجموعة العزف على

أوتار التعصب الديني، ومطالب الأقليات وسب الحزب الوطني أو سب الدين الإسلامي الحنيف. [٢٩]ولكن الحزب الوطني استطاع أن يطوق تلك المحاولة بوعيه الإسلامي والوطني الفــذ .

وكانت النقطة الثالثة في خطة سلطات الاحتلال والخديوي هي التضييق بكل السبل على الصحافة الوطنية، فراحت تدبر المــؤامرات للقضــاء علــى صحيفة اللواء، ونجحت الحكومة في ذلك، إلا أن الحزب الوطني استطاع أن يصدر جريدة العلم بدلا منها بسرعة وكفاءة أثارت غيظ الحكومة، فلجأت إلى إيقاف جريدة العلم لمدة شهرين في ٢٠ مارس ١٩١٠، وهنــا قــام الحــزب الوطني بإصدار صحيفة أخرى هي الشعب في اليوم التالي مباشــرة لإيقــاف تلك الجريدة وكذلك أصدر الحزب الوطني صحف الاعتدال والعدل إلــى أن عادت العلم إلى الظهور بعد انقضاء الشهرين، وأمضت الحكومة في التضييق على الصحافة الوطنية فوضعت قانونًا يقضي بإحالة تهم الصحافة إلى محاكم الجنايات في ١٦ يونيو ١٩١٠.

وكانت النقطة الرابعة في تلك الخطة محاولة التخلص مــن العناصــر الموهوبة ثوريًا وخطابيًا وتنظيميًا مثل الشيخ جاويش، وكذلك الــتخلص مــن رأس الحزب المفكر وقائده المخلص محمد فريد، فقامت بتلفيق الــتهم لهمــا، وقدمتهما للمحاكمة بتهمة تقديم كتاب وطنيتي للشيخ على الغايــاتي، وصــدر الحكم على جاويش بالسجن ثلاثة اشهر، وعلى محمد فريد بالسجن ستة أشهر وكذلك مؤلف الكتاب بالسجن سنة مع الشغل، وقد تم تنفيذ الحكم فــي الشــيخ جاويش، وأرجأ التنفيذ في محمد فريد لحين عودته من أوربا، وعندما عاد تم تنفيذ الحكم فيه أيضًا (نظرت القضية أمام القضاء في أغسطس ١٩١٠).

وكانت النقطة الخامسة في الخطة مطاردة وتصفية كل العناصر المنتمية إلى المنظمات السرية، ومحاولة القضاء على تلك المنظمات، فتعرضت بيوت عدد كبير من هؤلاء للتفتيش، وتعرض بعضهم للاعتقال، كما تم إنشاء مكتب بوليس خاص بمتابعة تلك المنظمات، وفي هذا الإطار أيضًا صدر قانون الاتفاقات الجنائية الذي نص على معاقبة الاتفاقات الجنائية حتى ولو لم يتوفر فيها ركن الاشتراك في ارتكاب الجريمة (صدر ذلك القانون في ١٦ يونيو ١٩١٠).

ولكن الحزب الوطني استمر يناضل رغم هذه الظروف الصعبة والقاسية فما أن تعطل الحكومة صحيفة للحزب حتى يصدر غيرها، وما أن يعتقل أو يحاكم شخص وطني حتى يبرز غيره في الميدان، بل واستطاعت الحركة الوطنية في تلك الفترة أن تنظم عددًا من المهرجانات الوطنية في مناسبات دينية مثل عيد الهجرة، أو المولد النبوي الشريف، وكانت تعتبر ذلك بمثابة تأكيد على مبادئ الحزب وفرصة للتنديد بالاحتلال والخديوي، كما نجحت الحركة الوطنية في تنظيم المظاهرات ضد روز فلت رئيس الولايات المتحدة عندما جاء إلى مصر في مارس ١٩١٠ وصرح بعدد من التصريحات المعادية للحركة الوطنية في مصر، وقد هتفت تلك المظاهرات بحياه الاستقلال والدستور، وسقوط روزفلت.

وفي الحقيقة فإن تصريحات روزفلت تعكس حقيقة الرؤية الأوروبية الصليبية، والصراع بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية، فإذا كانت إنجلترا تحتل مصر لهذا السبب ولتحقيق مصالحها، فإن تصريحات روزفلت التي

ربما تتعارض مصالح بلاده مع إنجلترا في هـذا الصـدد، والمفـروض أن تتعارض مبادئ بلاده أيضًا مع الاحتلال الأجنبي، وقـد عانـت هـي منـه وخاضت حربًا تحريرية ضد إنجلترا ذاتها للحصول على الاستقلال، فإن هذا التصريح يكشف حقيقة الحقد الصليبي الأوروبي تجاه مصر والعالم الإسلامي عموما، قال روزفلت " إن الإنجليز يحتلون مصر بتفويض من أوروبـا،وأنهم أوصياء على مصالح المدنية " (٣٠).

وفي نهاية ١٩١٠ نظمت الحركة الوطنية المصرية مظاهرة حاشدة في طنطا، حيث أصطف طلبة المدارس في طنطا في ٢٤ نوفمبر ١٩١٠ علـى إفريز محطة طنطا عند مرور قطار الخديوي من الإسكندرية إلـى القـاهرة، وهتف هؤلاء الطلاب للجلاء والدستور في مواجهة الخديوي، وبالطبع استاء الخديوي من هذا وأمر باعتقال الطلاب،ووجهت إليهم تهمة الاشـتراك فـي جمعية سرية إرهابية، وتمت محاكمة ١٦ طالب منهم إلا أن المحكمة قضـت ببراءة معظمهم وتغريم ستة من الطلبة غرامة يسيره في ١١ يناير ١٩١١.

وفي نهاية ١٩١٠ استطاع الحزب الوطني أيضًا أن ينظم مؤتمرًا كبيرًا في بر وكسل في سبتمبر، ودعا إليه العديد من الشخصيات الهامة في الشرق والغرب وذلك بهدف أسماع العالم صوت مصر، وقد قرر المؤتمر في نهايـة جلساته عددا من القرارات الهامة التي تؤكد حـق مصـر فـي الاسـتقلال والدستور ووحدة وادي النيل والحريات العامة، وكان محمد فريد قـد قضـي عدة شهور متنقلا في أوروبا لشرح القضية المصرية وتعبئة المصريين فـي الخارج حول هذه القضية والمشاركة في مؤتمرات السلام الاشتراكية وغيرها دفاعا عن حقوق مصر، ثم عاد محمد فريد إلى مصر فـي ديسـمبر ١٩١٠

واستقبله الشعب استقبالا حافلا وقام محمد فريد على الفور بــدعوة الجمعيــة العمومية للحزب الوطني للاجتماع، وقدم لها تقريرًا عن كفاح الحزب الوطني في عام والظروف المحيطة بالحركة الوطنية في مصر في الداخل والخارج، ودعا إلى المقاومة المستمرة لسلطات الاحتلال والخديوي وانتهــت تلــك الجمعية العمومية باختيار محمد فريد رئيسًا للحزب الوطني مدي الحياة، وكان هذا عملا هاما في تلك الفترة التي كانت الحركة الوطنية تستعد فيها لتفجير الثورة الشاملة .

إلا أنه في المقابل فإن سلطات الاحتلال والخديوي قامت باعتقال محمد فريد في ٢٣ يناير ١٩١١، وحاكمته على تقديم كتاب وطنيتي للشيخ الغاياتي، وهو الموضوع الذي كان قد صدر حكم بصدده على الغاياتي بسنة مع الشغل والشيخ جاويش بثلاثة اشهر في عام ١٩١٠، وتأجلت وقتها محاكمــة محمــد فريد بسبب غيابه خارج مصر، وقد تمت محاكمة فريد وصدر الحكم بحبســه ستة أشهر في محاولة لإضعاف الحركة الوطنية المصرية، وحرمانهــا مــن قائدها المجرب وكنوع من إلقاء الرعب في قلب محمد فريد، وتعطيلا للثورة المرتقبة، ومن الطبيعي أن يتبادر إلى الذهن سؤال هو هل تستحق كتابة كتاب في الأشعار الوطنية، أو تقديم كتاب يحوي هذه الأشعار كل هــذه الضــجة، لدرجة صدور أحكام بالحبس على ثلاثة رجال أحدهم زعيم الحزب الــوطني :"محمد فريد" والآخر رئيس تحرير صحيفة الحزب الشيخ جاويش، وثــالثهم عالم أزهري له مكانته هو الشيخ على الغاياتي، ولكن المسألة لم تكن كتابا في الشعر ولا في كتابة مقدمات الكتب ولكن الأمر كان محاولــة مــن ســلطات

الاحتلال والخديوي بعد أن أدركت قرب قيام الثورة وقدرة الحزب الـوطني على ذلك، كان محاولة لمنع ذلك وتطويقه عن طريـق حرمـان الحركـة الوطنية من قائدها المخلص، ومن أحد كبار دعاتها :"جاويش" وكنـوع مـن وضع الحزب الوطني في حالة رد الفعل لمنعه من تفجير الثورة، ونزع زمام المبادة من يد الحركة الوطنية المصرية في ذلك الوقت.

وفي الحقيقة فإن محاكمة الشيخ جاويش والشيخ الغاياتي على هذه التهمة العجيبة في أغسطس ١٩١٠، وصدور الحكم بالحبس عليهما، كـان محاولـة لتخويف محمد فريد ودفعه لعدم العودة إلى مصر والبقاء في أوروبا، فيكـون ذلك نوع من الهجوم على الحزب الوطني وحرمانه من جهود قائده المخلص، وكل ذلك بهدف منع نشوب الثورة المرتقبة.

على كل حال عاد الزعيم محمد فريد، وتمت محاكمته فـي ٢٣ ينـاير ١٩١١، وصدر الحكم بحبسه ستة أشـهر، وأظهـر محمـد فريـد تماسـكه وصموده، وقضي تلك الفترة مرفوع الرأس دون أن يتنازل عـن مبادئـه أو تخونه شجاعته.

وفي هذا الإطار أيضًا حاولت سـلطات الاحـتلال والخـديوي، نشـر الشائعات عن مساومات بين محمد فريد وتلك السلطات بهدف تخليصـه مـن السجن أو المحاكمة مقابل المرونة أو عدم الشدة مع الاحتلال والخـديوي، إلا أن تلك الشائعات لم تصل إلى أغراضها الخبيثة، لأن الشعب يعرف إخلاص قائده، ولأن هذا القائد لم يلتفت للحظة إلى مثل تلك المساومات بل رفضها من حيث المبدأ، فعندما جاء إليه موفد من الخديوي لمساومته رفض ذلـك بتاتًـا وأكد تفضيله للسجن على التفريط في المبادئ، وبرغم غياب الـزعيم محمـد

فريد داخل السجن، فإن نشاط الحزب الوطني استمر وتصاعد، بل أن اللجنة الإدارية للحزب الوطني أصدرت بيانًا عقب صدور الحكم على محمد فريد، دعت فيه الأمة إلى الثبات والاستمرار في طلب الجلاء والدستور، وكان محمد فريد هو المثل والقدوة في هذا الثبات، فعندما طلب منه موفد الخديوي الدكتور عثمان بك غالب مجرد تقديم طلب للخديوي للعفو عنه، وأن الخديوي مستعد لذلك رد عليه محمد فريد قائلا :" أنا لا أطلب العفو ولا أسمح لأحد من عائلتي بطلبه عني وإذا صدر العفو فلا أقبله ".

إذًا فقد استمر الحزب الوطني في نضاله برغم غياب زعيمه محمد فريد في السجن، ونظم الحزب موكبًا ضخمًا في ذكري وفاة مصطفي كامل في ١٠ يناير ١٩١١، كما أصدر الحزب الوطني كتابًا هامًا في يوليو ١٩١١ نقد فيه دعاوى الاحتلال، ووصف فيه حالة البلاد التي تردت بسبب الاحتلال وغياب الدستور.

خرج محمد فريد من السجن في يوليو ١٩١١ وسط مظاهرة حاشدة من الشعب الذي جاء لتحيته من كل مكان، ليواصل رحلة كفاحه للحركة الإسلامية الوطنية في مصر، وفي تلك الآونة كانت إيطاليا قد اعتدت على ليبيا بهدف احتلالها، ودب رجال الحركة الوطنية في مصر للدفاع والتضامن مع شعب ليبيا المسلم، وطالب محمد فريد :" بضرورة المقاومة المسلحة لمواجهة خطر الحروب الصليبية الموجهة ضد الأمم الإسلامية والشرقية، كما شدد على ضرورة مقاطعة إيطاليا حتى يمكن إلحاق الخسائر بها " (٣١).

كما هاجت عواطف المصرين انتصارًا لأبناء دينهم في طرابلس، وقامت التنظيمات السرية للحزب الوطني بدور هام في هذا الإطار، فتألفت من جمعية التضامن الأخوي لجنة عليا لمساعدة أهل طرابلس، واستطاعت أن تجمع ٧٥٠ ألف جنيه مصري للمساهمة في الجهد الحربي لمواجهة إيطاليا، كما نظمت تلك المنظمة

عملية عبور الضباط الأتراك الذين أتوا من تركيا إلى الإسكندرية للذهاب إلى طرابلس عبر الصحراء، وذلك رغم ممانعة الإنجليز في ذلك، بل رغما عنهم ومن خلف ظهورهم، كما قامت الجمعية بتوصيل الأسلحة بكميات ضخمة عبر السلوم إلى طرابلس وقد لعب الشيخ عبد العزيز جاويش دورًا هامًا حيث تولي بنفسه قيادة هذه العمليات (٣٢).

وقد اكتشفت السلطات الإنجليزية هذه العملية، فأمرت بالقبض على الشيخ عبد العزيز جاويش، إلا أنه استطاع الهروب، وسافر إلى الأستانة(٣٣) .

وفي خارج مصر لعب محمد فريد دورا كبيرا في الدفاع عن طرابلس، وشارك في المؤتمر الذي عقد لهذا الغرض في لندن في أول أكتوبر ١٩١١، وخطب فريد في هذا المؤتمر قائلا :" أني اشترك مع الحاضرين في إظهارهم المقت لإيطاليا، وإظهار العواطف والشعور نحو الأمة العثمانية، وأري من الواجب أن نحتج لا على أعمال إيطاليا فقط بل على كل أمة تحتل قطعة من أملاك تركيا أو من بلاد الإسلام على العموم، وبالأخص على بريطانيا وفرنسا اللتين تحتلان مصر وتونس والجزائر ومراكش، وأن عمل إيطاليا هذا إنما هو حلقة من سلسلة أعمال اتفقت دول أوروبا على ارتكابها ببلاد الإسلام والشرق لمحو سلطة الإسلام السياسية " ودعا فريد إلى مقاطعة إيطاليا قائلا :" فلتعلم إيطاليا أنها ستلاقي من مسلمي الأرض من المقاطعة الشديدة ما يحملها من الخسائر أضعاف ما تنتظر الحصول عليه من احتلالها طرابلس "٠

وفي يوم ٧ أكتوبر عقد اجتماع آخر لهذا المؤتمر في قاعة " كوكستون هول " تحت رئاسة محمد فريد، وخطب فريد قائلا :" إن الأمة العثمانية تقاوم حتى اليوم تيار اضطهادات أوروبا الساعية جهدها لابتلاع الأمم الخارجة عن دائرة المسيحية واستعبادها، وأن هذه الحرب ليست إلا حلقة من سلسلة حروب بدأت في القرن

الثاني عشر هي الحروب الصليبية، ولا تنتهي ألا بعد أن تخضع أوروبا كل ما هو خارج عن دائرتها، إن هذه الحرب حرب جنس ودين، ومهما حاول السياسيون إسنادها إلى أسباب دهنت بطلاء الإبهام والتغرير فما هم بمزحزحيها عن كونها استمرار للحروب الصليبية الموجهة ضد الأمم الإسلامية والشرقية " (٣٤) .

بل أن محمد فريد ذهب إلى الأستانة لكي يعبر عن عواطف مصر كلها نحو تركيا، ويؤكد تضامنه وتضامن مصر معها في الدفاع عن طرابلس ضد الغزو الإيطالي(٣٥)، وقد صحب محمد فريد في هذه الزيارة وفدًا مصريًا ضم عبد الرحمن الرافعي المؤرخ المعروف وأحد أعضاء الحزب الوطني.

وفي الحقيقة فإن مصر كلها شاركت في التضامن مع الدولة العثمانية في دفاعها عن طرابلس، ولم يقتصر هذا الأمر على أعضاء الحزب الوطني، بل إن جميع طبقات الشعب قد عبرت عن روح التضامن الإسلامي بطريقة أو بأخرى، وفي هذا الصدد يقول الرافعي :" اتجهت عزائم المصريين إلى مساعدة الطرابلسيين في دفاعهم المجيد ضد الغزو الإيطالي فأمدوهم بالمال والبعثات الطبية، وتطوعوا في صفوفهم، وظهرت مصر بمظهر التضامن الإسلامي، وقد تألفت لجنة عليا برئاسة الأمير عمر طوسون في أكتوبر ١٩١١ لجمع التبرعات للمجاهدين في طرابلس، وانهالت التبرعات من كل صوب، وتألفت البعثة الطبية الأولي لمعاونة جرحي الحرب الطرابلسية من الدكتور نصر فريد، والدكتور حافظ عفيفي، والدكتور محمد كمال، والدكتور سيد شكري، وقد أقام الحزب الوطني حفلة تكريم لهذه البعثة في فندق شبرد مساء ٢٩ نوفمبر ١٩١١، وخطب فيهم محمد فريد وسافرت البعثة قاصدة طرابلس في ١١ ديسمبر ١٩١١، فودعوا بالمحطة توديعًا حماسيًا (٣٥).

هوامش

(١) من مذكرة محمد فريد إلى الدول المتحاربة والمحايدة في أكتوبر ١٩١٧

(٢) د٠ عصام ضياء الدين، مرجع سابق٠

(٣) جريدة الظاهر، مارس ١٩٠٨٠

(٤) اللواء، مقال محمد فريد سبتمبر ١٩٠٨

(٥) الرافعي، محمد فريد، مرجع سابق٠

(٦) من خطبة محمد فريد، ١٤ سبتمبر ١٩٠٨ في القاهرة٠

(٧) من خطبة محمد فريد، ١٤ سبتمبر ١٩٠٨ في القاهرة٠

(٨) من خطبة محمد فريد، ١٤ سبتمبر ١٩٠٨ في القاهرة٠

(٩) من خطبة محمد فريد، ٧ يناير ١٩١٠الرافعي، محمد فريد، مرجع سابق٠

(١٠) الرافعي، محمد فريد، مرجع سابق٠

(١١) مقال لمحمد فريد، يوليو ١٩٠٨

(١٢) الرافعي، محمد فريد، مرجع سابق٠

(١٣) الرافعي، مرجع سابق٠

(١٤) الرافعي، مرجع سابق٠

(١٥) الرافعي، مرجع سابق٠

(١٦) خطبة محمد فريد في الجمعية العمومية للحزب الوطني سنة ١٩١٠

(١٧) د٠ عصام ضياء الدين، مرجع سابق٠

(١٨) د٠ عصام ضياء الدين، مرجع سابق٠

(١٩) مذكرات محمد فريد، وكذلك وثائق اغتيال بطرس غالي، ملف(١) استجواب محمد فريد٠

(٢٠) اللواء، ١٩ أكتوبر ١٩٠٨، ٢٠ أكتوبر ١٩٠٨

(٢١) اللواء، ٢١ أكتوبر ١٩٠٨

(٢٢) د٠ عصام ضياء الدين، مرجع سابق٠

(٢٣) مذكرات سعد زغلول كراس ٩ ص ٤٤٠

(٢٤) جريدة اللواء، ٢٧ يناير، ٢٨ يناير، ٣٠ يناير، ٣١ يناير ١٩٠٩

(٢٥) د٠ عصام ضياء الدين، مرجع سابق٠

(٢٦) د٠ عصام ضياء الدين، مرجع سابق٠

(٢٧) مذكرات محمد فريد، كراس (١) ص ١١٠

(٢٨) د٠ عصام ضياء الدين، مرجع سابق٠

(٢٩) من خبطة روزفلت، مايو ١٩١٠

(٣٠) من خطبة محمد فريد في اجتماع لندن للاحتجاج على غزو إيطاليا لليبيا، ١٩ أكتوبر ١٩١١

(٣١) مجلة المصور، ١٧ مارس ١٩٧٢، مذكرات شيخ الفدائيين المصريين أحمد رمضان زيـــــان٠

(٣٢) مذكرات محمد فريد، كراس (٢) ص ٤٦٠

(٣٣) الرافعي، مرجع سابق ص ٢٨٢، ٢٨٣

(٣٤) الرافعي، مرجع سابق ص ٢٨٦، ٢٨٧

الطريق إلى ثورة ١٩١٩

شهدت الفترة من ١٩١٠ ــ ١٩١٢، حالة من الكر والفر بين الحركــة الوطنية المصرية وسلطات الاحتلال والخديوى، فالحركة الوطنية المصــرية كانت تعد العدة لتفجير الثورة الشاملة بعد أن انتشرت أفكارهــا، واحتشــدت الأمة بجميع طبقاتها من خلفها، وبعد أن شكلت العديد من المنظمات الســرية لهذا الغرض، وكانت الحركة الوطنية المصرية تعد المسرح المحلي والعالمي لتلك الثورة، ومن الجانب الآخر كانت سلطات الاحتلال والخديوي قد أحست بهذا الأمر وسارعت إلى العمل لمنع حدوثه بكافة السبل والطرق، واعتمــدت في عملية تطويق الثورة على وضع الحزب الوطني في حالة رد فعل دائمــة عن طريق سلسلة من الإجراءات القمعية والقضايا الجانبية، وشــهدت تلــك الفترة عمليات تعطيل الصحف، واعتقال الوطنيين وتفتيش بيوتهم، وتعريض عدد منهم للمحاكمة والحبس، كما شهدت تلك الفترة ظهور ما يسمي بالفتنــة الطائفية التي حركتها الأصابع الإنجليزية سنة ١٩١٠، ١٩١١.

ولعل من أهم أجزاء الخطة الاستعمارية هو محاولة التخلص من محمد فريد، وعبد العزيز جاويش، على أساس أنهما رأس العمل الوطني والثــوري في مصر.

وتعرض عبد العزيز جاويش لسلسلة من المحاكمات وانتهــت المســألة بهروبه عقب طلب القبض عليه بتهمة تهريب السلاح والمتطوعين، وتســهيل نقل الضباط العثمانيين إلى طرابلس عن طريق مصر.

أما محمد فريد، فقد تمت محاكمته وحبسه في أوائل ١٩١١، ثم عـادت الحكومة، فقررت محاكمته مرة أخرى في أوائل سنة ١٩١٢، أي أن الخطـة هي إدخاله من سجن إلى سجن حتى تظل الحركة الوطنية في حالة رد فعـل مستمرة، على كل حال استطاع محمد فريد أن يهرب من مصر فـي أوائـل ١٩١٢، هروبًا من هذا الاضطهاد، وأخذ يتنقل في أوروبا مدافعًا عن قضـية مصر، وقد صدر حكم بسجنه غيابيًا سنة مع الشغل في قضية ملفقة عبارة عن محاكمة ظالمة على خطبة ألقاها في الحزب الوطني، وبالطبع لم تكـن هـذه المحاكمة بسبب تلك الخطبة، فكم من الخطب ألقاها محمد فريد وغيره كانـت أكثر حدة من تلك الخطبة، ولكن كان الهدف دفع محمد فريـد إلـى الهجـرة لحرمان الحركة الوطنية من جهوده داخل مصر وتركها بلا قائد ، أو إعـادة سجنه يوضع الحركة الوطنية في حالة رد فعل لمنعها من التفكير في تفجيـر الثورة.

وعلى كل حال فأننا نري أن قرار محمد فريد بالهجرة من مصر عقب ظهور نية "حكومة في محاكمته كان خطأ تاريخيًا، فمادامت قيـادة الحركـة الوطنية قد اكتشفت أن الحركة مستهدفة للتصفية، فكان لابد من تفجير الثورة مهما كانت الخسائر والنتائج، وهي لن تكون أكثر من الخسائر والنتائج التي وصلت إليها الحركة على كل حال مع عدم تفجير الثورة.

وبالطبع فإن هجرة محمد فريد لم توقف عجلة التصفية، بـل شـجعت سلطات الاحتلال على المزيد من التصفية والتطويق للحركة الوطنية، ألم تكن تصفية محمد فريد وإبعاده جزءًا من خطة شاملة للقضاء على الحركة الوطنية أو تطويقها، ويضيف الرافعي في هذه الحالة بقوله :"ساد الـبلاد بعـد نفـي

الزعيم جو من الإرهاب وكثرت الوشايات والسعايات، وأستهدف الوطنيــون لأقصى ضروب التعسف والاضطهاد ووسعت الحكومة في مطاردة الحركــة الوطنية، وضرب نطاق التجسس حولها، واستخدمت في سبيل ذلــك الوعــد والوعيد لإلقاء التخاذل في صفوفها، وكان مما اتخذته للتنكيل بها أن لجــأت إلى المحاكمات الرهيبة لتلقي الرعب في قلوب أنصارها، وتبعث الفزع فــي نفوسهم : [١].

وحاولت سلطات الحكومة التقدم في هجومها على الحركة الوطنية، بعد أن نجحت في التخلص من جاويش وفريد، وإرهاق الــوطنيين بالمحاكمــات والاعتقالات والتفتيش والمطاردة، فقررت تلفيق تهمة لعدد من قيادات الحركة المعروفين بصلتهم بالمنظمات السرية التي لم تستطع الحكومة الوصول إليها، وهكذا قامت الحكومة باعتقال إمام واكد، ومحمود طاهر، ومحمد عبد الســلام بتهمة الاتفاق الجنائي على اغتيال المعتمد البريطاني، والخديوي، والــوزراء وغيرهم، وذلك في يوليو ١٩١٢، ونظرت القضية يوم ١٣ أغسطس، وصدر الحكم فيها بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة على أمام واكد، وخمسة عشــر سنة على كل من محمد طاهر، ومحمد عبد السلام.

ولاشك أن هذه القضية كانت ملفقة جملة وتفصيلا، وكان الهدف منهــا ومن تلك الأحكام القاسية التي صدرت فيهــا إلقــاء الرعــب فــي صــفوف المنظمات السرية التابعة للحركة الوطنيــة، ومحاولــة تصــفيتها بــالخوف والرعب.

ويؤكد عبد الرحمن الرافعي أن تلك القضية كانت ملفقة قائلا :"لم يكــن للاتهام في هذه القضية من سند يرتكن عليه : [٢] .

بل أن جورج بك فيليبرس مأمور الضبطية بمحافظة القاهرة أعتـرف فيما بعد " بأن هذه القضية ملفقة " [٣].

وإمعانًا في القمع قامت الحكومة في نفس الشهر "أغسطس ١٩١٢" بالقبض على مجموعة كبيرة من الشباب الوطني بتهمة الانتماء إلى منظمة سرية لها أغراض ثورية وتهمة إحراز منشورات ، وشملت الاعتقالات شبابًا مصريا في القاهرة والإسكندرية وغيرها من المدن المصرية بالخارج عن طريق طلب تسليمهم من البلاد الأخرى، وبالفعل قامت حكومة الاتحاد والترقي المعادية للإسلام في الأستانة بتسليم الشيخ جاويش وغيره من المصريين في تركيا إلى السلطات المصرية لمحاكمتهم.

وقد نظرت القضية أمام المحكمة في ١٦ نوفمبر ١٩١٢، وقضت بحبس أحمد مختار عشر سنوات، وحفظ الدعوة بالنسبة للباقين.

وفي هذا الإطار تم تعطيل اللواء نهائيا في ٣١ أغسطس ١٩١٢، وتعطيل جريدة العلم نهائيًا في ٧ نوفمبر ١٩١٢.

وفي الحقيقة فإن الحركة الوطنية المصرية لم تسكت في مواجهة ذلك كله، وإن كانت قد فقدت زمام المبادرة لتفجير الثورة، كما كان معدًا لها من قبل بعد فقدانها لكثير من عناصرها القيادية والثورية، ومع اشتداد الهجمة البوليسية عليها، فنجد أن المنشورات كانت تغمر مصر كلها، القاهرة و طنطا والمنصورة وأسيوط، وكانت في مجموعها تحمل مضامين ثورية مثل الدعوة إلى توزيع السلاح والعصيان وإنقاذ السجناء، وكانت هذه المنشورات توزع بكميات كبيرة، أو تلصق على الجدران، فإذا قام البوليس بنزعها ظهرت من جديد وهكذا، بل إن الأمر وصل إلى حد ضبط الأسلحة والذخائر لدى أحد

عناصر تلك المنظمات، وهو عبد الغفار متولي في بلدته " شربين " بالدقهلية[٤].

كما قام عدد من العناصر مثل حسن نافع بتشكيل عدد من المنظمات السرية الجديدة لمواجهة اكتشاف الاحتلال للمنظمات القديمة أو معرفة بعضها، فقام بإنشاء الجمعية المصرية في القاهرة، وجمعية الصناع في ميت غمر، وجمعية الأحرار في الدرب الأحمر، وقد اكتشف أمره وتم اعتقاله في يوليو ١٩١٢ [٥].

قلنا أن الحركة الوطنية المصرية في ذلك الوقت قد تعرضت لعملية تصفية بشعة وواسعة، وقلنا أيضًا إن تلك الحركة لو بادرت إلى تفجير الثورة بمجرد أن شعرت بنية سلطات الاحتلال والخديوي في الهجوم عليها لكانت النتائج أفضل مهما كانت خسائر الثورة ونتائجها، وقلنا: إن محمد فريد قد أخطأ بقرار خروجه من مصر هربًا من المحاكمة والسجن، ولكن كل هذه الأخطاء لا تنقص من حقيقة عظمة وإخلاص تلك الحركة وقائدها، أضف إلى ذلك أنه كانت هناك عوامل أخرى أدت إلى تأخير الثورة وتعطيل الانفجار الثوري، ومن هذه العوامل، وصول حكومة غير إسلامية إلى السلطة في تركيا بل حكومة تعادي الجامعة الإسلامية عمومًا وفي مصر خصوصًا، حيث أن الحركة الوطنية الإسلامية في مصر كانت تعتمد إلى حد كبير على الدعم الإسلامي العثماني لها على المستوي التنظيمي والمادي، ومستوي العاطفة الإسلامية، وللأسف كانت الحكومة التركية المعادية للإسلام في ذلك الوقت تمهد لإلغاء الخلافة الإسلامية، وتتعاون سرا وعلنا مع الإنجليز، لدرجة أنها سمحت بمطاردة الوطنيين وعرقلة جهودهم في الأستانة نفسها، ولدرجة

موافقتها على تسليم بعض الوطنيين في الأستانة إلى الحكومة المصرية مثل الشيخ جاويش وغيره.

إذن فالصعوبة التي واجهت الحزب كانت جزءًا من الصعوبة التي واجهت العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وهي أن المنحني الإسلامي كان يهبط وينحدر في ذلك الوقت عمومًا.

كان من الطبيعي أن تحقق تلك الهجمة البوليسية والسياسية التي نظمها الاحتلال والخديوي كثيرًا من الخسائر في صفوف الحزب الوطني، فلم يعد للحزب سوي صحيفة واحدة هي الشعب، وفقد الحزب الكثير من عناصره النشيطة في عمليات الاعتقال والمحاكمات المتوالية، كما تم بيع مقر نادي المدارس العليا، وهو النادي الذي لعب دورًا كبيرًا في العمل الوطني، وذلك بسبب العجز المالي، وكان من الطبيعي أيضًا أن تؤثر تلك الحملة على بعض العناصر الضعيفة في الحزب الوطني مما هدد الحزب بالانقسام.

وفي مواجهة ذلك لجأت قيادة الحركة الوطنية المصرية إلى عمل تقييم شامل ومراجعة لأحوالها وظروفها، ولجأت تلك القيادة إلى حث الرجال المخلصين في الحزب إلى إيجاد كيان جديد، والشرع في افتتاح نادي المدارس العليا مرة أخرى، كما عولوا على عقد الجمعية العمومية للحزب وتطهير صفوفه من الضعفاء والمترددين (٦).

وفي نفس الوقت لجأ محمد فريد إلى تقوية المنظمات السرية في خارج مصر وداخلها على أساس أن العمل السري أصبح الطريق الوحيد المتاح أمام الحركة الوطنية، وأن خبرة السنوات الطويلة من الكفاح تؤكد أنه لا سبيل إلى إخراج الإنجليز من مصر إلا بطريق القوة (٧).

وفي إطار إعادة تشغيل الحركة الوطنية على أسس جديدة قامت حركة نقد، ونقد ذاتي داخل صفوف الحركة، واعتبرت تلك الحركة أن خروج محمد فريد من مصر كان خطأ كبيرًا، وأنه كان من الأفضل تمضيته في السجن لمدة عام، وإن أدي ذلك السجن إلى الشغل في الشوارع [٨]، وقد تقبل محمد فريد هذا النقد وشرع يعد العدة لبناء المزيد من المنظمات السرية في الداخل والخارج وحشد الطلبة بالذات في صفوفها.

وبنهاية ١٩١٣، كانت سلطات الاحتلال الإنجليزي تعد عدتها لأخبث واكبر ضرباتها وهي وضع شخص موالٍ للاحتلال ولو بصورة غير كاملة " هذا أفضل طبعًا حتى ينجح في أداة مهمته " على رأس الحركة الوطنية في مصر، أي تفريغ تلك الحركة من مضمونها وتحويلها بعيدًا عن خط المطالبة بالجلاء الفوري والدستور والإعداد للثورة لتحقيق ذلك، إلى مجرد حركة مطالبة بذلك عن طريق المفاوضات والحلول الوسط، وقبول أنصاف الحلول أو أرباعها أو جزء يسير منها على حسب الأحوال ورفض الأسلوب الثوري لتحقيق ذلك.

كان الإنجليز يعدون " سعد زغلول " لهذه المهمة، وكانت الخطوة الأولى في هذا الإطار هو خروج سعد زغلول من الوزارة سنة ١٩١٢، ثم محاولة اقترابه من الحركة الوطنية عن طريق تبني بعض مبادئها ومطالبها، ثم هذا التصريح الخبيث الذي أدلي به المعتمد البريطاني اللورد كتشفر حيث قال " أنه سيتم نفي سعد زغلول إذا ترأس الحزب الوطني ".

وعلى كل حال فهذا القول أورده سعد زغلول بنفسه في مذكراته، في كراسة (٢١) ص ١٠٦٤، وهو قول يكشف الخطة كلها،، فكيف يفكر المعتمد

البريطاني في إمكانية ترأس شخص مثل سعد زغلول للحزب الوطني، وهـو الذي كان معاديا لهذا الحزب بل جلادًا له على حد قول محمد فريد :"أن سعد زغلول أعتبر في نظر الحزب الوطني جـلادًا للحـزب الـوطني بقوانينـه الاستثنائية: خطاب محمد فريد كراس (٢) خطاب (٢٣).

إذن كيف يصبح جلاد الحزب الوطني رئيسًا له ؟!

وعلينا أن نلاحظ أن هذا الحديث أفضي به المعتمد البريطاني حسن رشـدي باشا لينقله بدوره إلى سعد زغلول فتنشأ الفكرة في رأسـه أو يسـتعد لهـا، ولتتداول الفكرة مباشرة في الأوساط المصرية ليجس بها اللورد ردود الفعل، علي كل حال لم تنجح الفكرة مباشرة ولكنها تطورت فيما بعد إلى أن وضـع الإنجليز سعدا على رأس الجماهير المصرية فأصبح زعيمًا لها وسار بها من طريق الثورة والمطالبة بالجلاء التام والفوري إلـى طريـق المفاوضـات والقبول بإنصاف الحلول أو أرباعها، وتضييع تضحياتها في ثورة ١٩١٩، بل وإضعاف المبادئ التقليدية للحركة الوطنية في الصدام الثوري مع الاستعمار والخديوي، وحصرها في نطاق ضيق، وتحويل الحركة الشعبية إلى الصـدام مع الخديوي أو الملك دون الصدام مع الاحـتلال والملـك معًـا، والقبـول بالاستقلال المنقوص أو الشكلي كما حدث في ١٩٢٨، ١٩٣٦.

وبالطبع كانت هذه أخطر وأخبث الخطط الاستعمارية التـي واجهتهـا أمتنا، بل أدت تلك الخطة إلى سير الحركة الشعبية في مسارات جانبية عـن طريق الوفد منذ ١٩١٩ إلى ١٩٥٢ وحتى الآن.

على كل حال فإن تلك القضية تطرح سؤالاً مهمًا عن مـن هـو سـعد زغلول وماذا كانت مواقفه من الحركة الوطنية المصرية قبل ثـورة ١٩١٩،

وأثناءها وبعدها، وإذا كنا سنؤجل الحديث عن مواقفه إبان ثورة ١٩١٩ وبعدها، إلى أجزاء لاحقة حين الكلام عن أحداث الثورة (١٩٠٩) وما بعدها، فأننا هنا سنقدم جانبًا من مواقفه قبل ١٩١٩.

سعد زغلول هو زوج بنت مصطفى فهمي، المعروف بولائه التام للاحتلال، ورئيس وزارة مصر المفضل دائما للاحتلال حيث شغل ذلك المنصب لأكبر مدة ممكنة في ذلك الوقت، بل هو صنيعة الإنجليز التي لا يختلف اثنان في شأنها.

وسعد زغلول هو شقيق أحمد فتحي زغلول أحد قضاة محكمة دنشواي سيئة الذكر، وقد يقول البعض، أنه لا يضير شخص ما تصرفات آخرين يمتون له بصلة القرابة، نعم هذا صحيح، ولكن على الأقل فليتبرأ هذا الشخص من تلك التصرفات على الأقل أو يدينها، أ، يأخذ موقفًا صريحًا وواضحًا من أقاربه هؤلاء.

وعلى أي حال فلنترك جانبًا تلك العلاقات الأسرية والشخصية ونذكر مواقف سعد زغلول شخصيا، فسعد زغلول هو وزير المعارف والعدل من ١٩٠٦ ــ ١٩١٢، في ظل وزارات عرفت بولائها المطلق للإنجليز " وزارة مصطفى فهمي، وزارة بطرس غالي، وزارة محمد سعيد " وقد يكون اختيار سعد زغلول لوزارة المعارف سنة ١٩٠٦ كمكافأة على ما فعله شقيقة في محاكمة دنشواي، ولكن المؤكد أنه كان يحظى بالرضا الإنجليزي التام وتعاون اللورد كرومر الذي يقول " إن المصريين عمومًا ينكرون الجميل، إلا بعضًا منهم مثل مصطفى فهمي وبطرس غالي وسعد زغلول " من خطبة اللورد كرومر في حفلة توديعه في ٤ مايو ١٩٠٧، وهي الحفلة التي قاطعتها الأمة

كلها، ولم يحضرها إلا مصطفى فهمي وحسين فخري، وسعد زغلول وغيرهم من كبار الموالين للاحتلال على حد قول الرافعي [٩]، حيث إن دماء ضحايا دنشواي لم تكن قد جفت بعد.

وفي مارس ١٩٠٧ طلبت الجمعية العمومية من الحكومة جعل التعليم في المدارس الأميرية باللغة العربية، إلا أن سعد زغلول اعترض على ذلك[١٠].

وقف سعد زغلول دائمًا ضد الحركة الطلابية، فقد أتفق مع جورست وجراهام على الظهور بمظهر الشدة تجاه الطلبة ورد سعد زغلول أسباب تهيج الطلبة إلى أن لهم علاقة بمصطفى كامل ويقرؤون جرائده، وكثير منهم في نادي المدارس العليا، كما أقترح على مستشار المالية هارفي إغلاق النادي غير أن هذا الأخير رفض تلك الفكرة حتى لا يفسر ذلك العمل بأنه تقييد للحرية. [١١].

قام سعد زغلول بنفسه برفت عدد من الذين يشاركون في المظاهرات الوطنية، فعلى سبيل المثال رفت سعد زغلول الطالب إمام واكد سنة ١٩٠٨، عقب مظاهرة ٥ مارس ١٩٠٨ [١٢].

كان سعد زغلول لا يفتأ يكرر نغمة الاحتلال بضرورة التدرج في الإصلاح والوصول إلى الحكم الذاتي، بل كان يعلن " أن الذين بيدهم أمرنا (الاحتلال والخديوي) أعقل منا وأعرف بأسباب ارتقاء الأمم وهبوطها " [١٣].

و وصف سعد زغلول العامة الذين انضموا للمظاهرات بأنهم غوغاء، كما حذر الطلبة من الاشتراك في المظاهرات أو الانشغال بالجرائد، لأن نصوص القوانين تمنع ذلك [١٤].

كان من نتائج سياسة سعد زغلول ومواقفه ضد الحركة الوطنية في مصر أن أصبح أحد أهم أعداء الحركة الوطنية، لدرجة أنه كان من بين الذين تصلهم

خطابات التهديد بالعقاب من المنظمات الوطنية السرية، فقد ورد إليه خطـاب يتوعده بسوء العاقبة إذا استمر على تعقب الطلبة ومطاردتهم(١٥) .

وعند التفكير في مشروع مد امتياز شركة القناة أربعين عامًا أخـرى، دافـع سعد زغلول عن موقف الحكومة في ذلك، وكان وقتهـا وزيـرًا فـي وزارة بطرس غالي، الأمر الذي جعله خائنًا في نظر الشعب، حيث أن هذا المشروع قد قوبل بمعارضة شعبية كبيرة لدرجة وصلت إلى اغتيال رئـيس الـوزراء بطرس غالي نفسه عقابًا على ذلك.

وفي هذا الصدد يقول د. عصام ضياء الدين " إن الذي يثير الدهشـة حقًا أن الوزراء المصريين مثل سعد زغلول في الحكومة، برغم إدراكهم التام بخيانة بطرس غالي لمصر في هذا المشروع " (١٦)، فإن سعد زغلول قد دافع عن مشروع مد امتياز القناة أمام الجمعية العمومية باعتباره وزيرًا للحقانيـة في جلسة ٤ أبريل سنة ١٩١٠ (١٧).

ووصل الأمر إلى حد أن المنظمات السرية للحزب الوطني فكرت فـي اغتيال سعد زغلول عقابًا له على هذا الموقف، إلا أن الذين وكلت إليهم مهمة الاغتيال لم ينجحوا فيها (١٨).

- كانت صحف الحزب الوطني تتهم سعد زغلول دائمًا بأنه يتفق اتفاقا أخويًا مع المعتمد البريطاني (١٩).
- إن سعد زغلول كان وزيرًا للحقانية أثناء صـدور القـوانين الاسـتثنائية المقيدة للحريات،وكذلك عمليات إقامة الـدعوى علـى زعمـاء الحـزب الوطني، محمد فريد، وجاويش وغيرهم، مما جعله مسئولاً مباشرًا عـن تلك الأعمال، باعتباره أولاً مشاركًا في الوزارة التي اتخذت تلك القرارات

والإجراءات، وثانيًا باعتباره وزير الحقانية الذي تصدر من وزارته تلك القوانين والإجراءات، بل إن سعد زغلول يعترف في مذكراته أنه كان يرفض فكرة العفو عن محمد فريد عندما فكر الخديوي في ذلك [٢٠] .

ويعلق الرافعي بقوله :"كان يجمل بسعد، وقد كان يتولى وزارة الحقانية ألا يأمر بتلك المحاكمات، ولا يقر إقامة هذه الدعاوى، ولا يرضى بإصدار هذه القوانين [٢١].

- إن سعد زغلول عندما تم انتخابه في الجمعية الشرعية سنة ١٩١٣، سارع باللقاء مع اللورد كتشز المعتمد البريطاني في مصر، حتى ينسق معه الخطوط العريضة للعمل في تلك الجمعية، وأتفق الطرفان على تسليم كتشنر كل شئ حتى أمور الميزانية [٢٢].
- إنه وفقًا لهذه المواقف وغيرها استحق سعد أن يوصف من قبل محمد فريد زعيم الحركة الوطنية المصرية بأنه جلاد الشعب [٢٣].

إذن فحتى عام ١٩١٣ لم يكن هناك أي مبرر لأن يفكر المعتمد البريطاني اللورد كتشنر في إمكانية أن يصبح سعد زغلول رئيسًا للحزب الوطني، فلا شخصيته ولا مواقفه السرية والمعلنة، ولا موقف الحركة الوطنية منه يمكن أن تؤدي إلى ذلك، إذن فهذا الذي قاله اللورد كتشنر لحسين رشدي هو نوع من التفكير في هذه المسألة، وكبالون اختبار لها.

وفي الحقيقة فإن خطة الاحتلال في تلك الفترة، كانت القضاء على الحركة الوطنية بمبادئها التقليدية الراسخة، وسلوكها الثوري عن طريق دفع شخصية موالية للاحتلال لقيادتها، وفي نفس الوقت تحقيق شئ من الانفراجة السياسية عن طريق الهاء الجماهير بكسب جزئي وشكلي وهو انتخاب

الجمعية التشريعية، على أساس قوانين ولوائح مغايرة لتلك الخاصة بالجمعية العمومية، ومجلس شورى القوانين، وبالطبع كان الأمر شكليًا ومحدودًا لتحقيق فقط نوع من الإلهاء والتفريغ دون أن يحدث تقدم حقيقي في مجال الحريات والحياة النيابية، ولقد فطن الحزب الوطني إلى ذلك فالرافعي نفسه يصف ذلك الأمر بأنه :"أراد الاحتلال أن يعرقل تيار الحركة الوطنية بوضع نظام شورى جديد يحل محله مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية دون أن يكون له قواعد الدستور ومبادئه لكي يشغل الأمة بنظام حادث تترقب من ورائه الخير فيصرفها ولو إلى وقت محدود عن مطالبها الأساسية : (٢٤).

ويقول محمد فريد عن هذا الأمر :"أن ذلك تغريرٌ وإلهاء وإيهامٌ بالأمة، وأن على الحزب الوطني أن يقوم بإفاقة الأمة من هذا الوهم :، كما قرر الحزب الوطني تنظيم مظاهرة سارت على طول الطريق بين سراي عابدين ووزارة الأشغال تعالى فيها الهتاف بطلب الدستور وإلغاء القوانين الاستثنائية، والعفو عن المسجونين السياسيين (٢٥).

ولكن محمد فريد طلب من الحزب الوطني أيضًا الاستفادة من هذا المكسب الجزئي لتشكيل معارضة قوية داخل الجمعية تشغل الاحتلال والخديوي عن مطاردة المنظمات السرية، والقواعد الثورية للحزب الوطني، وتخفف وطاه الحكومة على ممارسات الحزب، وتحسين ظروف النضال (٢٦).

أي أن المطلوب هو الاستفادة من المكسب الجزئي دون التفريط في المطالب الأساسية، والخطة الرئيسية وهي الثورة، بل استخدام ذلك المكسب الجزئي في تحسين ظروف العمل الثوري.

على كل حال، فإن خطة الاحتلال في إحداث انفراجة سياسية من ناحية، ومحاولة تحويل الحركة الوطنية من مسارها الطبيعي والتقليدي بوضع شخص مثل سعد زغلول على رأس تلك الحركة، هي خطة استعمارية تقليدية حاولتها دائمًا أمس واليوم وغدًا، بل لم يقتصر الأمر على سلطات الاحتلال في تلك المحاولة، بل حاول الخديوي عباس حلمي وغيره ذلك أيضًا دائمًا وأبدًا عن طريق استمالة بعض أعضاء اللجنة الإدارية ودفعهم إلى إقالة محمد فريد من رئاسة الحزب، ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل، إلا أن الاحتلال نجح في هذا الأمر بعد ذلك في أوائل عام ١٩١٩، لأسباب كثيرة سنذكرها في حينها، على كل حال جاءت الحرب العالمية الأولى لتعطل كل هذه الخطط ولكن إلى حين.

ومع بداية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، أعلن الإنجليز الأحكام العرفية في مصر والقوا القبض على أعداد كبيرة من الوطنيين، وأطلقوا يد القائد العام للقوات البريطانية في مصر في اعتقال من يشاء.

وخطط محمد فريد للاستفادة بالتناقضات التي فجرتها الحرب العالمية، فوافق على الصلح مع الخديوي عباس علي شريطة أن يمنح الأمة الدستور، وقد فعل بالفعل في ١١ نوفمبر ١٩١٤، كما أتفق مع الشيخ جاويش على تفجير الثورة بمصر بالاستعانة بالأتراك والألمان، والحصول على السلاح اللازم منهما[٢٧].

إلا أن بريطانيا ردت علي ذلك بإعلان الحماية الرسمية على مصر ومحو السيادة الاسمية لتركيا عليها، كما قامت بخلع الخديوي عباس وتولية حسين كامل بدلاً منه بلقب سلطان وإلغاء وزارة الخارجية المصرية، وإن

استمرت الوزارة المصرية برئاسة حسين رشدي، وذلــك فـــي ١٨ ديســـمبر ١٩١٤.

وعبر الشعب في مصر عن رفض الإجــراءات، فاحتجبــت صـــحيفة الشعب عن الظهور يومًا لهذا السبب، كما لبس المصريون ملابــس الحـــداد، ووزع الشباب الوطني المنشورات التي تهدد وتندد بتلك الإجــراءات، وقـــد حكمت السلطات البريطانية على أحد موزعي المنشــورات وهـــو مصـــطفى الترمذي بسنة مع الشغل، وأضرب طلبة الحقوق فـــي ١٨ فبرايـــر ١٩١٥، حينما عرفوا بزيارة السلطان حسين لهم، وتم اعتقال عدد كبير من الـــوطنيين ونفي البعض الآخر إلى الخارج، ووضع عدد آخر تحت المراقبة.

وعلى حين أظهرت الأمة هذا الرفض، قام سعد زغلول باســـتقبال أول مندوب سام بريطاني على مصر السير "أرثر ماكماهون" على محطة العاصمة ساعة مجيئه يوم ٩ يناير ١٩١٥، وقال عنه على مسمع مـــن المســـتقبلين إن دلائل الخير بادية على وجهه.

وعلى الرغم من عمليات الاعتقال والنفي والمراقبـــة، كانـــت الـــروح المعنوية لعناصر الحركة الوطنية المصرية عالية، وأصبحوا في شغل شاغل تنظيم أعمالهم استعدادًا للثورة عند سنوح الفرصة، ولكنهم ينتظرون من قيادة الحزب في المنفي إرسال السلاح والذخائر، وهم مجهزون الوسائل لإدخالهـــا سرا وحفظها في أماكن أمينة لحين توزيعها، ومن ثم سافر محمد فريـــد إلـــى برلين للسعي في الحصول على أسلحة وذخائر (٢٩).

وفي الحقيقة فإن المنظمات السرية، وخاصة منظمة التضامن الأخـــوي كانت قد دخلت في طور جديد مع عام ١٩١٤، بفضل نشاط الدكتور محمـــد

صالح الملاح، والدكتور عبد الفتاح يوسف وغيرهما، ونشرت تلك الجمعية فروعًا أخرى في الأقاليم [٣٠] .

وقد قامت تلك المنظمة بمحاولة لاغتيال السلطان حسين كامل في ٨ أبريل ١٩١٥ على يد محمد خليل التاجر بالمنصورة، حيث قام باعتراض موكبه في وضح النهار وأطلق عليه النار، إلا أن النار أصابت العربة وحدها، وقبل أن يطلق المزيد من الرصاص استطاع حرس السلطان أن يقبض عليه [٣١]، وعندما تم تفتيش منزل محمد خليل تم العثور على أوراق احتوت الطعن على الإنجليز والدعوة إلى الثورة، واتهام السلطان حسين كامل بالخيانة [٣٢]، وكان فرع عبد الرحمن الرافعي الذي كان محمد خليل تابعًا له، في إطار جمعية التضامن هو المسئول عن هذه العملية [٣٣].

وحاولت الجمعية مرة أخرى اغتيال السلطان عن طريق إلقاء قنبلة عليه أثناء سيره بشارع عابدين من إحدى الشقق، ولكن المحاولة لم تكتمل لأن الشقة التي تم استئجارها لهذا الغرض أتضح أنها غير مناسبة لإتمام العملية، فتم الاتفاق على قيام إحدى الخلايا الثورية بالإسكندرية بهذه المهمة، واتخذت الترتيبات لذلك فتم استحضار أصابع ديناميت لتحضير القنبلة، وقام محمود عنايت بتصنيعها، وسلمت لمندوب الإسكندرية، وبالفعل تم إلقاء القنبلة على موكب السلطان يوم الجمعة ٩ يوليو ١٩١٥، إلا أن القنبلة لم تنفجر، وبعد التحقيق تم اعتقال نجيب الهلباوي وآخرين بتهمة إلقاء تلك القنبلة، وضبطت في منازلهم عدة مسودات للخطب التي تحض على كراهية الأجانب الذين يأتون إلى مصر وينهبون أموالها، وكذلك عدة خطابات توضح انتماء كاتبها

إلى الحزب الوطني، واستعداد أعضائه البالغين ٨٠٠,٠٠ (ثمانمائة ألـف) بالتضحية بكل مرتخص وغال لإنقاذ البلاد [٣٤].

وقامت خلايا الجمعية أيضًا بمحاولة اغتيال إبراهيم فتحى، فقد هاجمه صالح عبد اللطيف في محطة سكة حديد مصر حينما كان يهم بالسفر إلى الصعيد، وذلك لدوره في اكتشاف مدبري حادثة اغتيال الخديوي بالإسكندرية، وكشف صالح عبد اللطيف في التحقيق معه أن النية تتجه إلى اغتيال ماكماهون المندوب السامي البريطاني ، وعبد الخالق ثروت وحسين رشدي [٣٥].

كما تم اكتشاف عدد من الخلايا السرية بالمنصورة تعد العدة لمساعدة الأتراك عند دخولهم مصر بأحداث شغب فيها، بأن يتوجه مجموعة إلى كل مديرية ليبثوا الهياج فيها ويكسروا الكباري ويقطعوا طرق المواصلات، وتفجير ثورة شاملة [٣٦].

وعقب هذه الحوادث صدرت أحكام الإعدام على العديد من الشباب الوطني، كما تم اعتقال عدد كبير منهم، إلا أن المنظمات السرية برغم اكتشاف بعض خلاياها ظلت متماسكة، وتعمل على الإعداد للثورة، وكانت تتراسل سرًا مع محمد فريد، وتنتظر اللحظة المناسبة لتفجير الثورة، حين يقوم الأتراك بالهجوم على الإنجليز في مصر، إلا أن انكسار الحملة التركية أدي إلى تأجيل الثورة مرة أخرى إلى أن اندلعت في سنة ١٩١٩ .

ويعلق د. ضياء الدين على ذلك بقوله " وفي الحقيقة أنه لولا تلك الجهود التي بذلها الحزب الوطني وقيادته الثورية ما نشبت ثورة ١٩١٩ ،ومما لاشك فيه أن الكوادر الثورية التي شكلها الحزب الوطني من خلال المنظمات السرية، كانت هي التي فجرت ثورة ١٩١٩، فقد كانت تلك الكوادر

مستعدة للثورة دائمًا، ولكن تم تأجيل موعد تلك الثورة مرة بعد أخرى لأسباب كثيرة محلية ودولية " (٣٧).

ولم يكن هناك بد من انفجار ذلك المخزون الثوري الهائل سنة ١٩١٩، بعد أن فقدت مصر الأمل في الاستقلال، ونكثت كـل القـوي والحكومـات بعهودها مع مصر، خاصة دول الحلفاء، بل إن هزيمة الأتراك والألمان فـي تلك الحرب كان أيضًا سببًا في اندلاع تلك الثورة، حيث لا مفر من الاعتمـاد على الذات بعد أن ضاع الأمل في إمكانية هزيمة الإنجليز في الحرب على يد الأتراك والألمـان.

هوامش

(١) الرافعي، مرجع سابق ص ٣١٨.

(٢) الرافعي، مرجع سابق ص ٣١٨.

(٣) نقلا عن الرافعي، مرجع سابق.

(٤) جريدة المقطم، ٢٦ أغسطس ١٩١٢.

(٥) جريدة المقطم، ١٠ يوليو ١٩١٢.

(٦) خطابات محمد فريد، مظروف (٢) خطاب (٢٢).

(٧) مذكرات محمد فريد، كراس (٢) ص ٦٤، ٦٥.

(٨) خطابات محمد فريد، مظروف (١٣) من أحمد وفيق المحامى، إلى محمد فريد، ١٧ يونيو ١٩١٤.

(٩) الرافعي، مصطفى كامل، ص ٢٥١.

(١٠) الرافعي، مصطفى كامل، ص ٤١٥.

(١١) من مذكرات سعد زغلول كراس (٦) ص ٢٨١ ــ ٢٨٣.

(١٢) من مذكرات سعد زغلول كراس (١٢) ص ٦٠٠، ٦٠١.

(١٣) من مذكرات سعد زغلول كراس (٩) ص ٣٩٢، ٣٩٣.

(١٤) صحيفة المؤيد، ٢٨ أكتوبر ١٩٠٧، ومن مذكرات سعد زغلول كراس(٩) ص ٤٢٥.

(١٥) من مذكرات سعد زغلول كراس (٩) ص ٤٣٣ ــ ٤٣٨.

(١٦) د٠ عصام ضياء الدين، مرجع سابق ص ١٦٦.

(١٧) الرافعي، محمد فريد، ص ١٧٥.

(١٨) مجلة المصور العدد ٢٤٧٥، ١٧ مارس ١٩٧٢، مذكرات شيخ الفدائيين المصريين أحمد رمضان.

(١٩) اللواء، ٩ مايو، ٢٥ مايو، ٢٦ مايو سنة ١٩٠٨.

(٢٠) من مذكرات سعد زغلول كراس (٢٠) ص ١٠٤٢.

(٢١) الرافعي، محمد فريد، ص ٢٦١.

(٢٢) من مذكرات سعد زغلول كراس (٢٢) ص ١٠٩٥ ــ ١٠٩٩.

(٢٣) خطابات محمد فريد، مظروف (٢) خطاب ٢٣.

(٢٤) الرافعي، محمد فريد، ص ٣٤٧.

(٢٥) مذكرات محمد فريد، كراس (٢) ص ٦٧.

(٢٦) الشعب، ٢٧ نوفمبر ١٩١٣.

(٢٧) مذكرات محمد فريد، كراس (٢) ص ٨٥ ــ ٨٨.

(٢٨) المقطم، عدد ١١ يناير سنة ١٩١٥.

(٢٩) مذكرات محمد فريد، كراس (٤) ص ١٢٦.

(٣٠) وثائق تحقيق اغتيال السردار، محضر تحقيق النيابة في ٢٣ يونيو ١٩٢٥، وأيضًا مجلة المصور عدد ١٧ مارس ١٩٧٢، مذكرات شيخ الفدائيين المصريين.

(٣١) المقطم ٩، ١٠ أبريل ١٩١٥.

(٣٢) نفس المصدر السابق.

(٣٣) وثائق تحقيق اغتيال السردار، محضر تحقيق النيابة في ٢٣ يونيو.

(٣٤) وثائق اغتيال السلطان حسين كامل، دار القضاء العالى، ملف (١).

(٣٥) مذكرات سعد زغلول كراس (٢٤) ص ١٢١٧.

(٣٦) مذكرات سعد زغلول كراس (٢٤) ص ١٢٣٣، من العجيب أن سعد زغلول يعلق على تلك الحوادث بتحريضه وتجنيده قيام الحكومة بمظهر الشدة والبأس لتأمين نفسها، ويصف أيضًا نفسه بأنه مدين للسلطان ورئيس حكومته، وأنه كان مطمئنًا إلى المندوب السامي البريطاني.

(٣٧) د. عصام ضياء الدين، مرجع سابق ص ٢٩٣.

ثورة ١٩١٩

كانت الحركة الوطنية في حالة ثورة منذ ١٩٠٨، فقد كانت تلك الحركة بحشد جماهيري واسع حول قضيتي الجلاء والدستور، وخاضت العديد من المعارك دفاعًا عن هاتين القضيتين، وفجرت العديد من المظاهرات والإضرابات، بل وحوادث الاغتيال ،وأنشأت عدد من التنظيمات السرية والعلنية، فبلغت المنظمات السرية حوالي ٨٥ منظمة قامت بالعديد من الأعمال على كل مستوى، كما استطاعت الحركة أن تحشد العمال والفلاحين عن طريق النقابات والجمعيات التعاونية الزراعية والصناعية، ووصل انتشارها إلى حد أن صحف الحزب الوطني أصبحت تقرأ في الحقول أو على المصاطب في أعماق الريف المصري.

كانت حالة الثورة تتسع وتضيق وفقًا للعديد من العوامل، وفي الحرب العالمية الأولى قررت قيادة الثورة أن تستفيد من التناقضات التي فجرتها الحرب لإشعال ثورة شاملة في حالة هجوم عسكري تركي على الإنجليز في مصر ولكن فشل الغزو التركي حال دون تنفيذ تلك الخطة، وفي المقابل كانت سلطات الاحتلال تسعي جادة لتصفية الحركة الوطنية وتطويقها عن طريق تقيد حرية الصحافة، وممارسة القمع البوليسى لقيادات، وكوادر الحركة ووصل الأمر إلي حد سجن، ثم محاصرته لدفعه إلى الهجرة من مصر، وكذلك فعلت مع الشيخ جاويش، وغيره من قيادات الحركة الوطنية المصرية، كما أصدرت سلطات الاحتلال سلسلة من القوانين الاستثنائية، والمقيدة

للحريات، وعملت في النهاية على محاولة شق صفوف الحركة الوطنية في غياب قيادتها التاريخية، ومحاولة نزع عنصر المبادرة الجماهيرية من يدها عن طريق وضع أحد الموالين للاحتلال على رأس الحركة مثل سعد زغلول، ولكن تلك الخطة فشلت، فلجأت سلطات الاحتلال إلى تشكيل كيان وطني من عناصر غير متطرفة في وطنيتها أو يمكن الوصول معها إلى أنصاف الحلول أو حتى الرضا بشيء من المطالب في مقابل التنازل عن المطلب الرئيسي للحركة وهو الجلاء العاجل.

وكانت سلطات الاحتلال تدرك تمامًا أن الثورة الشاملة ستنفجر حتمًا، وخاصة بعد انتهاء الحرب وإعادة ترتيب مناطق النفوذ في العالم، وتطلع الشعوب المحتلة إلى انتزاع استقلالها، وكانت تدرك أنها طالما أصرت على استمرارها في احتلال مصر وفرض الحماية عليها وإلغاء حق السيادة الشكلية التركية عليها، فإن ذلك كله سيجعل الشعب المصري يلجأ إلى الطريق الوحيد المتاح أمامه لانتزاع استقلاله، وهو طريق الثورة بعد نفاذ صبره وضياع أمله في أن يمنحه مؤتمر الصلح هذا الاستقلال، كانت سلطات الاحتلال تدرك أن التراكمات الثورية الطويلة التي زرعها مصطفي كامل ومحمد فريد وغيريهما لابد ستنفجر يومًا، وحان هذا اليوم بعد الحرب العالمية الأولى، وتجاهل مطالب مصر في مؤتمر الصلح.

وكان لابد من تطويق هذا الأمر، ومحاولة احتواء الثورة المرتقبة أو استنفادها في متاهات وروافد جانبية، وهكذا كان لابد من قوة جديدة تكون بديلة للحزب الوطني الذي هو القيادة الطبيعية والصلبة للجماهير والتي لم

تعرف التنازل عن مطالبها يوما، وكانت تلك القوة الجديدة هي ظهور حــزب الوفد بحيث تكون قيادته من المعروفين بموالاة الاحتلال أو مهادنته أو عــدم الصبر الطويل على النضال الجماهيري ضد الاحتلال، وعلي أساس أن يرفع هذا الحزب مطلب الجلاء بشرط استبعاد الحزب الوطني مــن المســألة ثــم الوصول مع حزب الوفد إلى حلول جزئية وجانبية.

إذا كانت الثورة كانت مسألة حتمية بفعل الجهــاد الطويــل والتــراكم الثوري الذي تركه الحزب الوطني في الواقع المصرى، وبفعل وصول الشعب المصري إلى قناعة بأنه لا أمل في الاستقلال عن طريق مؤتمر الصلح فــإن ذلك كله كان ومع نهاية الحرب العالمية الأولى قد وجد أسبابًا أخــرى، كــان هناك إعلان الحماية البريطانية على مصر وإلغاء السيادة التركيــة الاســمية عليها وكان هناك خلع الخديوي عباس وتعيين السلطان حسين وأيا كان الرأي في هذا الخديوي أو ذاك السلطان، فإن مجرد التلاعب بالعرش وجعل أمــره في يد الإنجليز يعني إهدار كامل لقيمة الشعب وهيئاته التشريعية مهما كانــت ضعيفة أو شكلية.

وكان هناك توريط مصر في الحرب على الرغم من قناعتهــا الدينيــة والمصلحية التي تحتم وقوفها مع تركيا أو على الأقل عدم الوقــوف ضــدها، ولكن الإنجليز زجوا بمصر ومرافقها وشعبها لدعم المجهود الحربي للحلفــاء وساعدهم على ذلك سلطان ضعيف وحكومة خائنة (حكومة حسين رشــدي) حيث تركت للإنجليز إجبار المصريين على العمل في بلاد الحلفــاء أو فــي معسكراتهم، بل وساهمت في الحرب بثلاثة ملايين جنيه تبرعت بها لصــالح

إنجلترا بدعوى أن إنجلترا تحمي مصر !! بل وصل الأمر إلـــى حــد جمــع الدواب وبيعها بثمن بخس للإنجليز لدعم المجهود الحربي للحلفــاء، ووصـــل الأمر أيضًا إلى حد الزج بالجيش المصري لقتال الأتراك في ســيناء والقنـــاة والسنوسيين على حدود مصر الغربية، ومساعدة الإنجليز على السيطرة على السودان.

وكانت هناك المظالم الإدارية التي مارستها السلطات لحساب الإنجليز، والتي تعسفت في قهر الشعب سواء بالأحكام العرفية، أو تعطيــل الجمعيـــة التشريعية أو إلغاء وزارة الخارجية أو وضع الرقابة على الصحف أو باعتقال الأهالي بسبب أو بدون سبب أو ممارسة أقسي أنواع الظلم في جمع الرديــف أو العمال المطلوبين لخدمة المجهود الحربي للحلفاء .

وكانت هنـــاك عمليـــات مصـــادرة الأرزاق والحاصـــلات الزراعيـــة والمواشي والدواب مما جعل حياه الأهالي عسيرة جـــدًا، وأصـــيبوا بـــالفقر والجوع وعانوا من الغلاء.

فإذا أضفت لتلك العوامل أن بريطانيا وفرنسا قد أصدرتا العديــد مـــن التصريحات التي تنص صراحة على الوعد بالاستقلال للشعوب المســتعمرة ،وبعد انتهاء الحرب تبخرت تلك الوعود، وتنكرت تلك الدول لتصـــريحاتها، فإن من الطبيعي أن تندلع الثورة، وأنه لن يستطيع أي إنسان أو دولة أو حزب أو سلطة أو وعد أن يمنع اندلاع تلك الثورة في ذلك الوقت، وكان المخطــط الاستعماري الإنجليزي الخبيث يدرك أنه لن يستطيع منـــع انفجـــار الثـــورة وبالتالي عمل على تطويقها قبل أن تبدأ، ووضع على رأسها بالخداع والقسر

والإجراءات زعامات يمكن لها أن تتفاهم مع الإنجليــز، وأن تلتــف حــول الجماهير وتلهيها بمكاسب جزئية مؤقتة.

وكانت سلطات الاحتلال تعمل منذ وقت مبكر، وكانت تدرك أن التراث السياسي والمبدئي للحزب الوطني والخبرة التاريخية التي أمتلكهــا ســتجعله متمسك بالمبادئ الجوهرية للشعب في الجلاء العاجل والدستور، وبالتالي فلابد من إزاحة هذا الحزب جانبا والتخلص من قيادات الحركة الوطنية التي ترفض الحلول الوسط والمفاوضات والمناورات، وهكذا وجــدنا ســلطات الاحــتلال تحرص على ضرب الحزب الوطني ضربات متلاحقة وعنيفة، وصلت إلــى حد القضاء على صحافته تماما والتخلص من شخصيات الحــزب المخلصــة والثورية فتم اعتقال البعض وتم نفي البعض الآخر، كما مارســت ســلطات الاحتلال أقصى قدر من القمع والاعتقال والمطاردة والتفتيش لكوادر الحزب ومنظماته العلنية والسرية.

وفي نفس الوقت عملت سلطات الاحتلال على التفاهم والمناقشــة مــع قطاع من الأعيان المصريين وخاصة الوزراء الحاليين والسابقين حــول مــا يسمي بالمسألة المصرية، ومن الطبيعي أن هذا القطاع من الأعيان والوجهاء كان يسعى لانتزاع استقلال مصر ولكن في إطار السيطرة الإنجليزية علــى الأماكن الحيوية في مصر مثل قناة السويس، وفي إطار السعي لدي مــؤتمر الصلح أو مناشدة الضمير الإنجليزي أو غيرها من الوسائل التي لم ولن تجدي يومًا، وكان هذا القطاع يضم عناصرًا تبدأ من تلك الموالية للاحتلال تمامًا أو تلك المهادنة له، أو حتى الرافضة للاحــتلال فــي غيــر الإطــار الثــوري

والجماهيري وكان الحديث بين هؤلاء الوجهاء قد بدأ يدور في نهاية الحــرب العالمية الأولى حول ضرورة مناشدة الإنجليز الوفاء بالعهود التــي قطعتهــا إنجلترا على نفسها لمنح مصر الاستقلال أو عرض تلك المسألة على مــؤتمر الصلح، كان من أوائل الذين فكروا في هذا هو الأمير عمر طوســون، وقــد أفضي بهذا التفكير إلى سعد زغلول في حفل أقامه رشدي باشا في الإسكندرية في ٩ أكتوبر سنة ١٩١٨، ثم عاد ففاتحه في هذا الأمر مرة أخري يــوم ٢٣ في حفل أقامه السير رجنلد ونجت [١]، أي أن الفكرة نشأت فــي صــالونات المعتمد البريطاني أو حفلات رئيس الوزراء وبين سراة القوم، على أنه مــن العجيب أنه تم استبعاد الأمير عمر طوسون وهو صاحب الفكرة عــن هــذا الأمر فيما بعد وتم تجاهله لأنه يحمل شيئا من الجفــاء للإنجليــز [٢]، أي أن المطلوب حصر المسألة في المعروفين بعدم الجفاء للإنجليز !!.

وقد أتفق كل من حسين رشدي باشا رئيس الوزراء وسعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي، على أن يقوم الثلاثــة الأخيرون بزيارة المندوب السامي البريطاني ونجت للحديث معه في المســألة المصرية، وبعد تمام الزيارة عاد هؤلاء الثلاثة إلى حسين رشدي باشا مباشرة فنقلوا إليه ما دار من حديث مع السير ونجت [٣].

ولكن ماذا طلب هؤلاء الثلاثة من السير ونجت عند مقابلتــه فــي ١٣ نوفمبر ١٩١٨، طلبوا استقلال مصر في مقابل ضمانات لإنجلترا بأن تكــون صاحبة وضع خاص في مصر، وأن يكون من حقها احتلال قناة السويس عند الاقتضاء، أي أن المطلوب استقلال منقوص، لأن الاستقلال يعنــي اســتقلال

كامل التراب المصري وليس انتقاص جزء منه مثل قناة السويس، وقارن بين هذا وبين المطلب التقليدي والدائم للحزب الوطني في الجلاء التام دون قيد أو شرط.

ويعلق الرافعي على ذلك :" ومن هذه المقارنة تستطيع أن تعرف الفرق بين مذهبين مختلفين، مذهب التفاهم مع الاحتلال ومـذهب الجـلاء وعـدم التعاون مع الاحتلال "٠

- أعترف الثلاثة بأن للإنجليز فضل كبير على مصر !! وأن المطالـب المصرية يجب أن تكون محل مداولة بين مصر وإنجلترا مباشرة دون إشراك غيرها في هذا الأمر وفي هـذا اعتـراف ضـمني بشـرعية الاحتلال.
- هاجم المستر ونجت الحزب الـوطني ومحمـد فريـد واصـفًا إيـاه بالتطرف، وقد نفي الثلاثة صلتهم بالحزب الـوطني وأعلنـوا عـدم تطرفهم واستعدادهم حتى للقبول بمستشار إنجليزي دائم للمالية لتطمئن أصحاب الديون.
- أصر المستر ونجت على أن تلك المحادثات ودية وليست ذات صـفة رسمية، كما المح للثلاثة عن عدم حقهم للحديث باسم مصر.

وبالطبع لم يكن المستر ونجت يلهو أو يلعب وهـو الخبيـر بالشـئون المصرية، وقد قبل الحديث مع هؤلاء الثلاثة ليحقق أكثر من هدف، وهو الذي يعرف جيدًا أن جميع الأحوال في مصر تبشر بانفجار الثورة، وكان ونجـت يستهدف تخدير الجماهير بمثل تلك المحادثات ويهدف أيضًا إلى إظهار زعامة

أخري للجماهير غير زعامة الحزب الوطني المتشددة والمتطرفة من وجهة نظرة طبعًا، أي أن الهدف هو منع انفجار الثورة، أو وضع زعامة فوق رأسها تكون أكثر استعدادا للتفاهم.

علي كل حال ابتلع الثلاثة الطعم إلى آخرة، أو قل حاولوا تبليعه للشعب المصري فاتفق سعد زغلول مع حسين رشدي باشا على تأليف هيئة تسمي (الوفد المصرى)، وأن تحصل هذه الهيئة على توكيلات من الأمة تخولها هذه الصفة، أي ظهور قوة شعبية أخري كبديل عن الحزب الوطنى، وبالطبع فإن هذه القوة الجديدة مرشحة لاستقطاب عدد كبير من الجماهير مادامت تطالب بالاستقلال، ولكن بشرط ألا تكون هذه القوة الجديدة ثورية وأن تقتصر على الوسائل القانوني والتفاوضية، أي أن حزب الوفد نشأ من رحم المفاوضات والحلول الوسط ورفض منطق الثورة، وقد تأسس بالاتفاق بين سعد زغلول وحسين رشدي باشا، ولكي نفهم طبيعة هذه القوة الجديدة التي من المقدر أن تلعب دورًا هامًا في مستقبل مصر يجب أن نحدد من هو حسين رشدي باشا ومن هو سعد زغلول باشا.

حسين رشدي باشا هو رئيس وزارة مصر (١٩١٤ـ ١٩١٩) في عهد كل من الخديوي عباس حلمي الثانى، السلطان حسين، الملك أحمد فؤاد، وقبل ذلك عمل وزيرًا للحقانية في وزارة بطرس غالي ١٩٠٨ـ١٩١٠، ثم وزيرًا للخارجية في حكومة محمد سعيد ١٩١٠ ـ ١٩١٤٠.

أي أنه عمل في ظل الاحتلال كوزير ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ ثم كرئيس للوزراء ١٩١٤ـ١٩١٩ وبالتالي فهو من الموالين للاحتلال الإنجليزي وهو

مسئول عن المآسي والتفريط في حقوق الشعب المصري كوزير في وزارة بطرس غالي التي حاولت مد امتياز قناة السويس، وإصدار القوانين المقيدة للحريات وتنفيذ المخططات الإنجليزية في مصر، ومسئول كوزير في حكومة محمد سعيد التي مارست أبشع أنواع القمع والمطاردة والتصفية والمحاكمات والسجن لعناصر الحركة الوطنية المصرية وللشعب المصري عموما.

وكرئيس للوزراء وصل إلى أقصى مستنقع الخيانة، فلم يتوان عن تخويل إنجلترا حق التمتع بحقوق الحرب كافة في المواني المصرية وجميع الجهات في البلاد، وذلك بالقرار الذي أصدره في ٥ أغسطس ١٩١٤، كما أصدر القرارات المتوالية خدمة للإنجليز مثل قرار التجمهر وإعلان الأحكام العرفية ووضع الرقابة على الصحف في نوفمبر ١٩١٤، وعندما أعلنت الحماية الإنجليزية على مصر في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤، وخلع الخديوي عباس الثاني في ١٩ ديسمبر ١٩١٤، لم يستقل رشدي باشا احتجاجا وهو ابسط مظاهر الوطنية، بل استمر في العمل كرئيس للوزراء، واستمر في خدمة المصالح الإنجليزية، فقام باعتقال الوطنيين ونفي البعض الآخر منهم وعطل الجمعية التشريعية، كما دعم المجهود الحربي الإنجليزي بالجنود المصريين في السودان، وفي سيناء والقناة وعلي حدود مصر الغربية، كما قام بجمع الرديف والعمال المصريين وترحيلهم إلى معسكرات الحلفاء خدمة للمجهود الحربي للحلفاء، بل ومارست حكومته وموظفيه أبشع عمليات القمع والظلم في ذلك الأمر لحساب الإنجليز، ووضع كل موارد مصر المالية في خدمة الإنجليز فسمح لهم باستخدام كافة المرافق المصرية، وجمع لهم الدواب

والمواشي، وصادر الأموال والغلات والمحاصيل لصالح الإنجليـز ووصـل سخاؤه مع الإنجليز إلى حد منح الحكومة الإنجليزية ثلاثة ملايـين جنيـه !! وقال مجلس الوزراء في ذلك أنه اعتراف بجميل بريطانيا لهم بل والتلاعـب بالنقد المصري خدمة للخزانة الإنجليزية عن طريق البنك الأهلي المصـري إسما " الأجنبي فعلاً " وإصدار أوراق النقد بلا ضابط ولا رابط مما تسبب في غلاء الأسعار غلاء فاحشًا، أي أنه تسبب في أن تدفع مصر جزءًا كبيرًا مـن نفقات الحرب بلا مبرر.

كل هذه المواقف وغيرها مما فعلته يد حسين رشدي باشا، فهل يمكن أن يستيقظ ضميره فجأة ويصبح معاديًا للإنجليز ومطالبًا بحقوق مصر ومهندسًـا لظهور الوفد المصري بالتعاون مع سعد زغلول، إن باب التوبة مفتوح طبعًا، ولكن بشرط إدانة مواقفه السابقة والتبرؤ منها ثم العودة إلى صفوف الحركـة الوطنية كجندي من جنودها وليس مهندسًا لظهور قوة بديلة عن تلك الحركـة الوطنية.

أما سعد زغلول فهو وزير المعارف في حكومة مصطفي فهمـي منـذ ١٩٠٦، وقد وقف من خلال ذلك المنصب موقفًا مريبًا وقمعيًا مـن الحركـة الطلابية وشهد الطلبة على يديه كثير من الاضطهاد والعنت، ووقـف سـعد زغلول ضد اقتراح الجمعية العمومية بجعل التعليم في الدارس الأميرية باللغة العربية بدلاً من الإنجليزية (مارس ١٩٠٧) وقد كتب مصطفي كامل تعليقًـا على هذا الأمر:" إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كان يفهمون من قبـل لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الـوزراء

مصطفي فهمي باشا الأمين على وحيه الخادم لسياسته، وفهمت الناس الآن أن سعد زغلول شديد الميل إلى السلطة فلو كان وزير محترمًا لاستقال احتجاجًا على عدم تعليم اللغة العربية في المدارس الأميرية، ولكنه راح يدافع عن اللغة الإنجليزية معتقدًا أن ثقة اللورد كرومر كافية وحدها لحمايته من غضب الشعب، وأن سعد الآن قائم على منحدر هائل مخيف " (٤).

ووقف سعد زغلول مع وزارة بطرس غالي ضد الأمة المطالبة بالدستور بدعوى أن الأمة لم تنضج بعد لهذا الأمر، كما دافع عن مشروع مد امتياز القناة الذي حاولت وزارة بطرس غالي تمريره وتنفيذه خيانة لمصر ومصالحها ومستقبلها، كما شارك سعد من خلال وزارتي بطرس غالي ١٩٠٨ ــ ١٩١٠، ومحمد سعد ١٩١٠ ــ ١٩١٢ في عمليات القمع والاضطهاد والتي تعرضت لها الحركة الوطنية المصرية، وساهم باعتباره وزيرًا للحقانية في وزارة محمد سعيد في إصدار العديد من القوانين المقيدة للحريات، وإصدار قرارات الاتهام لقيادات الحركة الوطنية وزجهم في المحاكمات والسجون.

وكان سعد زغلول لا ينكر علاقته الودية باللورد كرومر، بل إن سعد أمتدح اللورد كرومر في حفلة توديعه عقب حادثة دنشواى، وهي الحفلة التي قاطعها الشرفاء جميعًا على اختلاف ميولهم كاحتجاج على الأقل على مذبحة دنشواى، وفي تلك الحفلة ذاتها أمتدح اللورد كرومر كل من سعد زغلول، ومصطفي فهمي وبطرس غالي !! ليس هذا فحسب بل إن سعد زغلول قام باستقبال أول مندوب سامي بريطاني في مصر على رصيف محطة سكك

حديد مصر وقال عنه أنه يري في وجهه دلائل الخير !! وذلك عقب إعـــلان الحماية الإنجليزية على مصر، وطوال الحرب العالميـــة الأولـــى ١٩١٤ — ١٩١٨ لم تبد من سعد أي حركة اعتراض على مظالم الإنجليز أو المغـــارم التي غرمتها مصر بسبب الحرب.

إذن سعد لم يكن قد خرج من رحم الحركة الوطنية المصرية، ولم يكن حتى انشقاقا عليها بل جاء من عباءة السلطة وبالتحديد مـــن عبـــاءة اللـــورد كرومر صديقه الحميم، ولم يكن سعد يخفي رأيه السيئ في الحركة الوطنيـــة المصرية، وهؤلاء المطالبين بالجلاء والدستور، ولم تكن الحركـــة الوطنيـــة المصرية أيضًا تخفي رأيها في سعد زغلول فهـــو جـــلاد الشـــعب بقوانينـــه الاستثنائية على حد قول محمد فريد.

إذن كيف أصبح سعد زغلول قائدًا للثورة ؟ أليس هذا مثار للعجـــب !! نعم قد تكون الثورة فرصة للتطهير، ولكن التطهر والتوبة هنا تقتضي الالتزام بمبادئ الحركة الوطنية والتخلي عن القناعات الشخصية السابقة بل وإدانتهـــا علنًا والانخراط في صفوف الحركة الوطنية كجندي فـــي صـــفوفها، ولـــيس تشكيل هيئة أخري كبديل عن تلك الحركة فإن ذلك يثير أكثـــر مـــن علامـــة استفهام ؟؟!

علي كل حال نشأ "الوفد المصرى" على يد سعد زغلول وحسين رشدي وأصبحت المسألة في مصر تتلخص في شعب ثائر وقيادة مهادنه.

وإذا حاولنا أن نعرف شخصيات الوفد الذي تشكل عقـــب مقابلـــة ١٣ نوفمبر ١٩١٨، نجده يضم كل من سعد زغلول، وعلـــي شـــعرواي، وعبـــد

العزيز فهمي، ومحمد محمود باشا، وعبد اللطيف المكباتى، محمد على علوبة، وأحمد لطفي السيد.

والملاحظة الأولى على هذا الوفد أنه قد أستبعد من عضويته أيا من عناصر الحزب الوطني أو العناصر المناوئة للاحتلال، بل كان يضم شخصيات أما موالية للاحتلال أو على الأقل غير معادية له، وكانوا جميعًا من كبار ملاك الأراضى، أو من أعضاء الجمعية التشريعية، أو من قيادات حزب الأمة المعروف بعدم عدائه للإنجليز، بل في عضويته أحمد لطفي السيد وهو زعيم حزب الأمة والمناهض الأول للحركة الوطنية والذي كان يتهمها بالتطرف ويمتدح سلوك الإنجليز في مصر ويشيد بإنجازاتهم ويدعو للتعاون معهم (٥)، وأثنين فقط من الحزب الوطني ولكن من المعتدلين هما علوبه باشا وعبد اللطيف المكباتي.

وقد يقول قائل إن تعمد استبعاد العناصر المناوئة للاحتلال كان تكتيكًا ذكيًا لعدم استفزاز بريطانيا، ومحاولة استرضائها لتمنحنا الاستقلال، ولكن هل هكذا تحصل الأمم على استقلالها ؟ هل بالاسترضاء !!

أليست خبرة التاريخ في كل مكان وزمان تقول أن الاستقلال ينتزع ولا يمنح، وأن الاسترضاء ليس سبيلاً بأي حال من الأحوال للحصول على حقوق الشعوب؟

وقد جاءت صيغة التوكيل في ذاتها لتؤكد الموقف التهادني وغير الثوري لتلك الهيئة، وتعكس رؤيتها في الإنجليز وفي الأسلوب والوسائل التي يمكن تحقيق الاستقلال من خلالها، تقول صيغة التوكيل الأولى (أن على

أعضاء الوفد أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حينما وجدوا سبيلا للسعي في استقلال مصر تطبيقًا لمبادئ الحرية والعدل التي تنشر رايتها بريطانيا العظمي وحلفاؤها، ويؤيدون بموجبها تحرير الشعوب).

وقد وقف الحزب الوطني موقفا معارضًا من صيغة التوكيل لخلوها من النص على الاستقلال التام ومنافاتها للكرامة، إذ جعلت المطالبة باستقلال مصر في حدود مبادئ العدل والحرية التي تنشر رايتها بريطانيا العظمي في حين أن جهاد الأمة وشكواها من الاحتلال إنما يرجعان إلى السياسة التي اتبعتها بريطانيا تجاه مصر منذ ١٨٨٢، هذا إلى خلو التوكيل من الإشارة إلى السودان إطلاقًا [٦].

وقد ذهب وفد يمثل الحزب الوطني ضم كل من الأستاذ عبد المقصود متولى، ومصطفي الشوربجي، ومحمد زكي على، ومحمد عبد المجيد العبد إلى دار سعد زغلول، وناقشوه في التوكيل واحتدت بينهم المناقشة، وأظهروا له رفض الجماهير لهذه الصيغة المهادنة، وقد أضطر سعد زغلول فيما بعد إلى تغيير تلك الصيغة بسبب الموقف المبدئي الذي وقفه الحزب الوطني فتغيرت الصيغة إلى (السعي بالطرق السلمية المشروعة لاستقلال مصر استقلالاً تامًا) وفسرت كلمة مصر هنا بأنها تعني بداهة مصر والسودان.

وقد رأي بعض أعضاء الوفد أن هناك خطورة من تحرك الحزب الوطني شعبيًا باتجاه انتزاع زمام المبادرة الجماهيرية للتصدي لقيادة الأمة في مطالبها نحو الاستقلال ووحدة وادي النيل والدستور، وأن الحزب الوطني لو فعل ذلك فأنه سيؤدي إلى تطويق حركة الوفد، حيث أن الحزب الوطني مازال

يتمتع بشعبية هائلة، ولذلك رأت بعض عناصر الوفد ضرورة تمثيل الحـزب الوطني في الوفد، ودخلت في مفاوضات مع الحزب الوطني في هذا الصـدد ألا أنها انتهت بالفشل لتمسك الوفد باختيار أشخاص معينة من الحزب الوطني وليس ترك الحزب الوطني ليختار من يمثله، وأخيرًا قام الوفد من تلقاء نفسه باختيار كل من الدكتور حافظ عفيفي، والأستاذ مصطفي النحـاس كممثلـين للحزب الوطنى، كما تم توسيع قاعدة الوفد بضم عناصر أخري إليـه مثـل محمد الباسل، وويصا واصف وغيرهما.

وفي الحقيقة فإن المواقف الطيبة التي مارسها الوفد بعد ذلـك كحـزب ترجع إلى مصطفي النحاس الذي كان قد تربي في صفوف الحزب الـوطنى، وتشرب شيئًا من مبادئه.

وفي الحقيقة فإن هذه مسألة تقودنا إلى مناقشة الخطأ التاريخي الذي وقع فيه الحزب الوطني مما جعله يفقد زمام المبادرة في النضال الوطني واعتلاء قوي مهادنه على رقاب الجماهير وتصبح لها الزعامة، وتستخدم تلك الزعامة في إضاعة تضحيات الجماهير والالتفاف حولها، وتضييع ثمار أكبر ثورة في تاريخ مصر المعاصرة ثورة ١٩١٩.

كانت فكرة ظهور الوفد وتشكيله بالطريقة السابقة ن وظهـور حركـة التوكيلات تجعل من الطبيعي أن تلتف بعض الجماهير حـول تلـك القيـادة الجديدة بأمل استخلاص الاستقلال، وكان لغياب الحزب الوطني والضـربات التي تلقاها طوال الفترة السابقة وغياب زعيمه المريض محمد فريد في المنفي أثر هام في نجاح فكرة الوفد بتلك الهيئة المهادنة، وصحيح أن الحزب الوطني

هو الذي حمل العبء الأكبر والرئيسي وربما الوحيد في الأعمـال الفدائيـة لثورة ١٩١٩، وكذلك في أعمال الهياج الجماهيرى، ولكن ذلك كله كان بعـد أن ترسخت قيادة الوفد وركبت على موجة المد الشعبى.

نعم كان الحزب الوطني يرفض فكرة الوفد في المبدأ على أساس أنهـا نوع من الاعتراف الصمتي بالحماية البريطانية، وأنها فكـرة لمفاوضـة أو استعطاف الإنجليز، ولكن هذا لم يكن يكفى، كان لابد من التحرك السريع قبل اكتمال المؤامرة، كان لابد من تفجير الثورة سريعًا وتطويق الوفد، وقد كـان ذلك ممكنًا برغم غياب صحافة الحزب الوطني وبرغم الضربات التي لحقتهظ وبرغم غياب معظم قياداته في المنفي أو السجون، نعم كان ذلك ممكنًا بـدليل أن الحزب الوطني لعب الدور الأكبر في ثورة ١٩١٩، وخاصة على مستوي العمل الفدائي والجماهيري والشعبي- وكان ذلك بعد تلـك العمليـة بشـهور قليلة- كان لابد من العمل سريعًا لتطويق القيادات المهادنة التي لا خير فيهـا مبكرا حتى إذا قامت الثورة كانت لها قيادتها الشرعية والطبيعيـة والصـلبة، ولقد دفعت الأمة ثمن الخطأ، حيث لم تحصل على استقلالها بـرغم الثـورة العملاقة، بل ظلت تدفع التضحيات تلو التضحيات منذ ١٩١٩، وفي كل مرة يأتي حزب الوفد ليطوق المكاسب والثورات، ويصل إلى أنصاف الحلـول أو أرباعها.

ونحن هنا لا نظلم قيادة الوفد، ولكننا نقـرر حقيقـة تاريخيـة أكـدتها الحوادث السابقة لثورة ١٩١٩، والمعاصرة لثورة ١٩١٩، والتاليـة لثـورة ١٩١٩، وإذا كان من البديهي أن القيادة الثورية والمكافحة والتي ظلت طـول

حياتها تنادي وتعمل من أجل الجلاء والدستور هي المرشحة لقيادة الجماهير دائمًا، فإن من غير الطبيعي أن تظهر شخصيات لم تكن يومًا ثورية أو جماهيرية أو حتى معادية للاحتلال، بل متعاونة معه دائمًا وأبدًا، وتصبح تلك الشخصيات هي قيادة الثورة، أو قل تمتطي صهوة الثورة لتسير بها في طرق جانبية.

كان الوفد بتركيبته التي بدأ بها والتي استمر بها خطًا جديدًا من خطوط القوي السياسية، التي لا تؤمن بالثورة ولا تعمل بها، وتحاول أن تطوقها إذا ظهرت، أو تمتطي صهوتها وتستفيد من مدها دون تحقيق أيا من مطالبها، ولقد أصبحت تلك المدرسة متسعة وخطيرة عقب ثورة ١٩١٩، وهي مدرسة الطريق غير الثوري لانتزاع الحقوق، بل طريق التفاوض والحجج القانونية والأسانيد الدولية وغيرها، وهي طريق القبول بأي شيء أو لا شيء حسب الأحوال.

وإذا كانت محاولة شريف باشا، وهي نفس المدرسة وإن كان أكثرها نظافة وأقلها تفريطًا، قد فشلت في احتواء الثورة العرابية، فإن محاولة سعد زغلول قد نجحت أيما نجاح.

وإذا استدعينا شاهد من الإنجليز نري فلنر يقول في تقريره لحكومته " إن الهيئة المستحقة للاعتبار المعروفة بالوفد التي يرأسها سعد زغلول باشا مؤلفة من أعضاء ليسوا من الغلاة المتطرفين، بل أصلهم من حزب الأمة القديم الذي كان غرضه التقدم الدستوري تدريجيًا بخلاف الحزب الوطني الذي هو حزب الثورة ومعارضة البريطانيين".

ولكن كيف يترك حزب الثورة ومعارضة البريطانيين زمـــام المبـــادرة الجماهيرية من يديه ليتسلمها هؤلاء المؤمنين بالتدرج، والذين هم في الأصل من حزب الأمة القديم الموالي للاحتلال ؟! هذا درس ينبغي علـــى الحركـــة الوطنية المصرية أن تستوعبه اليوم وغدًا.

علي أن هناك نقطة أخري جديرة بالاعتبار هي أن الوفد ضم عناصرا كانت في الأصل قد تربت في الحزب الوطنى، وتشربت بعض مبادئه، وكان ذلك كمحاولة لتطويق حركة الحزب ومنعه من القضاء على الوفد جماهيريًـــا في مهده، وإلي تلك العناصر بالتحديد ترجع بعض المواقف الصحيحة للوفـــد فيما بعد وخاصة مصطفي النحاس أي أن الإطار في الأصل لم يكن ثوريًـــا، وبالتالي فمهما كانت الشخصيات، ومهما كانت درجة صلابتها أو طهارتهـــا فإن الإطار غلاب.

ولكن المدهش على كل حال، عدم تحرك الحزب الوطني ســـريعًا،رغم أن محمد فريد مثلاً كان يدرك أن هؤلاء الذين شكلوا الوفد كانوا من عناصر لا يثق في إخلاصها وثباتها على النضال، ولا بتمسكها بحقوق البلاد [٧].

علي كل حال كانت تلك المسألة خطأ تاريخيا وقع فيه الحزب الوطنى، ولا يجدي في تبريره ألا دعاء بأن الحزب كان مطاردًا أو قيادته مسجونة أو منفية أو أن صحافته مقيدة، فمهما كان الأمر فإن قوة الحزب كانت تكفي لوأد تلك المحاولة .

هوامش

(١)الرافعي، ثورة ١٩١٩، تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

(٢) الرافعي، نفس المرجع.

(٣) الرافعي، نفس المرجع

(٤) اللواء، عدد ٩ مارس ١٩٠٧، تحت عنوان فشل وزير.

(٥) لم يضم هذا الوفد من عناصر الحزب الوطني ألا عبد اللطيف المكباتي، ومحمد على علوبه، والأول كان من المؤيدين للحزب الوطني بالشعور والمبادئ ، أما الثاني فكان عضوًا في هيئة الحزب الإدارية، على أنهما كان من غير المتحمسين تمامًا لأفكار الحزب الوطنى، وقد أشار اللورد فلنر في هذا الصدد بقوله " أن الهيئة المستحقة للاعتبار المعروفة بالوفد التي يرأسها سعد زغلول باشا مؤلفة من أعضاء أكثرهم ليسوا من الغلاة المتطرفين ، بل أصلهم من حزب الأمة القديم الذي كان غرضه التقدم الدستوري تدريجيًا بخلاف الحزب الوطني الذي هو حزب الثورة ومعارضة البريطانيين" ، وقد رأي بعض أصدقاء الوفد أن غياب الحزب الوطني عن تشكيل الوفد ربما يؤدي إلى إجهاض جهوده خاصة إذا تحرك الحزب الوطني شعبيًا، وأنه لابد من تمثيل الحزب الوطنى، ولكن الوفد أصر على أشحاص معينة، ولم يترك للحزب فرصة اختيار من يمثله، ولما تعذر الاتفاق اختار الوفد من تلقاه نفسه مصطفي النحاس باشا، والدكتور حافظ عفيفى، على أساس أنهما يمثلان الحزب الوطنى.

(٦) الرافعي، مرجع سابق.

(٧) الرافعي، مرجع سابق ص ٤٠٤.

مع بداية ١٩١٩ اتبع الإنجليز تكتيكًا غاية في الخبث والدهاء، وقد كانت خطتهم على عدد من الأسس كالتالي:

- يجب السيطرة الكاملة على مصر ووأد كل أشكال الثورة.
- إذا لم يكن هناك بد من الثورة فلتكن تحت قيادة عناصر مهادنة، ويمكن التفاوض معها لتطويق الثورة والقبول ببعض المكاسب.

وهكذا قام الإنجليز بالضغط لإقالة وزارة رشدي باشا (١مارس ١٩١٩) ورفض قبول سفر الوفد المصري إلى مؤتمر الصلح و اعتقال سعد زغلول ومعه من زعماء الوفد إسماعيل صدقي باشا، ومحمد الباسل باشا (٨ مارس ١٩١٩)، وكانت هذه الخطوة تعني أن الإنجليز يحاولون جس نبض الشارع المصري وقدرة الشعب على الثورة، فإن لم يحدث شئ من الثورة والهياج عقب ذلك، أمكن للإنجليز الاستمرار في خطتهم التقليدية في السيطرة الكاملة على مصر، ووضع العناصر الأكثر عمالة وطاعة للإنجليز على رأس الحكومة المصرية وإذا اندلعت الثورة عقب ذلك يمكن للإنجليز هنا تقديم الزعماء الثلاثة كقيادة للثورة، وهذا شئ طبيعي وممكن بالنظر إلى الثقة الشعبية التي ستترتب تلقائيًا على اعتقالهم ونفيهم، وبالطبع هذا يحقق عدد من الأهداف، أولها إبعاد العناصر الأكثر ثورية وخاصة رجال الحزب الوطني عن قيادة الثورة المرتقبة، وثانيها إمكانية التفاهم مع هؤلاء الزعماء الثلاثة على شئ من الإصلاحات لتطويق الثورة وبالتالي لا تصل حركة الشعب إلى أهدافها الكاملة، ويلاحظ هنا أن الإنجليز قد قاموا باعتقال العناصر الصالحة لهذا تمامًا، مثل سعد زغلول المعروف بعدم ثوريته وإيمانه بالأسلوب التفاوضي والمهادن، وهو الذي كان دائمًا من العناصر غير المعادية

للإنجليز، بل والتي يمكن أن تعمل في إطار الاحتلال، والثاني هو إسماعيل صدقي، وهو الذي دخل التاريخ كأكبر جلاد للشعب المصري بعد ثورة ١٩١٩، وظل أكثر الوجوه المرفوضة من الشعب، والتي سامت الشعب سوء العذاب والقمع. والثالث هو محمد الباسل، وهو ينحدر من حزب الأمة غير المعادي للإنجليز، كما أنه من كبار الملاك، أي أن هامش ثوريته محدود جدًا بسبب مصالحه الطبيعية وتركيبته السياسية في نفس الوقت.

عقب اعتقال سعد وصدقي والباسل، قامت قيادة حزب الوفد بإرسال كتاب للسلطان، ناشدته فيه بالتدخل والوقوف إلى جانب الوفد في هذه الأزمة، كما أرسل الوفد رسالة احتجاج إلى المستر لويد جورج، وكذلك إلى معتمدي الدول الأجنبية، وصرحوا في تلك الرسائل بأنهم سيستمرون في الدفاع عن قضية مصر بالطرق المشروعة.

وبديهي أن أسلوب المطالبات والعرائض والطرق المشروعة !! هو الأسلوب الوحيد الذي تقدر عليه قيادة الوفد بحكم تركيبتها السياسية والطبقية، ولم تفكر قط في أسلوب الثورة.

إلا أن الشعب المصري كان له رأي آخر،وكذلك كان للحزب الوطني عمومًا ولمنظماته السرية خصوصًا رأيًا مخالفًا لقيادة الوفد، كان هؤلاء يؤمنون بأن الثورة هي الطريق الوحيد لنيل حقوق مصر، وأن الطرق الأخرى ما هي إلا ضياع للوقت وإلهاء للشعب عن طريقه الطبيعي، وهكذا بدأت أعمال الكفاح المسلح، وأعمال التظاهر والانتفاض

فعلى صعيد الكفاح المسلح، قامت المنظمات السرية للحزب الوطني بعدد من العمليات ضد الإنجليز، وضد أعوانهم من الخونة المصريين كالتالي

في ١٠/ ٦ / ١٩١٩، أطلق عدد من الثوار أعيرة نارية على محمد سعيد باشا رئيس الوزراء، ولم يضبط أحد.

- في ١٢/ ٦ / ١٩١٩، أجرت النيابة تحقيقًا في بلاغات قدمت باتهام حافظ عبد المجيد، ومحمد صالح الدالي (هما من عناصر الحزب الوطني) بالتآمر على قتل كبار الموظفين الذين رقوا إلى وظائف كبيرة بواسطة البريطانيين.
- في ٢٢ / ٦ / ١٩١٩، فتش البوليس أحد المنازل ووجد قنبلتين كانتا معدتين للإلقاء على دولة سعيد باشا رئيس الوزراء وكبار الموظفين الموالين للإنجليز.
- في ٢٢ / ٦ / ١٩١٩، تلقت السفارة الإنجليزية بلاغًا من أحد العملاء عن وجود مؤامرة بزعامة سعيد محمد، وأحمد عبد الحي كيره لقتل دولة محمد سعيد باشا رئيس الوزراء.
- في ٢ / ٩ / ١٩١٩، ألقي سيد محمد على قنبلة على دولة محمد سعيد باشا رئيس الوزراء برمل الإسكندرية، وقد ضبط المتهمون فيها وحكم عليهم من المحكمة العسكرية وهم سيد محمد ١٠ سنوات مع الشغل، محمد شكري الكرداني ١٥ سنة مع الشغل (وهما من عناصر الحزب الوطني).
- في ٢٠ / ١١ / ١٩١٩، أطلق مجهولون عيارًا ناريًا على الضابط الإنجليزي كابتن كومب عند كوبري بولاق، ولم يضبط أحد.
- في ٢٢ / ١١ / ١٩١٩، أطلق مجهولون أربعة أعيرة نارية على الكابتن صمويل كوهين بضاحية شبرا، فتوفي على الأثر ولم يضبط أحد.

- في ٢٣ / ١١ / ١٩١٩، أطلق مجهولون النار على أربعة عسكريين بريطانيين فأصيب واحد منهم، ولم يضبط أحد.
- في ٢٣ / ١١ / ١٩١٩، تم أطلاق النار على الكابت "مارسدن" واللفتينانت "لاجرس" وضابطين آخرين ولم يضبط أحد.
- في ٢٥ / ١١ / ١٩١٩، محاولة اغتيال أحد الجنود الإنجليز، على كوبري بولاق، ولم يضبط أحد.
- في ٢٦ / ١١ / ١٩١٩، إصابة ضابطين إنجليزيين بأعيرة نارية بميدان باب الحديد ولم يضبط أحد.
- في ٢٨ / ١١ / ١٩١٩، محاولة اغتيال الضابط الإنجليزي درنكو وايجين.
- في ٤ / ١٢ / ١٩١٩، القبض على مجموعة من الوطنيين بتهمة التآمر على قتل العسكريين البريطانيين، وكان أولاد حفني بك ناصف من بين المعتقلين بهذه التهمة وهم صلاح الدين ناصف، وجلال الدين ناصف، وعصام الدين ناصف، بالإضافة إلى عبد الرحمن البيلى، وأمين عز العرب.
- في ١٥ / ١٢ / ١٩١٩، محاولة اغتيال يوسف وهبه باشا.
- في ١٢ / ١ / ١٩٢٠، انفجار قنبلتين بشارع المنتزه.
- في ١٨ / ١ / ١٩٢٠، محاولة اغتيال إسماعيل سري باشا.
- في ٢٢ / ١ / ١٩٢٠، محاولة اغتيال معالي محمد شفيق باشا.
- فبراير ١٩٢٠، المؤامرة الكبرى الثانية لقلب نظام الحكم.
- في ٢٥ / ٣ / ١٩٢٠، التآمر على قتل محمد إبراهيم بك هلال.

- في ٢ / ٥ / ١٩٢٠، محاولة اغتيال عدد من العسكريين الإنجليز.
- في ٦ / ٥ / ١٩٢٠، اغتيال هيفرن ومحاولة اغتيال منيت.
- في ٨ / ٥ / ١٩٢٠، محاولة اغتيال حسين دوس باشا
- في ١٢ / ٥ / ١٩٢٠، محاولة اغتيال محمد توفيق نسيم باشا علـــى يـــد إبراهيم مسعود، الذي تمت محاكمته وأعدم بتاريخ ٨ / ٧ /١٩٢٠
- في يونيو ١٩٢٠، قضية المؤامرة الأولي بقلب نظام الحكم والتحـــريض على قتل السلطان والوزراء، وقد أتهم فيها كل من عبد الرحمن فهمـــى، وعلى هنداوي وآخرين بلغ عددهم جميعًا ٢٥ متهمًا، وقد صدرت ضدهم أحكام متفاوتة.
- في ٣ / ٦ / ١٩٢٠، محاولة اغتيال المترجم البحري بالجيش الإنجليزي.
- في ١٢ / ١١ / ١٩٢٠، محاولة اغتيال الكابتن نايف.
- ديسمبر ١٩٢٠، قضية إحراز قنابل ومفرقعات وأسلحة بمنزل عبد العزيز راشد (١).

وعلى مستوي الثورة الشعبية، قام طلاب المدارس بمظاهرة كبيرة يوم ٩ مارس ١٩١٩، وفي اليوم التالي أضرب جميع طلاب الأزهر والمـــدارس وقاموا بمظاهرة كبرى، وأنضم إليهم الشعب، واستمر إضراب الطلبـــة فـــي اليوم الثالث (١١ مارس ١٩١٩) وأتسع نطاق المظاهرات يوم ١٢ مـــارس، ١٣ مارس، ١٤ مارس، وقد خرجت مظاهرات الجمعـــة ١٤ مـــارس مـــن المسجد الحسيني بالقاهرة، وأطلقت القوات الإنجليزية النار علـــى مظـــاهرة مسجد الحسين فسقط ١٢ شهيدًا، و٢٤ جريحًا، وكانت عدد من الأضرابات قد بدأت تسري خارج صفوف الطلاب، إذ أضرب المحامون يـــوم ١١ مـــارس

١٩١٩، وحذا المحامون الشرعيون حذو زملائهم الأهليين وأضربوا أيضًا يوم ١٥ مارس ١٩١٩، كما أضرب عمال العنابر في ١٥ مارس ١٩١٩، كما عمد بعض هؤلاء العمال إلى إتلاف مفاتيح قضبان السكك الحديدية، ثم قطعوا الخط الحديدي بالقرب من إمبابة، فتعطلت قطارات الوجه القبلي، وكانت السلطات الإنجليزية قد شكلت محاكما عسكرية لمحاكمة المتظاهرين، كما أنها كانت تتعمد أطلاق النار في المليان على المتظاهرين، ألا أن ذلك لم يفت في عضد المتظاهرين ولكنه زاد من اشتعال الثورة، فاستمرت الأضرابات والمظاهرات يوم ١٦ مارس ١٩١٩، وقد شاركت النساء في مظاهرات ذلك اليوم، كما نظمت السيدات والآنسات مظاهرة أخري يوم ٢٠ مارس ١٩١٩٠

وقد امتدت الثورة إلى الأقاليم فعمت جميع أرجاء مصر مدنا وقرى، فقامت المظاهرات في الإسكندرية وطنطا ودمنهور والمنصورة وشبين الكوم والزقازيق وبني سويف والمنيا والفيوم وأسيوط وسائر العواصم والبنادر ٠

ففي الإسكندرية نفذ الطلاب الإضراب والتظاهر يوم ١٢ مارس ١٩١٩ ثم تجددت المظاهرات يوم الجمعة ١٤ مارس، وخرجت من المساجد، ثم يومي ١٥، ١٦ مارس، وفي يوم ١٧ مارس أطلقت القوات البريطانية النار على المتظاهرين فسقط ١٦ شهيدًا و٢٤ جريحًا، وكان هذا العمل وقودًا جديدًا للثورة التي تأججت واستمرت في الإسكندرية وخاصة عقب صلاة كل جمعة، حيث تبدأ من مسجد أبي العباس وتخترق أهم شوارع المدينة، واستمرت تلك المظاهرات حتى شهر نوفمبر وديسمبر ١٩١٩م.

وفي بور سعيد بدأت المظاهرات يوم الجمعة ٢١ مارس واستمرت حتى شهر ديسمبر ١٩١٩، وفي محافظة البحيرة اندلعت في ١٧ مارس

١٩١٩، وفي مدينة دمنهور استمرت حتى نهاية الثورة، وفي طنطا بدأت في ١٢ مارس ١٩١٩، وكذلك في بركة السبع وقلين ودسوق وسمنود وزفتي من مراكز محافظة الغربية، ومن الأمور الجديرة بالفخر والاحترام، أن زفتي أعلنت استقلالها، وأنزلت العلم الذي كان مرفوعًا على مركز الشرطة، ورفعت علمًا آخر وطنيًا بدلاً منه، وتم تشكيل لجنة وطنية برئاسة يوسف أحمد الجندي لإدارة جمهورية زفتى، وقامت تلك الإدارة بتحصيل العوائد ورسوم الأسواق وأخذت تنفق ما حصلته في تحسين أحوال مركز زفتى، فتم ردم المستنقعات وأصلحت الشوارع كما أصدرت صحيفة أسمتها(الجمهور) وعقب إعلان استقلال زفتي قامت السلطات البريطانية بإرسال قوة كبيرة لقمع الثورة، إلا أن الأهالي قاموا بحفر الخنادق العميقة وقطعوا السكك الحديدية.

وفي كفر الشيخ بدأت المظاهرات يوم ١٦ مارس واستمرت طيلة أيام الثورة، كما قام أهالي كفر العمدان بإطلاق النار على الإنجليز، وتم اعتقال عمدة تلك البلدة وتمت محاكمته.

وفي المحلة الكبرى قامت المظاهرات بدءًا من يوم ١٥ مارس واستمرت طيلة أيام الثورة، وكذلك في شبين الكوم بدأت المظاهرات يوم ١١ مارس، وكذلك في منوف يوم ١٣ مارس ١٩١٩، واستمرت تلك المظاهرات طويلاً.

أما في الدقهلية فقد بدأت يوم الجمعة ١٤ مارس ١٩١٩، واستمرت تلك المظاهرات، كما امتدت إلى مركز ميت غمر، وكذلك إلى قري مركز ميت غمر مثل ميت القرشي، دنديط، كفر الوزير، تفهنا الأشراف.

أما في دمياط فقد بدأت المظاهرات يوم ٢١ مارس ١٩١٩، واستمرت تلك المظاهرات طيلة أيام الثورة.

وفي القليوبية والشرقية تظاهر أهالي قليوب بـدءا مـن ١٤ مـارس، وأحرقوا محطة السكة الحديدية بها، كما أتلفوا الخط الحديدي بهـا، وأتلفـوا الأسلاك التليفونية والتلغرافية وخربوا الطريق الزراعي بإحداث خنادق عميقة تعوق السير فيه، وأضطر الإنجليز لاستخدام الطائرات لقمع تلك الأعمال.

أما في الوجه القبلي، فقد كانت الثورة اشد مـن الوجـه البحـري، إذا طبعت في الجملة بطابع العنف، وبلغ من خطورتها أن انقطعت المواصـلات تماما بين الوجه البحري والوجه القبلى، وفي يوم ١٥ مارس هـاجم الثـوار محطة الرقة والواسطي وعلى القطارات التي بها ودمروا المحطتـين تمامـا واحرقوهما، وقتل في هذا اليوم المستر آرثر سميث من كبار موظفي مصلحة السكة الحديدية عند وصوله بالقطار إلى محطة الواسطى، كمـا تـم تـدمير محطات السكة الحديد في بولاق الدكرور، والبدرشين، والحوامدية، وعطـل كوبري القشيشة بين الواسطي وبني سويف.

كما اندلعت المظاهرات في الواسطي وبني سـويف فـي ١٥ مـارس ١٩١٩، وأغار المتظاهرون على المحكمة وحطمـوا المكاتـب والمصـالح الحكومية، واعتصم البريطانيون في ثلاثة منازل بالمدينة خوفًا مـن بطـش الثوار، وفي الفيوم بدأت المظاهرات يوم ١٥ مارس واسـتمرت طويـلاً بعـد ذلـك.

وفي المنيا بدأت المظاهرات في الأول من مارس واستمرت المظاهرات بعد ذلك ولم تنقطع أبدًا، كما تم قطع خطـوط التليفـون والبـرق والسـكك

الحديدية، وأصبحت المنيا في حالة استقلال فعلى عن السلطة في القاهرة، وتكونت لجنة لإدارة شئون المدينة والمراكز والقرى التابعة لها، وأضطر الإنجليز إلى إرسال قوة كبيرة جدًا بقيادة الجنرال هولستون للسيطرة على المنيا.

وفي أسيوط بدأت الثورة يوم ١٠ مارس ١٩١٩، وأضرب الطلاب والعمال والموظفون، كما نظمت المظاهرات الضخمة، كما هاجم الثوار مراكز البوليس في المدينة، وأخذوا منه السلاح، وهاجموا القوات البريطانية.

وفي ديروط ودير مواس، تم مهاجمة قطار الإنجليز يوم ١٨ مارس وتم قتل ثمانية من الضباط والجنود الإنجليز.

وفي ٢٣ مارس قام الثوار في أسيوط بمهاجمة المواقع الإنجليزية بالمدينة وكبدوهم كثيرًا من الخسائر، كما سقط من الثوار المئات من الشهداء.

ونظرًا لاشتداد حالة الثورة في أسيوط، تم إرسال النجدات الحربية الإنجليزية إليها عن طريق السفن النيلية نظرًا لأن خطوط السكك الحديدية مقطوعة، وقد قام الثوار بمهاجمة السفن الإنجليزية ثلاث مرات، الأولي تجاه بلدة شلش، والثانية بعد بلدة شلش بعدة كيلو مترات جنوبًا، والثالث بالقرب من " نزإلى جنوبا "، وقد جرح وقتل عدد من الضباط الإنجليز وجنودهم في تلك المحاولات.

كما شاركت الطائرات الحربية الإنجليزية في قمع الثورة في أسيوط وفيما بين قنا وأسوان تم قطع خطوط السكك الحديدية [٢]. نشبت الثورة إذًا في مارس ١٩١٩ واستمرت الحوادث الثورية طوال شهور – مارس –

ابريل ــ مايو ــ يونيه ــ يوليو ــ أغسطس ــ ثــم تجــددت فــي أكتــوبر ونوفمبر وديسمبر في تلك السنة.

وفي تقرير للجنرال اللبني، أرسله للحكومة، وعرض على مجلس العموم البريطاني في ٢٤ يوليو ١٩١٩، أن عدد ضحايا الثورة بلغ حتى تاريخ كتابة التقرير ٨٠٠ قتيل، ١٦٠٠٠ جريح من المصريين، ٣١ قتيلا و٣٥ جريحا من الأوروبيين، ٢٩ قتيلا و١١٤ جريحا من الجنود البريطانيين، وأن عدد الذين حكم عليهم من الوطنيين ٣٧٠٠ منهم ٤٩ حكما بالإعدام.

ويعلق الرافعي على هذه الإحصاء قائلا أنه دون الحقيقة بكثير لأن المصادر البريطانية كانت ترمي إلى تهوين شأن الثورة ((ويقدر الرافعي عدد الضحايا بأكثر من ثلاثة آلاف قتيل)) [٣].

وإذا حاولنا أن نلقي نظرة عامة على الثورة، نجد أنها استمرت أكثر من عشرة شهور وأنها شملت كل مصر ــ القاهرة ــ الأقاليم ــ المدن ــ القرى ــ العمال ــ الطلاب ــ الفلاحون وأنهــا اســتخدمت أســلوب الاغتيــال ــ التظاهر ـ الاضطراب ــ إعلان الاستقلال ((زفتي ــ المنيا)) المظاهرات المسلحة وخاصة في الصعيد وكفر الشيخ، قطع وســائل المواصــلات مثــل السكك الحديدية، البرق، الهاتف وغيرها.

إذن فهي ثورة شاملة على مستوي امتدادها الجغرافي والبشري وعلى مستوي أدائها المحتوي على العنف وعلى التظاهر السلمي والإضراب وكان من الطبيعي أن هناك تنظيمات تقف وراء هذه الثورة، وهي خلايــا الحــزب الوطني ومنظماته السرية التي كانت موجودة في كل قرية ومدينــة وحــى، والتي كانت تمتلك خبرة أكثر من ٢٠ عامًا من العمل الثوري السر والعلني،

ومن الطبيعي أن ثورة بهذا الامتداد والزخم لم تكـن لتظهـر فجـأة لـولا التراكمات الثورية النضالية التي تركها الحزب الوطني فـي رحـم الأمـة المصرية.

وهي ثورة شعبية شارك فيها الشعب بحماس، وكان الشعب الثائر ثوريًا مائة في المائة في حين أن القيادات التـي وضـعتها الألاعيـب السياسـية الشيطانية على رأس الثورة كانت مهادنة وتميل إلى الحلول الوسط، ولا تقبل السلوك الثورى، فمثلاً عبد العزيز فهمي يصف المظاهرات بأنها لعب أطفال، ويطالب الثوار بأن يكفوا عن الثورة والتظاهر ودعونا نعمل في هـدوء، ولا تزيدوا نار الغضب أثقالاً عند القوم (٤).

أن الروح الإسلامية للشعب المصري بمسلميه وأقباطه، مسلميه الـذين ينتمون إلى الإسلام كدين وكثقافة وكحضارة وكوطن، وأقباطه الذين ينتمـون إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن، أن الروح الإسلامية كانـت متغلغلـة وكانت هي العامل الأول والأخير في تفجير الثورة، واستمرارها على مستوي الشعارات والسلوك والمطالب، وقد لعب الأزهر دورًا هامًا في تأجيج الثورة، ومعظم المظاهرات كانت تبدأ عقب صـلاة الجمعـة، بـل إن الأفغـانيين، والجاويين، والمراكشيين، والأتراك، والهنود والشوام مـن طلبـة الأزهـر شاركوا بحماس في تلك الثورة (٥).

أن السلطات البريطانية لم تتورع عن ارتكاب أبشع المجازر، فاحرقوا قري بأكملها مثل العزيزية، البدرشين، الشبانات، نزلة الشوبك، كمـا قـاموا باستخدام الطائرات الحربية في قمع المظاهرات، كما أحدثوا مجازر جماعية

في بعض القرى مثل قرية ميت القرش حيث تم قتل ١٠٠ شخص في عملية واحـــــدة.

تأكيدًا على الروح الإسلامية للثورة قام المتظاهرون دائمًا برفع العلـم العثماني على مراكز الثورة مثل شبرا وأسيوط، وعدد كبيـر مـن القـرى المصرية.

في إطـار دور الأزهـر يصف تقرير اللبني " بأن العناصر الجاهلـة الشديدة الحماس من بين طلبة الأزهـــر برهنوا على أنهم لا يقيمون وزنًـا للسلطات وأصبح مسجدهم ملجأ ليليًا لجماعات كبيرة من الناس يجتمعون فيه ليسمعوا خطبًا من وعاظ غير مسئولين مليئة بكـل مـا يـدعو إلـى الأذى والتعصب (تقرير اللنبي ٤/٦).

وفي ١٥ / ٥ ورد بتقرير اللنبي (أن لهجة العداء قد اشتدت حدتها في الأزهر بطريقة ملحوظة، فالخطب لا تزال تتسم بأقصى درجات العنف كمـا كانت في السابق.

وفي ١ / ٦ يقول اللنبي : وأصبح الأزهر على وجـه اليقـين مركـز مقاومة لكل محاولات التهدئـــة.

على كل حال انتهى الأمر باقتحام الإنجليز للأزهر في ديســمبر سـنة ١٩١٩.

هوامش

(١) عن كتاب مصر وقضايا الاغتيالات السياسية، كتاب الحرية رقـــم ٦، المؤلف د٠ محمود متولى، ومن الملاحظ أن العمليات التي لم يضبط فيها أحد كانت من تنفيذ منظمة الانتقام أو اليد السوداء، وهي امتـــداد لمنظمة التضامن الأخوي التي أنشـــأها وأدارهـــا الشـــهيد إبـــراهيم الوردانى، وقد تم اكتشاف منظمة اليد السوداء فيما بعد وثبـــت أنهـــا كانت وراء معظم تلك العمليات، وكان يقودها الأخـــوين (عنايـــت)، وعندما تم اكتشاف تلك المنظمة تم إعدام ثمانية من عناصرها، إلا أن حكم الإعدام خفف عن عبد الفتاح عنايت واستبدل بالأشغال الشـــاقة المؤبدة (تم اكتشاف تلك المنظمة سنة ١٩٢٤، وكـــان بعـــض مـــن اكتشف من عناصرها قد شارك من قبل في عملية اغتيـــال بطـــرس غالي سنة ١٩١٠.

(٢) عن الرافعى، بتصرف، ثورة ١٩١٩، دار المعارف، الطبعة الرابعة ١٩٨٧ .

(٣) الرافعى، ثورة ١٩١٩، دار المعارف، الطبعة الرابعة ١٩٨٧.

(٤) د. محمود متولي، ثورات الشعب المصري، مكتبـــة دار المعـــارف ١٩٨١ ص ١٨٦.

(٥) مؤسسة الأهرام، من مذكرة وكيل الخارجية البريطانيـــة ص ٢٥٩، نقلاً عن أسامة حميد، موجز تاريخ مصر في الحقبة العثمانية٠

(٦) أسامة حميد، موجز تاريخ مصر في الحقبة العثمانية٠

محاولات تهدئة الثورة وتطويقها

بعد أقل من شهر من اندلاع الثورة، حاولت السلطات الإنجليزية تهدئة تلك الثورة بالإفراج عن سعد زغلول ورفاقه، فتم الإفراج عنهم يوم ٧ / ٤ / ١٩١٩، وسمح لهم بالذهاب إلى مؤتمر الصلح بباريس، ووصل الوفد إلى باريس يوم ١٩ / ١٩١٩/٤، وطلب مقابلة الرئيس الأمريكي ويلسون الذي كان أصدر تصريحات بشأن حق الشعوب في تقرير مصيرها إلا أن الرئيس الأمريكي نفسه أعلن في نفس يوم المقابلة ٢٣ / ٤ / ١٩١٩، اعترافه بالحماية البريطانية على مصر، ثم اعترفت ألمانيا أيضًا بتلك الحماية في ٧ / ٥ / ١٩١٩، ولم يجد الوفد المصري من يفاوضه فذهب إلى الهيئات النيابية والصحف والرأي العام الإنجليزي، ولكن دون جدوى.

وفي حين اتخذ الوفد المصري طريق التفاوض فإن الشعب المصري أستمر في ثورته وشهدت تلك الفترة العديد من المظاهرات والإضرابات وأعمال العنف كما سبق أن بينا، وفي الحقيقة فإن أسلوب التفاوض الذي أتخذه العلمانيون والمهادنون ما كان ليفيد شيئًا في سبيل الاستقلال، حيث أن الاستقلال لا ينتزع إلا بالثورة.

على كل حال فإن الذين وجدوا أن قيادة الوفد لم تعد قادرة على وقف الثورة وتطويقها، أرادت أن تعطي هذا الوفد بعض المكاسب الشكلية ليناور بها على حركة الثورة في الشارع المصرى، وفي نفس الوقت يخففون من حدة الثورة فيتم إرسال لجنة ملنر إلى مصر في ديسمبر ١٩١٩، إلا أن لجنة

ملنر قالت في تقريرها (إن زمام الحالة أثناء الثورة قد خرج من يـد الوفـد وأنتقل إلى أيدي المتطرفين غير المسئولين)[1].

وكان معني هذا أن على الإنجليز أن يفعلوا شيئًا لتطويق الثورة، وقطع الطريق على المتطرفين !!، وتم وضع مشروع يعطي مصر استقلالاً شكليًا، ويفتح طريق التفاوض، وذهب الوفد المصري إلى لندن فـي يونيـو ١٩٢٠ لإكمال التفاوض وأصدر سعد زغلول بيانًا يؤيد المشروع الشكلي للاسـتقلال المنقوص وهو الذي كان ينص على عدم أحقية مصر في عقد أي معاهـدات سياسية مع أي دولة أخري بدون رضاء بريطانيا ويعطي بريطانيا حق إبقـاء قوة عسكرية بالأراضي المصرية وحق استعمال الموانـي والمطـارات المصـريـة.

وبرغم موافقة سعد زغلول على هذا المشروع، إلا أن بـاقي أعضـاء الوفد رفضوا هذا المشروع، وقدموا مشروعًا بديلاً نص على السماح لإنجلترا بالتواجد العسكري في منطقة قناة السويس.

وانتهى التفاوض إلى صيغة جديدة كان من بينها حق بريطانيـا فـي استخدام المواني والمطارات المصـرية، ووسـائل المواصـلات المصـرية للأغراض الحربية، وحقها في التواجد العسكري فـي أمـاكن محـددة مـن الأراضي المصرية، ويلاحظ أن كل صيغ المشروعات ابعدت مسألة السودان، وأصرت بريطانيا على البقاء على معاهدة ١٨٩٩ المشئومـة.

وفي ٢٢ أغسطس ١٩٢٠، أصدر سعد زغلول بيانًا إلـى الأمـة عـن مشروع المعاهدة المقترح، شرح فيه أطوار التفـاوض وأنتهـي إلـى تأييـد

مشروع المعاهدة المقترح وإن كان قد ترك الباب مفتوحًا لترى الأمة رأيها في المشروع المقترح.

إلا أن الشعب الثائر بكل قواه رفض هذا المشروع وأسقطه في النهاية، وقد أصدرت اللجنة الإدارية للحزب الوطني بيانًا نددت فيه بالمشروع وبالذين يؤيدونه وطالب الأمة بالاستمرار في جهادها الوطني بجميع الوسائل " ٢٠ سبتمبر ١٩٢٠ ".

وفي الحقيقة فإن سنوات ١٩٢٠ ــ ١٩٣٦، شهدت الكثير من المفاوضات، وقطع المفاوضات بين العلمانيين عمومًا وعلى رأسهم حزب الوفد، وانتهى الأمر لمعاهدة ١٩٣٦، التي قبلها الوفد، وهي التي لم تخرج عن نفس المشروعات السابقة ، حيث نصت المعاهدة على الوجود العسكري الإنجليزي في منطقة القنال، ووضعت الكثير من القيود على استقلال مصر، كما شهدت سنوات ١٩٣٦ ــ ١٩٥٤ العديد أيضًا من مشروعات التفارض بين الأحزاب العلمانية، ومن بينهم الوفد وبين الإنجليز لتعديل معاهدة ١٩٣٦، بما يضمن شكلاً أكبر من الاستقلال، وانتهى الأمر بحدوث الانقلاب العسكري الذي تم في ١٩٥٢ ثم معاهدة مع الإنجليز سنة ١٩٥٤ فيها الكثير من الإجحاف بحقوق مصر.

وإذا كان التفاوض، ومشاريع التسوية، والتصريحات البريطانية هو الأسلوب الذي أتبعه العلمانيون دائمًا في صراعهم القانوني مع الإنجليز، فإن الشعب المسلم الثائر في مصر، كان له رأي آخر وسلوك آخر.

فالحزب الوطني أصر دائمًا على الجلاء قبـل المفاوضـات، وأنـه لا تفاوض بدون الجلاء ودون قيد أو شرط، وأن الطريق إلى ذلك هـو الكفـاح الشعبي الثوري.

والشعب الثائر كان يرفض دائمًا أسلوب التفاوض، ويصر على الثـورة والرفض، فبرغم استمرار المفاوضات بين الوفد والإنجليز، وبرغم لجنة ملنر وغيرها، استمر الطلاب في الإضراب، وحدثت مظاهرات في كل مكان فـي شهري أكتوبر ونوفمبر ١٩١٩، كما أضرب المحامون احتجاجا علـى لجنـة ملنر بدءا من يوم ١٧ ديسمبر ١٩١٩ ولمدة أسبوع، وأضرب الطلبة بدءا من ١٨ ديسمبر ١٩١٩ احتجاجًا على تلك اللجنة وتمسكًا بأنه لا تفاوض إلا بعـد الجلاء، واندلعت المظاهرات في ٩ ديسمبر ١٩١٩ في القـاهرة والأقـاليم، وأضرب التجار يوم ٩ ديسمبر ١٩١٩، كما أجتمع الموظفون يوم ١٥ ديسمبر ١٩١٩ بمسجد صالح أبي حديد وقرروا الإضراب يومًا واحـدًا (يـوم ١٧ ديسمبر ١٩١٩) احتجاجًا على لجنة ملنر.

كما أصدر علماء الأزهر بيانًا برأيهم في الحالة السياسية تمسكوا فيـه بالجلاء التام عن مصر والسودان (١٨ ديسـمبر ١٩١٩)، كمـا تصـاعدت عمليات العنف المسلح ضد الإنجليز وأعوانهم كما سبق أن ذكرنا في أجـزاء سابقة طوال سنة ١٩١٩ – ١٩٢٠.

وفي الحقيقة فإن أعمال العنف قد استمرت ضد الإنجليز عام ١٩٢١ – ١٩٢٤ وضد عملائهم كالتالي :

- ١ / ١/ ١٩٢٠ عملية اغتيال محمد بدر الدين بك، وقد نجـي المجنـي عليه منها.

- ٢٠ / ٢/ ١٩٢٠ عملية اغتيال الضابط الإنجليزي بروكول، ومحاولة اغتيال سورتي.
- ٣٠ / ١٢ / ١٩٢٠ عملية اغتيال المستر هاتي الموظف الإنجليـــزي بمصلحة السكة الحديد.
- ٥ / ١/ ١٩٢٢ المحاولة الثانية لاغتيال محمد بدر الدين بك.
- ٢٢ / ١ / ١٩٢٢ اغتيال المستر فاندر هتسن.
- ٢٣ / ١ / ١٩٢٢ ضبط مؤامرة لاغتيال عبد الخالق ثــروت باشـــا، واليوزباشي سليم زكـــــي.
- ٢٥/ ١ / ١٩٢٢ إطلاق النار على الصف ضابط " استيل " بــالجيش البريطاني.
- إطلاق النار على العسكري البريطاني كارشو.
- ١٥ / ٢ / ١٩٢٢ إطلاق الرصاص على المستر هوبكس.
- ١٧/ ٢ / ١٩٢٢ إطلاق النار على الكابتن جوردن.
- ١٨ / ٢ / ١٩٢٢ إطلاق النار على المستر الفريد بروان.
- ١٨ / ٢ / ١٩٢٢ إطلاق النار على المستر أوموندیشــن الموظــف بمصلحة السكة الحديد.
- ١١ / ٣ / ١٩٢٢ إطلاق النار على المستر ماكنتشستوش الموظــف بمصلحة السكة الحديد.
- ١ / ٤ / ١٩٢٢ إطلاق النار على الميجور أندرسون.
- ١٦ / ٤ / ١٩٢٢ إطلاق الرصاص على العســكريين البريطــانيين، بيكر، ونوفسد .

- ٢٣ / ٤ / ١٩٢٢ محاولة اغتيال حسين مصطفي فرغلي.
- ١٧ / ٢ / ١٩٢٣ إلقاء قنبلة علـــى خمســـة عســـاكر مـــن الجـــيش الإنجليزي بشارع نوبار .
- ٤ / ٣ / ١٩٢٣ إلقاء قنبلة على محل برنـــاده الإنجليـــزي بشـــارع بجري.
- ٥ / ٥/ ١٩٢٣ إلقاء قنبلة على عساكر إنجليز.
- ٢ / ١٢ /١٩٢٣ إطلاق النار على اللفتنانت جاكسون.
- ١٢ / ٧ / ١٩٢٤ إطلاق الرصاص على سعـــــد زغلـــول.
- ١٩٢٤ كشف مؤامرة لقلب نظام الحكم.
- ١٦ / ١١ / ١٩٢٤ اغتيال السير لي ستاك. (٢)

وفي إطـــار التطويق الإنجليزي لعملية الثورة والعنـــف، وبعـــد أن نجحت الأمة في إسقاط مشروع معاهدة ملنر، قامت بريطانيـــا بإصـــدار تصريح في ٢٦ فبراير سنة ١٩٢١، أعلنت فيه أن الحماية علاقـــة غيـــر مرضية وأنها تدعو إلى التفاوض من أجل الوصول إلى تسوية على هـــذا الأساس، وعلى ثر هذا التصريح تم استقالة وزارة نسيم باشـــا، وتشـــكيل وزارة عدلي يكن، استعداد للمفاوضات، كما تم عودة سعد زغلـــول إلـــى مصر من باريس للإعداد والتنسيق مع عدلي يكن لإجراء المفاوضات إلا أن المد الشعبي مرة أخري حال دون نجاح هذا المسعى، فقـــد ضـــغطت الجماهير الشعبية على سعد زغلول الذي رفض شروط عدلي يكن، وتـــم اعتقال سعد زغلول للمرة الثانية ونفيه إلى شيسل وانـــدلعت مظـــاهرات الاحتجاج في القاهرة والأقاليم، كما ظهرت الدعوة لمقاطعة البنوك والسفن

والشركات والبضائع الإنجليزية، وتم التفكير في إنشاء بنك وطني وصناعة وطنية.

وفي محاولة أخري لتطويق ذلك لجأ الإنجليز إلى إصدار تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، إلا أن الحزب الوطني رفض هذا التصريح، وأصر على رأيه بأنه لا تفاوض إلا بعد الجلاء، كما رفض حزب الوفد أيضًا، وكان الحزب الوطني في ذلك الوقت قد بدأ يعاني من الضعف في حين أن حزب الوفد بدأ نجمه يصعد، خاصة بعد أن تم اعتقال سعد زغلول أكثر من مرة، ثم الإفراج عنه سريعًا، وفي نفس الوقت تم نفي زعماء الحزب الوطني وأخرهم على فهمي كامل بلا عودة سنة ١٩٢١، ومن ناحية أخري كان اكتشاف منظمة الانتقام سنة ١٩٢٤، بعد اغتيال السير لي ستاك. وبالتالي تصفيتها، ضربة هائلة وجهت إلى آخر منظمات الحزب الوطني السرية، وكان الوضع قد أصبح لصالح العلمانيين والمهادنين، أمثال سعد زغلول وقيادة الوفد، وكان من الطبيعي أن تظهر تلك القيادة شيئًا من التطرف والتصلب لاكتساب قواعد الحزب الوطني الذي بات بلا قيادة ولا منظمات سرية، وهكذا استطاع سعد زغلول أن يكسب الشارع السياسي برفضه تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢١، ثم استطاع في النهاية أن يطوق الشارع السياسى، وأن يوقف الاحتجاج الشعبي على هذا التصريح، فلم تستطيع القوي الشعبية وأد هذا المشروع، وقام الملك بإسناد الحكومة إلى ثروت باشا الذي أعلن الاستقلال المنقوص طبعًا، وتم تغير لقب السلطان فؤاد إلى الملك فؤاد، كما تم إصدار دستور جديد حقق بعض المطالب الشعبية (دستور ١٩٢٣).

وكان معني هذا كله أن الحكومة والمعارضة على السواء تخرجـــان من نفس القبعة العلمانية، وأن الخلاف بين ثروت وسعد ليس إلا خلافًا في الدرجة وليس في النوع، وأصبح الشارع السياسي موزعًا بين الحكومـــة والمعارضة في غياب الحزب الوطنى، الذي أصبح ضعيفًا جدًا، وخاصة بعد سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية رسميا سنة ١٩٢٤، وهو الأمر الذي جعل المنحنى الإسلامي في أقصى درجات هبوطه، وفي العـــام نفســه ١٩٢٤، تم القضاء على آخر منظمات الحزب الوطني العسكرية والسرية وهي منظمة الانتقام التي كان يقودها الأخوين عنايت.

وبهذا كله غاب الصوت الإسلامي من الشارع السياسى، وغاب معه صوت الكفاح المسلح، وصوت الثورة وصوت المطالبة بالجلاء بدون قيد أو شرط، وصوت وحدة مصر والسودان.

وظهر صوت التفاوض والمؤتمرات، وتقديم عـــرائض الاحتجـــاج وغيرها، ولكن الشارع المسلم في مصر قد قرر استمرار رايـــة الكفـــاح الإسلامي، وكان المطلوب لتحقيق ذلك جيل قادر وعملاق، يبدأ من أقصى انحدار المنحنى الإسلامي، فيحدث بهذا المنحنى انقلابًا تاريخيًا،ليجعلـــه يصعد من جديد في غياب الخلافة والوحدة، وفـــي عـــدم وجـــود تنظـــيم إسلامي قادر على الحشد والتعبئة والدعاية السياسية بعد ضعف الحـــزب الوطني وهكذا جاء الأخوان المسلمون، بـــدءًا من عام ١٩٢٩.

هوامش

(١) تقرير اللجنة الخصوصية المنتدبة لمصر ص ٢٤٦ عمود (أ).

(٢) كل هذه الحوادث نقلاً عن د. محمـود متـولى، مصـر وقضـايا الاغتيالات السياسية، دار الحرية، الكتاب رقم (٦)، ١٩٨٥، القاهرة.

(٣) ينص هذا التصريح أيضًا على التواجـد العسكري الإنجليزي فـي أراضي مصر، وحماية الأقليات،وترك مسألة السودان معلقة، وهـي كلها أمور رفضتها الحركة الوطنية المصرية .

الشعب المصري يستعيد زمام المبادرة

كان المنحنى الإسلامي قد وصل إلى أقصى انحداره سنة ١٩٢٤، فقد سقطت الخلافة العثمانية الإسلامية مما يعني ضياع وحدة المسلمين رسميًا بعد ضياعها عمليًا، وفي مصر كان الحزب الوطني قد أصبح ضعيفًا جدًا، وهو الحزب الذي تمسك دائمًا بالإسلامية، والكفاح المسلح والثورة، ورفض أسلوب التفاوض، وكانت ثورة ١٩١٩ التي فجرها وحمل لواءها الحزب الوطني وعموم الشعب المسلم قد انتهت إلى لا شيء، وتم تطويقها عن طريق رفع زعامة مهادنة وعلمانية مثل سعد زغلول ورفاقه على رأسها، وانتهى الأمر بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذي يعطي مصر استقلالا شكليًا، ويعطي للإنجليز حق التواجد العسكري في الأراضي المصرية، وحق استخدام الموانى والمطارات المصرية، وحق الأقليات، ويطلق يد الإنجليز في السودان، وفي نفس العام تم اكتشاف منظمة الانتقام، وهي منظمة سرية من شباب الحزب الوطنى، كانت قد نفذت العديد من عمليات الاغتيال والعنف ضد الإنجليز، وتم اعتقال عناصرها، وإعدام ٧ منهم وتصفية وجودها، وبذلك فقد الحزب الوطني آخر مراكزه القوية [1].

وحاول الإنجليز القضاء النهائي على فكرتي الجامعة الإسلامية والكفاح المسلح ضد الإنجليز وهما فكرتان متلازمتان، فشجع الإنجليز ظهور الدعوات الإلحادية مثل سلامة موسى، أو الدعوات الفرعونية، والقومية المصرية، كما ساهمت بيوت المال الأوروبية في الدعاية لاكتشافات الآثار المصرية القديمة ومحاولة جعلها أساسًا لظهور قومية مصرية بديلاً عن الانتماء الإسلامي،

وفي إطار ضرب فكرة الوحدة الإسلامية دفع الإنجليز على عبد الرازق لنقل كتاب لمستشرق أوروبي تحت عنوان الإسلام ونظام الحكم، أدعـــي فيـــه أن الوحدة الإسلامية والخلافة الإسلامية لا ضرورة لهما، وأن الإسلام ليس بـــه نظام للحكم، كما ظهر كتاب طه حسين مستقبل الثقافة في مصر، يدعو فيـــه إلى ما يسمي بثقافة البحر الأبيض المتوسط كبديل عن الثقافة الإسلامية، وفي نفس الإطار ظهرت دعوات مريبة لإحلال العامية محل الفصحى، والكتابـــة بالحروف اللاتينية، كما أنتشر التبشير في تلك الفترة انتشارًا كبيـــرًا بهـــدف زرع الثقافة الأوروبية.

وفي نفس الإطار قام الإنجليز بزرع أفكار القومية العربيـــة، ووصـــل الأمر إلى حد دعم الإنجليز لإنشاء جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥، وكل هذا لتكون القومية العربية بديلاً عن التوجه الإسلامي.

كما قام الإنجليز بالتعاون مع اليهود بزرع وتنشيط المنظمات الشيوعية في مصر، وخاصة في الثلاثينات والأربعينات، وقد ارتبط ذلك الأمر بظهور إسرائيل في المنطقة (٢).

وشهدت أعوام ١٩٢٤ ــ ١٩٥٢، صراعًا ثانويًا بين ثلاث قوي غيـــر إسلامية هي الملك، الإنجليز، الأحزاب، واختلفت الأحـــزاب علـــى درجـــة التساهل مع الإنجليز في إطار أنها كلها مهادنة ومفاوضـــه وتـــرفض الـــنهج الثورى، ومن خلال هذا الصراع الثانوي كانت تصـــعد وتســـقط الأحـــزاب، والحكومات والبرلمانات والدساتير، وهذا في لعبة مستمرة ذات ثلاثة أطراف يتحالف منها طرفان ضد طرف وهكذا، ولكن في سنة ١٩٣٦ نجح الوفد في توقيع اتفاقية (معاهدة ١٩٣٦) وأصبح من يومها حليفًا قويًا للإنجليز ضـــد

الملك، ووصل التحالف إلى ذروته في حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، حيث فــرض الإنجليز على الملك أن يشكل الوفد الحكومة، وفي الحقيقة فإن معاهدة ١٩٣٦ قد حققت للإنجليز التواجد العسكري بلا متاعب في مصر وخاصة في منطقة القناة،و اطمأن الإنجليز في وقتها إلى أن الإسلام ــ الثورة كان قد استبعد من التواجد الشعبي ولذلك لا مانع من أن يترك حكم البلاد للوفد والملك والأحزاب الصغيرة على أن يعود إذا دعت الحاجة إلى ذلك، إلا أن الرفض الشعبي قــد نجح في النهاية في دفع الوفد لإلغاء المعاهدة سنة١٩٥١.

وفي مقابل ذلك كله كان الشعب المسلم في مصر يحاول استعادة زمــام المبادرة، وصحيح أن المسألة كانت صعبة، فهي تحتاج إلى من يحدث انقلابًا شاملاً في المنحنى الإسلامي لبداية رحلة الصعود من جديد، وكانت هنــاك محاولات مختلفة على هذا الصعيد داخل الأزهر وخارجه، وأنشــأت جمعيــة الشبان المسلمين سنة ١٩٢٧، برئاسة عبد الحميــد ســعيد عضــو الحــزب الوطنى، وساهم في نشاطها شخصيات إسلامية هامة مثل حسن البنا، الشــيخ عبد العزيز جاويش.

وفي سنة ١٩٢٩ تأسست جماعة الأخوان المسلمين علــى يــد الأمــام الشهيد حسن البنا وخاضت الجماعة معاركًا فكرية وسياسية وعسكرية علــى كل مستوى، فقد كان العمل يحتاج إلى البدء من نقطة تؤكــد الانتمــاء إلــى الإسلام كدين، وكثقافة وكحضارة وكوطن، لأن الإنجليز قد شوشروا على كل شئ، خاض الأخوان المسلمين المعارك الفكرية ضد الإلحاد، وضد التوجهات السياسية المنحرفة كالعلمانية، القومية المصرية، القومية العربية، الشــيوعية، وضد فساد الملك والحاشية وضد الإقطاع [٣]، وضد الرأسمالية ، ودفاعًا عن

الفقراء والمستضعفين من العمال والفلاحين ضد الإنجليز في شوارع القاهرة أو على ضاف القناة [٤]، وفي مواجهة إسرائيل عام ١٩٤٨، حيث تطوع الأخوان المسلمين للقتال في فلسطين [٥]، وضد المصالح اليهودية في مصر، نسفت المصالح والمراكز اليهودية في القاهرة، وكذلك في مواجهة التبشير الأجنبى، وضرب محاولات الفتنة الطائفية، ووصل نفوذ الأخوان من القوة إلى درجة أنه أصبح لهم ١٧٠٠ شعبة، وأكثر من ٢ مليون عضو في الجماعة.

وفي نفس الإطار ظهرت جماعة مصر الفتاة سنة ١٩٣٣ ن على يد مؤسسها أحمد حسين، وقد اهتمت بالنضال السياسي انطلاقًا من الإسلام، وحاولت الاندماج مع الأخوان المسلمين أكثر من مرة، وتميزت بقيام عناصرها بتخريب "الخمارات ودور البغاء إلا أن البعض أخذ عليها عدم تحديد مفاهيمها السياسية، وظهور بعض الانحرافات الفكرية والتلفيق في مبادئها بين أشياء لا يمكن التوفيق منها مثل الإسلامية والعربية والمصرية وغيرها من الأفكار، ألا أننا نعتبرها على أي حال رافد من روافد حركة الشعب المسلم في مصر برغم بعض التشوهات.

لم يتوقف كفاح الشعب المسلم في مصر، من خلال حركتي الأخوان المسلمين ومصر الفتاة أو بقايا الحزب الوطنى، أو حتى من رحم الشعب المسلم مباشرة،و ظهرت العديد من أعمال العنف والثورة في مصر في مواجهة الإنجليز، اليهود، الملك، الأحزاب العلمانية (الوفد).

- في ٢٥ / ٨ / ١٩٣٠م عملية محاولة اغتيال إسماعيل صدقي باشا

– وفي ٢٢ / ٩ / ١٩٣١ قضية القنابل، والتي أتهم فيها ١٧ شخصًا بالاتفاق على قتل محمد توفيق باشا رئيس مجلس النواب وقتئذ، وكذلك إلقاء قنبلة على وزارة الحقانية، وإلقاء قنبلة على منزل محمد علام باشا وكيل مجلس النواب وقطع أسلاك التليفونات وتعطيل حركة القطارات.

– وفي ١٠ / ١٠/ ١٩٣١ اكتشف البوليس جمعية تألفت لارتكـــاب الجـــرائم السياسية.

– وفي ٦ /٥ / ١٩٣٢ محاولة اغتيال إسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء، وبعض الوزراء والنواب والشيوخ، وذلك بوضع قنبلة تحت القضـــبان بـــين محطتي طما وصدفا بقصد إسقاط ونسف القطار الذي كان يقل رئيس الوزراء ومرافقيـــه.

– وفي ٢٨ / ١١ / ١٩٣٧ تم الاعتداء على النحاس باشا رئيس الوفد لقيامه بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ مع الإنجليـــــــز.

– وفي ١٠ / ٤ / ١٩٤١ تم إطلاق النار على ملازم بريطاني.

– وفي ١٥ / ١١ / ١٩٤١ تم إطلاق النار على أثنين من الجنود البريطانيين

– وفي ٣١ / ١٢ / ١٩٤٢ تم إطلاق النار على أربعة جنود بريطانيين.

– وفي ١٠ / ١١ / ١٩٤٤ تم إطلاق النار على جاويش عسكري نيوزلندي.

– وفي ٨ / ١٢ / ١٩٤٤ تم إطلاق النار على ملازم بـــالجيش البريطـــاني (٦) .

– وفي إطار الانتفاض الشعبي شهدت تلك الفترة إضرابات وتظاهرات طلابية وعمالية مستمرة، فقد اندلعت المظاهرات في سنة ١٩٣١، وأضـــرب عمـــال عنابر بولاق، والورش الأميرية سنة ١٩٣١، وتظاهر هؤلاء العمـــال أيضًـــا وسقط منهم ١٣ شهيدًا و١١٩ جريحـــًا.

– وفي سنة ١٩٣٥ اندلعت المظاهرات في كل المدن والقرى، وسقط الكثير من الشهداء، وأعلن الحداد العام على الشهداء يوم ٢٨ نوفمبر، فأغلقت المتاجر واحتجبت الصحف، وعطلت المصانع، كما تم تنظيم مظاهرة كبيرة يوم ٧ ديسمبر ١٩٣٥.

وفي سنة ١٩٣٦، أضرب العمال في القاهرة والإسكندرية والوجه القبلي، كما اعتصم العمال في المصانع، كما تجددت موجة الأضرابات عام ١٩٣٨.

واستمرت المظاهرات والاضرابات طوال أعوام ١٩٣٠ ــ ١٩٤٦، ووصلت إلى ذروتها عام ١٩٤٦، وكان شعار تلك المظاهرات لا مفاوضة إلا بعد الجلاء وهو الشعار التقليدي للحزب الوطني، وقد وقعت مذبحة لتلك المظاهرة يوم ٩ فبراير سنة ١٩٤٦ فوق كوبري عباس، وعلى أثر تلك المذبحة هبت المظاهرات في الإسكندرية والزقازيق والمنصورة والسنبلاوين، وتجددت المظاهرات في ٢١ فبراير ١٩٤٦، وسقط في هذه المظاهرة ٢٣ شهيدًا، و١٢ جريحًا، ثم تجددت المظاهرات في ٤ مارس ١٩٤٦، وسقط المزيد من الشهداء والجرحى.

هوامش

(١) عقب عملية اغتيال السير لي ستاك، وكانت تلك المنظمة تضم عــددًا من العناصر انحدرت من منظمات سابقة وخاصة منظمة التضـــامن الأخوي التي كان قد أسسها إبراهيم الورداني ســـنة ١٩١٠، وكـــذلك منظمة الاتحاد الإسلامى، وكلها منظمات خرجت من عباءة الحـــزب الوطني.

(٢) طارق البشري، الحركة السياسية مصر ١٩٤٥ ــ ١٩٥٢، المقدمة ن الطبعة الثانية، دار الشروق.

(٣) د٠ محمد مورو، دور الحركة الإسلامية في تصـــفية الإقطـــاع، دار البحوث العلمية، ١٩٨٠.

(٤) صفحات من كفاح الشباب المسلم، حسن دوح، دار القلم، الكويت.

(٥) كامل الشريف، الأخوان المسلمون في حرب فلسطين، دار الوفاء.

(٦) راجع في هذا الصدد، د٠ محمود متولى، مرجع سابق، وكذلك أحمد عادل كمال، النقط فوق الحروف، الأخوان المسلمون والنظام الخاص، الزهراء للأعلام العربى، وقد تحدث المؤلف بالتفصيل عن العمليات التي نفذها التنظيم السري للأخوان المسلمون ضد الجنود والضـــباط الإنجليز.

عن طـــريق الانقـــلاب العسكـــري

إجهــــــاض جنين الثورة

إجهاض الجنين

مع نهاية الحرب العالمية الثانية، كان عدد من المتغيرات قــد أصـــبح موجودًا على الساحة الدولية والمحلية في مصر.

فعلى الساحة الدولية ظهرت قوة استعمارية جديدة هي الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تسعي بوسائل جديدة لوراثة النفــوذ الأجنبـــي الإنجليـــزي والفرنسي، عموما و في المنطقة خاصة وأن هاتان الدولتان خرجتا منهكتـــان من الحرب وغير قادرتين على الاســـتمرار كـــإمبراطوريتين اســـتعمارتين، وكانت أمريكا تسعي لتحقيق هذا الأمر سريعًا حتى لا تعطي للاتحاد السوفيتي فرصة التغلغل في المنطقة من ناحية، ولا تسمح للمد الإسلامي الثوري فـــي المنطقة بأن يهزم التواجد الإنجليزي والفرنسي لحساب قيام وحدة إسلامية أو إمبراطورية إسلامية وهو الأمر الذي حـــذرت منـــه تقـــارير الاســـتخبارات الأوروبية والأمريكية، ونبه إليه الكثير من الباحثين والسياسيين في ذلك الوقت.

كما ضهرت إسرائيل في المنطقة سنة ١٩٤٨، وكان لها بالطبع مصالح تتعارض تمامًا مع مصالح المنطقة من ناحية، وتتفق أو تتعارض ثانويًا مـــع مصالح الاستعمار القديم والجديد.

وعلى المستوى المحلي في مصر، كان النظام يمر بأزمة طاحنة، وقد أصبح أمر سقوطه حتميًا وليس ألا مسألة وقت لا أكثر ولا أقل.

فعلى المستوى الاجتماعى، ارتفع عدد الأسر المصرية في الريف المعدمة –التي لا تملك شيئا– من ٢٠% من سكان الريف في بداية القرن التاسع عشر إلى ٤٥./٠ سنة ١٩٥١، وكان ٤% من ملاك الأراضي يملكون ٣٥% من مساحتها، وكان ٥% آخرين يمتلكون ٣٠% أخرى، كما بلغ متوسط إيجار الفدان إلى حوالي ٧٥% من صافي إيراده .

ومن جانب آخر كانت البطالة تكتسح العمال، وكذلك ساهم التضخم وارتفاع الأسعار في إضعاف القوة الشرائية للجنية المصري وبالتالي زادت أعباء الفقراء بحيث أصبح الوضع غير محتمل للكثير منهم.

وعلى المستوى الوطني ظهرت الخيانات الواضحة في حرب ١٩٤٨، وظهر فساد الملك والحاشية والأحزاب بما فيها الوفد، وكثر الكلام عن الرشاوى والعمولات والصفقات.

وعلى المستوى السياسى، كانت السلطات الإنجليزية قد لجأت إلى الوفد كمنقذ أخير لها إلا أن الوفد الذي نجح كثيرًا في تطويق المد الثوري وتسريبه في قنوات جانبية، كان قد أصابه العجز والشيخوخة، وأصبح غير قادر على أداء مهمته التقليدية .

وعلى الجانب الآخر، كان الوعي الشعبي في ازدياد مستمر، وكان الشارع السياسي يغلي بالجماهير، فهناك المظاهرات المستمرة من الطلاب والعمال، وهناك الأضرابات المتوالية، حوالي ٢٠٠ إضراب كبير في عامي ١٩٥٠، ١٩٥١، ووصل الأمر بحكومة الوفد أن فقدت أعصابها لعدم قدرتها

على ضبط حركة الشارع السياسى، وهي مهمتها التقليدية، فقامت بقتل ثمانية من عمال مصنع سباهي في أغسطس ١٩٥٠ وألقت بجثثهم في ترعة المحمودية، وأحدثت حملة اعتقالات لزعماء العمال على يد الشرطة والقصر سنة ١٩٥١، وحدثت مجازر في مصانع الشوربجي بإمبابة وسباهي وكرموز وشبرا الخيمة والمحلة [(١)].

وحدثت انتفاضات فلاحية كبيرة في محلة موسى، كفر بدوى، كفر البرامون، وتصاعدت تلك الانتفاضات في عامي ١٩٥٠، ١٩٥١، فحدثت انتفاضات في قري ميت فضالة، بهوت، أبو الغيط، كفور نجم، سخا، السرو.

كما حدثت مظاهرات ضخمة من أكتوبر ١٩٥١ إلى يناير ١٩٥٢، واشترك في أحداها أكثر من مليون شخص، ورفعت ١٠ آلاف لافته تهاجم بريطانيا، وأمريكا، وأصدر شيخ الأزهر فتوى يدعو فيها إلى قتال الإنجليز [(٢)]

واندلعت أعمال العنف التي نظمتها جماعة الأخوان المسلمون ضد التواجد الإنجليزي في القناة، وفي خلال ٥٠ يومًا كان ١١٧ إنجليزيًا قد قتلوا و ٤٣٨ قد جرحوا، فقام الإنجليز بضرب مبني محافظة الإسماعيلية بالمدافع في ١٧/ ١٢ / ١٩٥١، ورد الفدائيون على ذلك بنسف القطارات والمعسكرات الإنجليزية، ورصد الإنجليز مكافأة ١٠ آلاف جنيه لمن يأتي بالشيخ فرغلي زعيم الفدائيين حيًا أو ميتًا، وحاولت حكومة الوفد تطويق هذه الأعمال، وأعلن فؤاد سراج الدين ضم كتائب الفدائيين إلى الحكومة، وطلب من الأحزاب والهيئات أن تتخلى عن الأشراف على تلك الكتائب، وبرر فؤاد سراج الدين ذلك بأن الكتائب بعدت عن أغراضها !! وبالطبع لم يهتم أحد بمثل هذا الكلام وأزداد العمل الفدائي قوة واتساعًا، وفي ١٢/٨ حشد الإنجليز

٦٠٠٠ جندي و٢٥٠ دبابة و ٥٠٠ مدرعة لاحتلال قرية أحمد عبده، حيث كانت قاعدة للعمل الفدائي، وامتدت أعمال العنف الفدائية إلى مناطق شرق الدلتا، فرد الإنجليز باحتلال التل الكبير، وأبو حماد ١٦ يناير ١٩٥٢، وقامت حكومة الوفد بالقبض على الفدائيين وترحيلهم إلى بلادهم بعد تجريدهم من السلاح، إلا أن عمليات العنف تصاعدت أكثر، وفي ٢٥ يناير ١٩٥٢ حدثت اشتباكات واسعة بين الشرطة المصرية والقوات الإنجليزية، وسقط ٧٠ شهيدًا مصريًا، و ٤٠ قتيلاً إنجليزيًا [٣].

ومحصلة كل هذه الأمور تؤكد أن الثورة الشاملة على وشك الانفجار، فالنظام في حالة أزمة شاملة على كل المستويات، ومسألة سقوطه مسألة حتمية، وحتى الوفد نفسه باعتبار الاحتياطي الأخير في جعبة النظام، كان قد فشل تمامًا في تهدئة المد الثورى، وتجاوزته الجماهير تمامًا.

والجماهير في حالة ثورة حقيقية، طلابها، وعمالها، بل وفلاحيها، وهناك كفاح مسلح ضد الإنجليز في القناة.

والمنظمات الشعبية الإسلامية تمتلك التنظيم والسلاح والخبرة القتالية، فالأخوان مثلا كان لهم أكثر من ١٧٠٠ شعبة، وأكثر من ٢ مليون عضو، وكان لهم تنظيم سري على درجة عالية من التسليح والكفاءة، كما أنهم كانوا قد اكتسبوا الخبرات القتالية في حرب فلسطين ١٩٤٨، أو في الكفاح المسلح على ضفاف القناة ضد الإنجليز.

وهذه العوامل مجتمعة تؤكد أن ثورة إسلامية شاملة ستندلع حتمًا، ثورة تحقق الجلاء وتحقق أوسع مشاركة شعبية، وتحقق العدالة والحرية، وتحشد الجماهير وتعبئها ضد إسرائيل وأمريكا، والحضارة الغربية عمومًا.

وكان من الطبيعي أن تتحرك القوي الشيطانية (إسـرائيل وأمريكــا) لوقف انفجار الثورة وإجهاض جنينها، وأتبعت تلك القــوي تكتيكًــا شــيطانيًا خبيثًا، فقامت باعتقال الأمام حسن البنا في ٢١ فبراير ١٩٤٨، حتــى تحــرم جماعة الأخوان، وتحرم الأمة من قيادة خبيرة وذات كفاءة، كما قامت بعدد ن عمليات الاعتقال والسجن لقيادات وعناصر الأخوان المسلمين حتــى تجعــل الجماعة في حالة رد فعل، وبالتالي تفقد زمام المبادرة، ومن ناحية ثالثة قامت تلك القوي الشيطانية بــإحــراق القاهــرة لتحقيــق نــوع مــن الفوضــى، والتخلص من أحمد حسين باتهامه بارتكاب الحريق.

وهكذا تم إعداد المسرح جيدا لانقلاب عسكرى، يحقق للقوي الشيطانية أهدافها في إجهاض جنين الثورة الشعبية، وإطالة عمــر الأنظمــة العميلــة، وتحقيق أهداف إسرائيل في الوجود والتوسع والهيمنة، ومساعدة أمريكا فــي وراثة النفوذ الاستعماري الإنجليزي والفرنســي في المنطقــة وهكــذا جــاء انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

هوامش

(١)طارق البشري، الحركة السياســية فــي مصــر ١٩٤٥ – ١٩٥٢، دار الشروق.

(٢) نفس المرجـــع الســـابـــق .

(٣)أسامة حمـــيد، موجز تاريخ مصر في الحقبة العلمانية.

فهرس الجزء الثالث

فهرس الجزء الثالث

كفاح شعب مصر

١ – عصر محمد علي .

٢ – الثورة العرابية .

٣ – مصر تحت الاحتلال الإنجليزي.

تأليـــف

دكتور/ محمد مـــورو